
هاينريش بل
ولم يقل كلمة
روايات جائزة نوبل
12
الدار المصرية اللبنانية
ترجمة
ياسين طه حافظ

روايات جائزة نوبل

12

روايــــات جائــزة نــوبـــل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنــانية

المــديــر العـــام : **محمد رشـــاد**

رئيس التحـريـــر : **فتحى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحـى**

---

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون . ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٥٨٢٥ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى . 2 - 360 - 270 - 977

الطبعة الأولى . رمضان ١٤١٨ هـ ــ يناير ١٩٩٨ م .

ولم يقل كلمة

AND NEVER SAIDA WORD

هاينرش بل

نوبل / 1972

ترجمة

ياسين طه حافظ

1



بعد العمل ، مضيت إلى « البنك» لصرف ذلك الشيك . كان أمام المحاسب « طابور » طويل من الناس . انتظرت نصف ساعة حاملاً ذلك الشيك فى يدى ، أخيرًا رأيت المحاسب يمرره إلى فتاة ترتدى بلوزة صفراء . التفتت الفتاة إلى ملف بطاقات الحساب ، وجدَتْ بطاقتى ، أعادت الشيك إلى المحاسب قائلة :

ـ « صحيح » .

عدّتْ يدا المحاسب النظيفتان الأوراق النقدية على وجه الرخامة أمامه . أعدتُ أنا حسابها واتخذْت طريقى للخروج . ذهبت إلى مائدة صغيرة إلى جانب الباب لأضع النقود فى ظرفٍ ، ولأكتب ملاحظة لزوجتى . كان على المائدة أوراق إيداعٍ قرنفلية . أخذت واحدةً وكتبتُ على ظهرها بالقلم الرصاص :

« يجب أن أراكِ غدًا ، سأتصل قبل الثانية » .

وضعت الملاحظة فى ظرف . . ترددتُ . . أخرجتُ النقود مرةً أخرى . . سحبت قطعة فئة عشرة ماركات منه ووضعتُها فى جيب سترتى . أخرجت ورقة الملاحظة ثانية ، وأضفت إليها هذه الكلمات :

« احتفظتُ بعشرة ماركات لنفسى ، سأعيدها لَكِ غدًا . قَبِّلى الأطفال ... فريد » .

لكن الظرف لا يلتصق ، فذهبت إلى رَفٍّ خالٍ مكتوب عليه إيداعات . الفتاة وراء الزجاج ، نهضت ورفعت زجاج النافذة . كانت نحيلة ، ببشرة سمراء ، ترتدى سترة قرنفلية اللون ، مشدودة عند العنق بوردة صناعية .

سألتها : « أيمكننى أن أحصل على قطعة شريط لاصق ؟ »

نظرت إلىّ لحظة وترددتْ ، ثم قَطعتْ شريطاً من لفَّةٍ لاصقٍ بُنيّة اللون ، سلمته لى دون كلمة ، وأعادتْ إنزالَ الزجاج مرة ثانية ، فقلت ووجهى لزجاج النافذة :

ـ «شكراً » .

عدت إلى المائدة . . ألصقت الظرف ، وأنزلت قُبَّعتى على جبهتى ، وغادرت « البنك » .

كانت السماء تمطر حين خرجت ، وفى الشارع بضع أوراق يابسة تنجرف على الأسفلت . وقفت فى مدخل « البنك » ، أنتظر . . السيارة رقم (١٢) تستدير على المنعطف ، قفزتُ فيها ومضيتُ إلى ميدان « نوكوف» . كانت السيارة مَلْأَى بالناس ، وملابسهم تقطر من البْلَل . كان المطر يزداد شدةً حين قفزتُ نازلاً فى ميدان « توكوف » ولم أدفع ثمن التذكرة . اندفعت تحت مظلة محل أكلات خفيفة ، تقدمتُ وطلبتُ سجقة مقلية وكوباً من مرق البقر ، وطلبتُ عشر سجاير ، وصرّفتُ الماركات العَشْر .

تناولت قضْمَةً من السجق . . نظرت فى المرآة التى احتلت كل حائط الكشك . فى البداية ما عرفت نفسى ، وقد رأيت ذلك الوجه المضنى تحت

القُبَّعَة الحائلة اللون ، وانتبهت فجأة إلى أنى أبدو مثل واحد من أولئك الباعة المتجولين الذين كانوا يأتون إلى باب أمى ولا يبرحون . كان اليأس القاتم فى تلك الوجوه يشخص فى الضوء المعتم لواجهة الصالة . كنت أفتح لهم الباب وأنا إذا ذاك ولد صغير . وحين تجىء أمى ـ وقد كنت أدعوها بإلحاح وعينى على حاملة المعاطف ـ تجىء بأسرع ما تستطيع من المطبخ ، وهى تنشف يديها بصدريتها فيشع ضوء غريب على تلك الوجوه والأشكال اليائسة. كانوا يحاولون بيع كسر الصابون ، أو ملمع الأرضيات أو مقصات، أو أربطة أحذية . . تلوح على تلك الوجوه الرمادية اليائسة سعادة لدى رؤية أمى . لكن لهذه السعادة شىء مّا يكدرها . كانت امرأة طيبة ، فهى لا تطرد أحدًا عن بابها ، تعطى الشحاذين خبزًا إن كنا نملك بعضًا منه ، ونقودًا إن كان لنا شىء .

تقدم لهم فى الأقل كوباً من القهوة ، وإذا لم يتبق لنا شىءٌ فى الدار تقدم لهم ماءً باردًا فى قدح نظيف. كان حول جرس الباب زحمة إشارات ونداءات متسولين ، تتاح لكل شحاذ فرصة طيبة لبيع شىء ، حتى لا يبقى فى البيت ما يكفى لشراء رباط حذاء. لا يثير الباعة ارتياب والدتى ، ولا تستطيع مقاومة أوجه أولئك المعذبين ، فنروح توقِّع للآخرين على أثمان أشياء تظل ديوناً عليها ، كما توقع لهم وثائق تأمين وكفالات . أتذكر وأنا ولد صغير أرقد فى فراشى فى الليل أنىِّ كنت أسمع والدى يعود إلى البيت ، ولحظة يدخل غرفة الطعام ، يبدأ الشجار ، شجار مخيف لا تقول فيه والدتى كلمة واحدة. كانت امرأة هادئة . أحد الرجال اعتاد أن يأتى إلى مكاننا مرتدياً قُبَّعَةً حائلة اللون ، مثل هذه التى ألبسها الآن ، كان اسمه « ديتش» ، وكان كاهناً لم يجرّدْ من سلطته ، كما اكتشفت ذلك بعدئذ ، وكان يبيع كِسَرَ

الصابون . الآن ، وأنا أتناول السجق ، وهو ساخن جدًّا لدرجة أنه أحرق لَثَتِي الحساسة ، اكتشفت فى المرآة الممتدة على طل الجدار أننى صرتُ أبدو مثل ذلك الديتشى بقبعتى ووجهى المُجْهَد، واليأس فى عينىَّ . لكنّ قريباً من وجهى فى المرآة رأيتُ وُجوه رجال آخرين على المقاعد الأمامية وأفواهاً تنفتح واسعة لتلتهم سجقاً . رأيت لثاتٍ معتمة خلف أسنان صفراء يَعْلَقُ بها فُتاتٌ وردىٌّ من لحم السجق، يتساقط منها فى تلك الفتحات السود . رأيت قبعات جيدة ورثة ، وشعورًا مبللة لآخرين بلا قبعات ، وذلك الوجه الوردى وجه النَّادِلَة التى تقدم على خدمتهم ، والتى تمضى بينهم وتعود . وفى ابتسامة بهيجة تصطاد بشوكة خشبية سَجقة من بحيرة الزيت ، وتضع قليلاً من الخردل على صحن ورقىّ . هى أيضاً تُسَلّم سجاير وعصير ليمون، وتتناول نقودًا بتلك الأصابع الوردية . هذا . . والمطر لا يزال يهطل على سقف المحل .

فى وجهى أيضاً أرى ذلك المشهد للشراهة وأنا ألتهم السجق ، وحين أفتح فمى فيكشف عن بلعوم قاتم وراء أسنان مُصْفَرَّة ، أرى ذلك المشهد فيفزعنى بين وجوه الآخرين . رءوسنا كانت مسطرة مثل الدُّمَى . . وجوه تلوح خاوية فى البخار الدافىء المتصاعد من المقلاة .

فى نوبة اشمئزازى تلك ، اندفعتُ خارجاً مرة أخرى ، مسرعاً خلال المطر فى شارع « موزار ». تحت مظلات المخازن وقف الناس منتظرين . وعند الوصول إلى ورشة «فاجنر » كان علىَّ شقُّ طريقى عبر الزحام إلى الباب الذى فتحته بعسر ، واسترحتُ أخيرًا حينما رحت أمشى نازلاً على درجات السلم ، وقد ارتفعت بعدها لتستقبلنى رائحة الجلود . كانت هنالك رائحة أحذية عتيقة ، ورائحة جلود جديدة ، ورائحة شمع الإسكافى وكنت أسمع مكنة خياطة الجلود قديمة الطراز .

اجتزت امرأتين تنتظران على مصطبة ، فتحت الباب الزجاجى ، وسرنى أنى أرى زيارتى تجلب ابتسامة إلى وجه «فاجنر» . لقد عرفته مدة خمس وثلاثين سنة .

اعتدنا العيش فى الطابق الأعلى ،فوق محله الحالى ، فى مكان ما فى العراء، فوق السقف الأسمنتى لورشته. هنالك كنا نعيش . وأذكر أنى حملتُ له يوماً نَعْلَىْ أمى ولم أتجاوز حينها الخامسة . والآن ، مرة أخرى أرى صورة المسيح المصلوب معلقة على الجدار وراء مقعده ، وإلى جانبها صورة القديس كريستيان ، ذلك الإسكافى شيخٌ وديع بلحية رمادية يحملها فى يديه ، يدين ليستا خشنتين كثيرًا بالنسبة ليدى إسكافى .

صافحتُ « فاجنر » ، ولأنه يحمل مسامير فى فمه ، فقد اكتفى بهزّ رأسه باتجاه المقعد الآخر دون كلمات . جلستُ وأخرجت الظرف من جيبى ودفع « فاجنر » تبغَه وورق سجائره عبر المائدة ، لكن سيجارتى لا تزال مشتعلة .

قلت له : « كلا ، شكرًا » وقدمت الظرف إليه .

وأضفت : « لعله ... » .

أزاح المسامير من فمه ، مَرّرَ إصبعه ماسحاً شفتيه ليتأكد من عدم التصاق مسمار عليهما، وقال : « رزمة أخرى لزوجتك ـ حسن ، حسن»!

أخذ الظرف وهزَّ رأسه قائلاً : « سأهتم به ، سأرسل ابنى الكبير إلى هناك حينما يعود من الاعتراف ـ ونظر إلى الوقت ـ خلال نصف ساعة » .

قلت : «يجب أن تصلها اليوم نقود فى داخله » .

أجابنى : أعرف .

صافحته وودعته ، وأنا أصعد السلم خطر لى ثانية : كان علىّ أن أطلب منه بعض النقود . ترددت لحظة ، ثم صعدت آخر دَرْجَةَ ورحت أشق طريقى بمرفقى خلال الناس .

مضت على مغادرتى السيارة خمس دقائق ولا تزال السماء تمطر فى شارع «بنكام» أسرعت قدماً بين « الجَمَلُونَات » العالية التى ثُبتت لحماية المبانى الغوطية ، التى بدت مثل تحف أثرية . ومن خلال أُطُر النافذة المسودة ، تمكنت من رؤية السماء المثقلة بالسحب . بناية واحدة من تلك البنايات كانت مشغولة ، مشيت مسرعاً تحت سقف مدخلها ضغطت الجرس ، وانتظرت .

استطعت أن أقرأ فى عينى الفتاة البنيتين اللطيفتين ذلك العطف نفسه الذى كنت أشعر به أنا نحو ذلك النمط من الناس الذين صرت الآن أشبههم . أخذت سترتى وقبعتى . نفضتها خارجاً قرب الباب .

قالت : « يا إلهى ، حتماً تحملت المطر ! »

هززتُ رأسى ومضيت إلى المرآة ، وأجريت كفى فى شعرى .

سألتها : « هل السيدة « بيزم» موجودة ؟» .

ـ « كلا ليست ... »

ـ أسألُ إنْ هى تذكّرت أنَّ غدًا هو الأول من الشهر . . ؟ .

ـ كلا .

أجابتنى الفتاة وأدخلتنى غرفة « الصالون » . حركت المنضدة قريباً من الموقد الحجرى ، ونظرت إلى الساعة الجدارية التى مضت عليها مائة

وخمسون سنة تعلن الوقت لعائلة « بيزم » . الغرفة مزدحمة بأثاث قديم والنوافذ ذات زجاج غوطى أصيل مُؤَطَّر بالرصاص .

جاءتنى الفتاة بكوب من القهوة ، ساحبة « الفونس » وراءها من حمالة بنطلونه ـ بيزم الصغير الذى تعهدت بتعليمه قواعد حسبا الكسور الولد أحمر الخدين ، يهوى اللعب بالبلوط فى الحديقة الكبيرة ـ يجمعها بشوق ، يجمعها حتى من البنايات المجاورة التى لا تزال فارعة ، فى الأسابيع القليلة الماضية ، صرت أرى ، حين تكون النافذة مفتوحة ، سلاسل طويلة من البلوط تتدلى بين الأشجار .

ضممتُ كوبَ القهوة بيدىَّ لأشعر ببعض الدفء ، وببطء أعيد قواعد الكسور لذلك الوجه المفعم بالعافية ، وأعلم أن ما أفعله غير ذى جدوى . إنه طفل محبوب ، ولكنه غبى مثل والديه وإخوانه وإخواته ، فى الدار شخص واحد ذكى : الفتاة .

السيد « بيزم » يتاجر بالجلود والأحشاء ، رجل محبوب ، حينما التقى به أحياناً ويبادلنى الحديث ، أحس إحساساً مضحكاً ، ذلك أنه يحسدنى على عملى . لدىَّ انطباع أنه طول حياته يعانى من حقيقة أنه يُتَوقعُ منه أكثر مما يستطيع أن يقدم : إدارة عمل كبير تتطلَّبُ من الفظاظة قدر ما تتطلب من الذكاء ، و هو يفتقد الاثنين . عندما نلتقى يسألنى عن تفاصيل عملى بعاطفة تجعلنى أظن أنه يفضل أن يقضى كل حياته مغلَقَة عليه غرفة بدَالة مثلى . يريد أن يعرف كيف أدير لوحة الأرقام ، كيف أدخلُ نداءات المسافات البعيدة ، يسألنى عن رطانة حرفتنا . وفكرة أنى أستطيع أن أتنصَّتُ على كل حديث ، هذه الفكرة منحته ابتهاج طفل ،

اندهش قائلاً : « ممتع » وظل يعيد : كم ذلك ممتع ! .

تقَدَّمَ عقربا الساعة ببطء . كان الولد يعيد عليَّ القواعد ، أمليتُ عليه تمارين ، وجلست أدخن حتى يتم حلها . كانت الحالة هادئة فى الخارج . هنا فى قلب المدينة صمتٌ مثل صمت القرى الصغيرة فى السُّهوبِ التى ابتعد عنها الرعاة ، فليس فيها بعدهم غير عجائز عليلات : الكسور تقسم على بعضها بضربها مقلوبة . فجأةً ، وَجَّه الطفلُ إلى وجهى عينين ثابتتين وقال :.

ـ . كليمنز نال B . a فى اللاتينية .

لا أدرى إن كان لاحَظَ كم أثارنى . فتنويهه سحب وَجْه ابنى وألقاه أمامى ، ذلك الوجه الشاحب لصبى فى الثالثة عشرة . وتذكرت أنه يجلس إلى جانب الفونس .

قلت بجهد : « ذلك لطيف وماذا عنك ؟ »

قال : « d ».

وتركزتْ عيناه المليئتان بالشك فوق وجهى ، كما لو كان يبحث عن شىء، وشعرت فى الوقت نفسه بأنى ممتلىء باللامبالاة ، فهم جميعاً يحدقون فى وجهى الآن . تجسدت ـ كاملةً قريبةً من وجهى ـ وجُوهُ زوجتى وأطفالى ، وجوه كبيرة عملاقة كما لو كان وجهيٍ يُضِيئُهَا . كان علىَّ أن أغطى عينىَّ وأنا أتلفظ :

« استمر ... كيف نضرب الكسور ببعضها ؟ .

وأعاد القاعدة بصوت خفيض ، ناظرًا إلىَّ ، لكنى لم أسمعه ، فقد لاح أطفالى يجرون فى الحلقة المفرغة التى تبدأ بحمل الحقيبة المدرسية على الظهر

وتنتهى فى مكانٍ مّا فى مكتب دائرة ـ وكيت ، زوجتى ، تراقب أطفالنا يخرجون فى الصباح حاملين حقائبهم المدرسية على ظهورهم . . أعدت قواعد الحساب العشرى بوجه الطفل ، بعضها ارتد من وجه الطفل عائدًا إلىّ ، ومرت الساعة ، وإن كانت بطيئة ، وربحتُ ماركين ونصفًا وخمسين فينيكاً .

حددت للصبىّ واجبه البيتى للدرس القادم ، شربتُ بقية ، القهوة ودخلت إلى الصالة . جففت الفتاة سترتى وقبعتى فى المطبخ ، ومنحتنى ابتسامة وهى تعيننى على ارتداء سترتى .

خطوت خارجاً إلى الشارع ، استعدتُ وجه الفتاة الناشف ، طيب الشمائل ، وفكرت : أيمكن أن أطلب منها نقوّدا ! ترددتُ لحظة ، قَلَبْتُ ياقة سترتى ، إذ كانت السماء لا تزال تمطر ، وأسرعت إلى موقف السيارات بجوار كنيسة « أحزان مريم السبعة » .

بعد عشر دقائق ، كنت أجلس فى القسم الجنوبى من المدينة ، وفى مطبخ تفوح منه رائحة الخل ، وفتاة شاحبة الوجه ذات عينين واسعتين بنيتين كانت تستظهر قائمة من الكلمات اللاتينية . ولحظةً فتحتُ البابَ إلى الغرفة المجاورة أطلَّ وجه الفتاة بعينين واسعتين بنيتين : أَتْعِبِى نفسَكِ يا صبية ، فأنتِ تعلمين كم هو عسير إرسالك إلى مدرسة ، والدروس تكلف كثيرًا » .

الطفلة أجهدت نفسها ، وأنا أجهدتُ نفسى ، وقد مضت الساعة كلها علينا ونحن نهمس لبعضنا بقوائم من الكلمات اللاتينية ، بجمل وقواعد نحوية ، وأنا على يقين بأن كل ذلك بلا جدوى . . فى الثالثة وعشر دقائق

خرجت إلينا المرأة النحيلة من الغرفة المجاورة تضوع برائحة الخل، ضَفَرَتْ شعر الطفلة ثم نظرتْ إلىّ ، وسألت :

ـ «هل تعتقد بأنها ستنجح فيها؟ فى الاختبار الأخير حصلت على (a.c) وغدًا اختبارهم الثانى » .

زررتُ سترتى ، وأخرجت قبعتى الرطبة من جيبى ، وقلت لها بهدوء : «سوف تنجح فيها » . ووضعت يدى على ضفيرة الطفلة الذهبية ، وقالت المرأة :

ـ « ستنجح فيها ، إنها كل ما أملك . . زوجى قُتِلَ فى فينستا :

تذكرتُ فى تلك اللحظة صورةً محطة القطار القذرة فى « فينستا » وهى مَلْأَى بالجرارات الصدئة . . نظرت إلى المرأة واستجمعتْ هى فجأة شجاعتها وقالت ما أرادت أن تقوله كله :

ـ « هل يضيرك أن تنتظر النقود حتى ... » .

ووافقتُ حتى قبل أن تُكمل جملتها . منحتنى الطفلة ابتسامة .

حين خرجت ، كان المطر قد توقف ، والشمس الآن مشرقة ، وبضعة أوراق صفراء كبيرة تجرفها الريح من الأشجار إلى الأسفلت الرطب .

أردت حقيقةً أن أذهب إلى البيت ، إلى « المجمع السكنى » حيث أعيش شهرى الأخير ، لكنى بقيت أستعجل إنجاز الأمور ، أُؤدِّى مهامَّ وأنا أعلمُ أنها لن تفضى إلى شىء : كان ممكناً أن أطلب من « فاجنر » نقودًا ، وتيسر لى أن أطلب من عاملة آل بيزم أو المرأة التى تضوع برائحة الخل ، وكنت واثقاً أنهما سيعطيانى شيئاً ، لكنى بدلاً من التوجه إليها ذهبتُ إلى موقف

الترام ، ركبتُ الترامَ رقم (١٦) وتركت نفسى تهتز بين ركابٍ مُبللين حتى «نيكنهايم» وأنا أحس بأن السجق الساخن الذى تناولته بعد الظهر قد بدأ يُصيبنى بالغَثَيان .

فى « نيكنهايم » سرتُ بين شجيرات المتنزه المهملة حتى وصلت إلى «فيلاّ» « بولكر » ضغطت الجرسَ وأدخلتنى خادمته إلى الصالة ، حين دخلتُ غرفته قطع « بولكر » شريطاً من جريدة ليجعل منها مؤشرًا فى كتابه ، أطبق كتابه بقوة والتفت إلىّ بابتسامة باهتة ، هو أيضاً قد شاخ ، لقد عاش سنوات مع هذه المرأة « دورا » ، وصار ما بينهما أثقل عبئاً من أى زواج يراقبُ كُلُّ منهما الآخر بشدةٍ ، جَفَّتْ تعابيرهما ، إنهما يتناديان بـ « حبيبى » و« بوسى» ويتشاجران على النقود وهما متعانقان .

فى عودتها إلى الغرفة ، قَطَعَتْ « دورا» أيضاً شريطاً من الجريدة ، ووضعته مؤشراً فى كتابها ، وصَبَّتْ لى كوباً من الشاى . . على المائدة بينهما بعضُ الحلوَى وعلبة سجائر ودورق شاى .

قال بولكر : «حَسَن أن أراكَ مرة أخرى ، هل من سيجارة ؟ »

أجبته : « أجل ، من فضلك » .

دَخَّنَّا بصمت . . « دورا »،جالسة جافية الوجه عنى ، ولكنها التفت لأنظر إليها اكتسَى وجهها مظهرًا حجريًا يذوب فى ابتسام حلما تلتقى عيناى بعينيها . لم يقل أحدهما كلمة ، ولم أقل . . نفَضتُ سيجارتى فجأة ، وقلت وسط ذلك الصمت :

« هل أستطيع اقتراض بعض النقود ، لعل ... »

لكن « بوكلر» قاطعنى بضحكة قائلاً : « إذن تستطيع اقتراض الشىء نفسه الذى نحن دائماً فى حاجة إليه ، يسرنى أن أساعدك ، ولكن النقود كما تعرف ... »

نظرتْ إلىَّ «دورا » وذاب فى الحال مظهرها الحجرى فى ابتسامة لها غضون عميقة حول فمها ، وتبدو أنها تمتص دخان سيجارتها بعمق أكثر من المعتاد .

قلت : « آسِف ، ولكنك تعلم أنها . . »

أجاب : « أعلم ، لا حاجة للاعتذار ، كل واحد يمكن أن يجد نفسه فى حرج »

« لن أضيع وقتك » . أجبتُه ونهضت .

قال لى : « أنت لا تضيع وقتنا أبدًا » .

وأستطيع أن أقول ، من الحميمية الفياضة فى صوته ، أنه كان يعنى ما يقول « دورا » نهضت أيضاً ، أعادتنى مِنْ كتفىَّ ، واستطعت أن أقرأ فى عينيها الخوف من أن أغادر المكان .

أدهشنى أنهما كانا فَرِحَيْنِ برؤيتى حقًّا . قدمت لى دورا » علبة السجائر، وصبَّت لى كوباً ثانياً من الشاى . وجلستُ ملقياً قبعتى على مقعد . لكنا بقينا صامِتَيْنِ ، نتبادل بين آونة وأخرى بضع كلمات . ومتى ما نظرت إلى وجه « دورا » الحجرى ذاب فى ابتسامة منها ، على أن أؤكد أنها ابتسامة مخلصة . لأننى حينما نهضت أخيرًا وأخذت قبعتى من فوق المقعد ، أدركت أنهما كانا خائفين من أن يعودا وحيدين .

إنهما كانا خائفين من الكتب والسجائر والشاى . هما كانا مرعوبين من المساء ، من الضجر الانهائى الذى جلباه على نفسيهما ، والذى هو حصيلة زواجهما الممل .

بعد نصف ساعة كنتُ واقفاً فى قسم آخر من المدينة ، عند باب زميل مدرسة قديم ويدى تضغط الجرسَ . لم أره منذ أكثر من سنة ، والآن ، وأنا أزيح الستار قليلاً وراء النافذة الصغيرة فى الباب الأمامى رأيتُ ذلك اليأس على وجهه الممتلىء ، كثير اللحم . فتح الباب ، وقد تهيأ له وقت أثناء ذلك ليرتدى وجهاً آخر ، وإذا نحن نسير معاً فى الممر ، وَصَلَ إلىَّ البخار المتصاعد من غُرفة الحَمَّام ، وصوت يقول :

ـ « من ؟ »

جلستُ معه نصف ساعة فى الغرفة ذات أثاث ضارب إلى الخضرة يضوع برائحة « النفتالين » . تحدثنا عن هذا وذاك ، دخّنا ، وحين بدأ يستذكر أشياء عن المدرسة ، توهج وجهه قليلاً ، فى حين أدركنى الضجر ، ومع دخان سيجارتى ، نفخت طلباً فى وجهه :

ـ « هى يمكنك إقراضى بعض النقود ؟ »

لم يدهشه ذلك ، لكنه بدأ يتحدث عن الدفع للإذاعة ، وخزانات المطبخ ، والأريكة ، وعن سترة شتوية لزوجته ، ثم مُغَيِّرًا الموضوع ليبدأ الكلام عن المدرس مرة أخرى . أصغيت إليه وانتابنى شعور غريب ، كأنه يتحدث عن شىء حدث قبل ألف سنة . صِرْنَا فى حديث غامض مع البواب ، نرمى إسفنجات على السبورة ، رأيتنا ندخن فى المرافق ، كما لو أن

ذلك فى عصور ما قبل التاريخ . كان ذلك غريباً جدًّا وبعيدًا ، بحيث أرعبنى .

فنهضت قائلاً : « آسف ... » واستدرتُ لأغادرهم .

تجهّمت تعابيرَ وجهه مرة أخرى ونحن نمشى عائدين فى الممر ، ومرة أخرى انطلق زعيق زوجته من داخل الحمام تطلب شيئاً لم أميّزْه ، وردّ هو على الصياح بشىء مثل :

« اقطعيها . . هل تستطيعين ؟ »

وأغلقتُ الباب ورائى . وحينَ نظرتُ إلى الوراء من بين السلالم المتسخة تمكنت من رؤيته يزيح الستار من النافذة الصغيرة، ويراقبنى وأنا أغادر المكان .

سرتُ ببطء فى البلدة . وبدأت السماء تمطر مرة أخرى بلطف . . هنالك فاحت رائحة التفسخ والرطوبة ، وقد أوقدت المصابيح الزيتية توًّا . فى نُزُلٍ فى الطريق . تناولتُ « شنابن» ، ولاحظتُ رجلاً واقفاً عند صندوق الموسيقى ، ظل يلقى بقطع نقدية ليصغى إلى نغم يودّ سماعه . نفثتُ دخان سيجارتى عبر المنضدة ، حدقتُ بالوجه الجليل لربة النُّزُلِ ، التى نظرت إلىّ كواحد ملعون ، دفعتُ ثمن شرابى وخرجتُ إلى الطريق .

من أكوام ركام البنايات المقصوفة بالقنابل يتحدَّرُ ماء المطر إلى جانب الممشى فى جداول طينية مُرَقَّشةٍ باللَّوْنَيْنِ : الأصفر والبنى . وبينما أسير تحت السقالات ، كانت تتساقط على سترتى منها قطرات طباشيرية .

جلستُ فى كنيسة « الدُّمِنيكان » وحاولت أن أصلى ، كانت الكنيسة مظلمةً، ونقاط صغيرة من رجال ونساء وأطفال يقفون فى منطقة الاعتراف .

وفى مقدمة المذبح شمعتان تتقدان . كان المصباح الأحمر الثابت يتوهج مثلما كانت المصابيح الصغيرة فى منطقة الاعتراف . شعرتُ بالبرد ، فقد بقيت حوالى ساعة فى الكنيسة ، سمعتُ الهمهمات الخفيضة للمعترفين ، راقَبت الناس يتحركون إلى الأمام حينما يقتحمهم أحد ليدخل إلى صحن الكنيسة ، مغطياً وجهه بيديه. مرةً رأيت الملفّات الحمر المتوهجة للمسخّن الكهربائى، كان ذلك حين فتح أحد القساوسة باب غرفة الاعتراف، ونظر إلى ماحوله، ليرى كمًّا من الناس لا يزالون ينتظرون .

بدا عليه أنه أُحبِطَ من رؤية ذلك العدد الكبير ، أكثر من دستة من الناس ينتظرون .عاد ودخل إلى مكان الاعتراف . يمكننى سماع المسخّن الكهربائى يُطفأ ، وتتصاعد ثانية همهمات المعترفين . بدت لى مرة أخرى وجوه كل أولئك الذين ذهبت لأراهم بعد ظهر ذلك اليوم ، ابتداءً بالفتاة التى أعطتنى قطعة الشريط اللَّصق فى المصرف ، إلى المرأة ذات الوجه الأحمر القاتم فى كشك الأكلات الخفيفة ، ووجهى وفمى المغرور ، وفُتات السجق يتساقط فى حفرته والقبعة « حائلة اللون تعلُو وجهى . . رأيت وجه «فاجنر»، والوجه اللطيف الناشف لخادمة بيزم . والصغير « الفونس بيزم» الذى همست له بقواعد الحساب ، والفتاة فى المطبخ التى تفوح منها رائحة الخل ، ورأيت محطة القطار فى فينستا ، قذرة ملأى بالجرارات الصدئة ، تلك المحطة التى قُتِلَ فيها أبوها ، رأيت أمها بفمها الدقيق وعينيها السوداوين الواسعتين . رأيت « بوكلر » زميل الدراسة ، والوجه الآخر للرجل الذى كان واقفاً عند صندوق الموسيقى فى النزل .

سَرَى إلىّ البرد ، وقفتُ ، وأخذت بعضاً من الماء المقدّس من وعاء فى الممر ، رسمت الصليب، ومضيت خارجاً إلى شارع « بونن » ، وحين

دخلت « حانة بتزنر» وجلست أمام مائدة صغيرة قرب لعبة الكرة أدركتُ أنى طيلة بعد ظهر ذلك النهار ، ومن اللحظة التى أخرجت فيها العشر الماركات من الظرف ، ما فكرت بشيء غير « حانة بتزنر » الصغيرة .

ألقيت بقبعتى على المشجب وناديت :

ـ «شنابز كبير ، من فضلك » .

وزررتُ سترتى ، ورحتُ أخرج بضع قطع من جيبى . ألقيتُ قطعة فى شقّ لعبة الكرة ، وضغطت الزر محرّكاً الكرات الفضية الصغيرة فى مجراها ، ومستخدماً يدى اليمنى فى رفع الشنابز الذى جلبه لى بتزنر ، قاذفاً الكرة إلى اللوح المنحدر ، وأصغيت إلى النغمة التى تطلقها الكرة وهى تلامس المصدّات . وحين بحثتُ بجدِّيَّة فى جيبى وجدتُ قطعةً ذات خمسة ماركات كدت أنساها : لقد أعطانى إياها الصديق الذى أستضافنى فى غرفة البدالة .

انحنيت على اللعبة أراقب دحرجة الكرات الفضية وأصغى إلى نغماتها . وسمتعت « بتزنر » يقول لرجل آخر فى البار قريباً جدًّا منه :

ـ «سيظل هناك حتى يتخلص من آخر بنس لديه » .

عددتُ النقود التى أرسلها لى « فريد » مرة ثانيةوثالثة : أوراق مصرفية قاتمة الخضرة ، خفيفة الخضرة وزرقاء ، مطبوعة عليها رؤوس فلاحات متوّجات بسنابل القمح ، ونساء مُفْعَمَات بالصحة يرمزن إلى التجارة أو الزراعة ، ووراء جُبَّة بطل مّا يختفى رجل يمسك عجلة ، لعله يمثّل الحرفَ، إلى جانبه عذراء رثّة تضم أنموذج المصرف إلى صدرها ، وعند قدميها لفّة ورق وآلات معمارية . فى وسط الورقة المصرفية الخضراء امرأة غير

جذَّابة ، تمسك وسط ميزان بيمناها ، اجتازتنى النظرة الآتية من عينيها الجامدتين . أفكار قبيحة تؤطر هذه الأوراق المصرفية الثمينة ، الزوايا مطبوعة عليها أرقام تمثل قيمتها . أوراق بلوط وسنابل قمح ، أوراق عنب ومطارق متقاطعة منقوشة على قطع النقود المعدنية . كل قطعة تحمل على ظهرها النسر، رمز الإنذار ، بجناحيه الممتدين ، يكاد يطير ويهجم منقضًّا .

كان الأطفال يراقبوننى وأنا أفرز الأوراق المصرفية بين يدى ، أصفّفها . وأجمع القطع المعدنية : الدخل الشهرى لزوجى الذى هو موظف بدالة فى إدارة أبرشية : ثلاثمائة وعشرون ماركاً وثلاثة وثمانون فنيكاً . عزلت ورقة مصرفية للإيجار ، واحدة للكهرباء والغاز ، وواحدة للتأمين الصحى ، حسبت النقود التى أنا مدينة بها للخباز ، وحسبت ماتبقّى : مائتان وأربعون ماركاً . فريد قدّم ورقة مصرفية قائلاً : إنه احتفظ بعشرة ماركات سوف يعيدها غدًا . سيشرب بها .

الأطفال يراقبوننى . وجوههم وديعة هادئة . لكنى أحمل مفاجأة لهم : سوف يسمح لهم اليوم باللعب فى الممر . فالسيدان فرانك غادر المكان بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع ، ولحضور اجتماع عصبة النساء الكاثوليكيات وعائلة « سيلبستانين » التى تعيش تحت سوف تغادر المكان لمدة أسبوعين بمناسبة العطلة ،أما بالنسبة لآل « هوبفز» الذين استأجروا الغرفة المجاورة لنا ، والتى لا يفصلها عن غرفتنا سوى لوح « البلاستر » فلا حاجة للاستئذان منهم . لهذا سيسمح للأولاد باللعب فى الممر ، وذلك امتياز لا يستهان به .

ـ « هل النقود من والدنا ؟ » .

أجبتهم : « نعم »

ـ « أهو لا يزال مريضاً ؟ » .

ـ « نعم ، يمكنكم اللعب فى الممر اليوم ، ولكن لا تكسروا شيئاً ، وانتبهوا لورق الجدران » .

وغمرنى ابتهاج ، إذ رأيت وجوههم تتألق ولارتياحى منهم وأنا أبدأ أعمال السبت .

لا تزال رائحة الأطعمة المختزنة عالقة بالممر ، وقد ملأت السيدة فرانك حتى الآن ثلاثمائة من جرارها ، رائحة الخل الساخن ، التى تكفى وحدها لإثارة صفراء فريد ، ورائحة الفاكهة والخضار المطبوخة ، الأبواب مقفلة ، وقبعة السيد فرانك القديمة هى كل ما تبقى على حمَّالة المعاطف ، يلبسها حينما ينزل إلى السرداب . الورق الجديد وصل إلى حدّ بابنا ، والصبغ الجديد إلى منتصف نافذة الباب ، راسماً المدخل إلى شقتنا : هى غرفة واحدة أقمنا فيها حاجزاً خشبيًّا وفرْنا به مهجعاً ينام فيه طفلنا ، ونخزن فيه بعض سلعنا . آل فرانك ـ من ناحية أخرى ـ لهم أربع غرف : مطبخ ، غرفة صالون ، غرفة نوم ، وغرفة مكتب تستقبل فيه السيدة فرانك روّادها . لا أعرف عدد أفراد الجمعية ، ولا عدد مجلس الإدارة ، فلم أَنْتَمِ لنواديها ، كل الذى أعرفه أن سلطات الكنيسة قد أقرّت بحاجتها لهذه الغرفة ، الغرفة التى ربما لا تسعدنا ، ولكنها تضم إمكانية استمرار حياتنا الزوجية فيها .

لا تزال السيدة « فرانك » امرأة جميلة وهى فى الستين ، الألق الغريب فى عينيها تسحر به أى إنسان ، ويملأنى أنا بالخوف هاتان العينان السوداوان الصلبتان ، شعرها المصفف بعناية والمصبوغ ببراعة ، صوتها

العميق الذى يترنم قليلاً ، الذى يصبح عالياً فقط عندما تحدثنى ، طراز ثيابها وحقيقة أنهاتستقبل أعضاء الجمعية المقدسة كل صباح ، وتقبّل خاتم المطران كل شهر ، وهو يستقبل نسوة الأبرشية البارزات ـ كل هذه الأشياء تجلعها شخصًا لا أمل لى من محاربته . نحن نعلم ذلك من تجربتنا ، فقد حاولنا أ ن نواجهها سنواتٍ ، وقد استسلمنا الآن .

الأطفال يلعبون فى الممر : اعتادوا الهدوء فهم الآن ، وإن سُمِحَ لهم ، لا يُحدثون صخباً. يندر أن أسمعهم : لقد ربطوا صناديق من الورق المقوّى فارغة ليصنعوا منها قطارًا طوله طول الممر ، وهو الآن يتحرك بحرص إلى الوراء وإلى الأمام . لقد شادوا محطات مملوءة علباً فارغة وعصيًّا ، وأنا متأكدة من أنهم سيظلون منشغلين بهذا القطار حتى وقت الغداء . الرضيع لا يزال نائماً .

أحصيت النقود مرة أخرى . هذه الأوراق المصرفية الثمينة الحقيرة ، ترعبنى رائحتها الثقيلة ذات العفن الخاص : فى مخيلتى ، أضفت لمجموعها عشرة ماركات اقترضها فريد . سوف يصرفها على الشرب ، فقد غادرنا قبل شهرين ، وهو يقضى لياليه مع أصدقاء فى هذا المأوى أو ذاك ، لم يعد يحتمل الأحوال الصعبة فى شقتنا ، وحضور السيدة فرانك وآل هوبفز المرعبين جوارنا . فى هذا الوقت قدمنا طلباً للَجْنَة الإسكان التى كانت تنشىء عمارة متطورة فى طرف المدينة ، رفضوا طلبنا ، لأن فريد يسكر ، ولأن الاستشهاد الذى زودنى به القس لم يكن مشجعاً . إنه مستاء من عدم مشاركتى فى الأبرشية . على كل حال ، رئيسة لجنة الإسكان هى السيدة فرانك ، التى نتيجة لهذا القرار ، رسخت سمعتها امرأةً صلبةً ضد أى مؤثر،

فهى إذا ما ضمنت لنا كسب الشقة الجديدة فستخلو غرفتنا ، التى تفضل أن تجعلها غرفة طعام لها ، وهكذا هى ردتنا إلى ما يضيرها .

أما أنا فقد استولى علىّ رعب يتعذر وصفه ، فأن أكون هدفاً لمثل تلك الكراهة ، ذلك أمرٌ يملأنى رعباً . وانكمشت من المشاركة فى جسد المسيح ، فكان نتيجة ذلك أن صارت السيدة فرانك تزداد تهديدًا لنا يوماً بعد يوم . ألق عينيها صار أقسى وأقسى ، وأنا صرت أخاف سماع القداس المقدس ، وإن كانت وداعة القداسات واحدة من أواخر مباهجى ، فحيث أصلى أتحسس السلام اللانهائى الذى يبعثه حضور الإله فى المكان ، لكن السيدة فرانك هناك تظهر أنواعاً من المشاعر تخيفنى أكثر مما تخيفنى كراهيتها ، ففى عيد الميلاد جاءت تدعونى للاشتراك فى احتفال صغير فى غرفة الضيوف ، ورأيتنا نسير فى الممر كما فى أعماق مرآة : أولاً كليمنز وكارلا ، ثم فريد ، وأنا أتبعهم حاملة الرضيع .

كنا نسير فى أعماق مرآة ، ورأيتُنا ظهَرْنَا هنالك فقراء .

فى غرفة الضيوف التى ظلت على حالها ثلاثين سنة . شعرت كأنى غريبة ، كأنى فى عالم آخر ، سَمَكَةٌ خارج الماء : فليس لنا ما نفعله بين أثاث كهذا ، بين عدة لوحاتٍ ، شعرنا بأن علينا ألاّ نجلس لموائد مغطاة بالدمقس ، وزينات شجرة الميلاد التى ادخرتها السيدة فرانك من زمن قبل الحرب ، أجفلت قلبى رعباً تلك الزينات الملتمعات ـ الزرق والذهبية ـ ذلك الشعر الملائكى ، والأوجه الزجاجية للملائكة الدُّمَى ، ويسوع الطفل مصنوع من الصابون وموضوع فى مهد من خشب الورد ، مريم ويوسف مصنوعان من طين ، مصبوغ وملون ، يشعان بعذوبة تحت لفافة جبس فرنسية تعلن : « السلام للبشرية » ـ هذا الأثاث الذى يضيع من أجله كل

أسبوع ولمدة ثماني ساعات عرق امرأة عضو في اتحاد الأمهات ، يَدْفَع لها خمسين فينيكاً للساعة . . كل هذه النظافة العقيم تفزعني . السيد فرانك يجلس في زاوية يدخّن غليونه . هيكله العظمي صار يمتلىء ، وأنا أسمع خطوه الوطىء وهو يصعد السلم ، مشيته الثقيلة ونفسه المُجْهَدة ، يجتاز غرفتي ويدخل أعماق الممر .

الأطفال خائفون من ذلك الأثاث الذى لم يعتادوا رؤيته ، فهم خجلون جدًّا منه ، وصامتون صمتاً أبكاني . صحون من حلوى أُعِدَّت لكل منهم، وكانت هناك هدايا : جوارب ووصفٌ خنازير من طين ، هي منذ ثلاثين سنة من معالم عيد الميلاد عند عائلة فرانك .

كان فريد مُقَطِّبَ الجبين ، يبدو أنه آسِفٌ على قبول الدعوة كان واقفاً متكئاً على قضبان النافذة . . سحب سيجارةً من جيبه بلطف ثم أولعها .

السيدة فرانك ملأت « ملأت الأقداح بالنبيذ ودفعت للأطفال «كاسات» من الخزف ملأى بعصير الليمون . الكاسات الخزفية مرسومة عليها مشاهد حكاية خرافية عن الذئب والمَعِيز السبع الصغيرات .

شربنا . أفرغ فريد كأسه برشفة واحدة ، رفعه متأمّلاً بيدٍ واحدة وقد اتضح عليه ازدراؤه لمذاق النبيذ . في لحظات كتلك ، أقدره ، لأن وجهه يعبر عن مشاعره، فلا يحتاج إلى كلمات . شريحتان من لحم الخنزير وقدح من النبيذ وخمس دقائق من كلام العواطف ، ذلك لا يخفي حقيقة أن شقتنا صغيرة جدًّا . هذه الزيارة الفاضحة انتهت بوداعٍ فاتر . أكاد أقرأ في عيني السيدة فرانك كل ما ستقوله لأصدقائها عنها : فوق ما ابتلوا به من شقاء ولعنات عيش لا تحصى فقد أضافوا لأنفسهم الجمود والفظاظة . وتروح تضيف لنفسها طبقتين أخريين فوق إكليل استشهادها متعدد الطبقات .

أما السيد فرانك ، فنادرًا ما يقول شيئاً ، لكنه حين يعلم أن زوجته خارج البيت ، يحوم حول بابنا ويضع علبة « شكولاته » على المنضدة ، وأحياناً أسمعه يكلم الأطفال فى الممر . هو يُوقفهم ويهمهم ببضع كلمات . ويخبرنى الأطفال بأنه يربّتُ رُءُوسَهُم ويقول لهم « كلمات حلوة » .

السيدة فرانك ليست كذلك ، فهى كثيرة الحركة ، ومِهْذَارة ، وخلو من الرقة . انحدرت من عائلة تاجرة قديمة فى المدينة ، وظلت تغيّر مواد تجارتها من جيل إلى جيل ، وتتقدم إلى السلع الأغلى : فمن الزيت ، إلى الملح ، إلى الدقيق ، إلى السمك، والقماش ، ومنهما تقدموا نحو النبيذ ، ثم مضوا إلى السياسة ، وقد غطسوا من هناك إلى الحكومة الفعلية ، وأنا أظن أحياناً أنهم الآن يتاجرون بأغلى السلع قيمةً: الدين .

فى المناسبات النوادر ، تبدى السيدة فرانك بعض اللطف : أولها ، حين تتحدث عن النقود ، فهى تلفظ الكلمة برقة تفزعنى ، تقولها بالطريقة التى يلفظ بها الناس كلمات : حياة ، حب ، إله، بتهذيب وبنبرةٍ خشيةٍ فى أصواتهم . الألق فى عينيها يُعتم قليلاً وقسمات وجهها تصير أفتى حين تتحدث عن الذهب وعن جرار مقتنياتها ، وكلاهما كنز ، فلا تسمح بانتهاكهما . يستولى علىّ الخوف أحياناً حينما أكون فى السرداب لآتى منه بفحم أو بطاطا، فيحدث أحيانًا أن أسمعها تفرغ الجرار بغية حساب مدّخراتها فيها : تهمهم فى الأرقام بنغمة خفيضة مثل نغمة طقسٍ دينى . ويذكّرنى صوتها بصوت راهبة تصلى ـ وغالباً ما أترك مكْيَلَتى هاربة إلى أعلى لأحتضن أطفالى ، أحس أن علىّ حمايتهم من شىء ما . ويحدّق الأطفال فىّ « عينا ولدى الذى بدأ يترعرع ، وعينا ابنتى اللطيفتان السوداوان . إنهما يحدقان فىّ ، يفهمان ولايفهمان ـ ويترددان وهما يشاركاننى الأدعية التى أشرع

بتدريدها . رتابة الابتهال التى لاتُمَلّ ، وعبارات الصلاة الربانية تتهاوى واهنةً من شفاهنا ...

لكنها الساعة الثالثة الآن ، وقد ارتحلت عنا مخاوف الأحد ، فقد تفجر الضجيج من الساحة الخلفية ، ويمكننى سماع أصوات تعلن عن عصر سبت بهيج ، وبدأ قلبى بالتجمد داخل جسدى ، مرة أخرى حسبتُ النقود، نظرت إلى الصور الميتة على الأوراق النقدية ، وأخيرًا قررت الشروع بصرفها .

الأطفال يضحكون خارجاً فى الممر ، استيقظ الرضيع ،وعلىَّ أن أمضى إلى أشغالى ، وحين رفعتُ بصرى من المنضدة التى كنت محنية عليها ، حيث كانت تطوّف أفكارى ، وقع نظرى على جدران غرفتنا التى علقت عليها صور مطبوعة رخيصة : وجوه رينوار الحلوة ـ بدت إلى غريبة لا أستطيع أن أفهم كيف كنت أحبها قبل نصف ساعة . أنزلت الصور ، مزقتها أنصافاً بيدين متوترتين ، ورميت المزق فى السلة التى سارعت بإنزالها . مر بصرى على جدراننا ، لم تلمس عيناى رحمة إلاّ فى الصليب فوق الباب ، وفى رسم لرسام لا أعرفه ، حركة خطوطه وألوانه المتناثرة لم تعن لى شيئاً لكن ما أكتشفته فجأة هو أن أستطيع أن التمس شيئاً فى تلك الرسوم دون أن أفهمها .

حين غادرت المحطة ، ابتدأ الفجر ينبلج ، والشوارع لا تزال خالية . هرعوا حذرين يجتازون مجموعة من البنايات التى أصلحت واجهاتها بلطخات غير منتظمة من الجص . كانت باردة ، وعدد من سائقى التاكسى واقفون يرتجفون فى ساحة المحطة ، أيديهم مدفونة عميقاً فى جيوب معاطفهم . وللحظة استدار إلىّ أولئك السائقون الأربعة أو الخمسة

بوجوههم الشاحبة تحت قبعاتهم مستدقة الرءوس ، تحركوا مثل رجل واحد، ممثل دُمّى على خيط ، فى لحظة واحدة ، ثم تراجعت الوجوه إلى موضعها الأولى ، استداروا إلى باب المغادرة فى المحطة .

ليس من أحد ، فى الشوارع فى تلك الساعة ، وحين استدرتُ بثقلٍ حوالىَّ ، رأيتُ عقربَ ساعة المحطة الكبيرة يزحف إلى التاسعة : إنها السادسة إلا ربعاً . انعطفتُ فى الشارع متجهاً إلى اليمين متجاوزاً إحدى البنايات ، أنظر بتمعن فى واجهات المخازن : فى مكانٍ مَّا ، مَقْهًى أو نُزُل لزامٌ عليه أن يظل مفتوحاً ، أو أنه أحد تلك الأكشاك التى ـ برغم كراهتى لها ـ أفضلها على غرف الانتظار فقهوتها فى مثل هذه الساعة فاترة ، وحساء لحمها البقرى المسخّن كثيرًا ما تفوح له رائحة المبانى المكتظة . . رفعتُ «ياقة» سترتى ، طويتُ زواياها على بعضها ، أزحت بالفرشاة الأوساخ العالقة فى بنطلونى ومعطفى .

شربت فى الليلة الماضية أكثر مما اعتدت ، وقرابة الواحدة صباحاً ذهبت إلى المحطة لأرى «ماكس » . الذى « يمنحنى » أحياناً مكاناً أنام فيه . ماكس يعمل فى وزن الحقائب ، هنالك مدفأة ماء ساخن كبيرة مثّبتة وسط إطار خشبى ، وفى الغرفة أيضاً مصطبة ثابتة . لهذا يقصده العمال من المستوى الأدنى للاستراحة عنده : الحمالون ، العاملون فى غرف الرزم ، وعاملو المصعد . الإطار الخشبى يترك لى ملجأً لكى أزحف وراءه وأنزل إلى الأرضية حيث يتوفر مكان أوسع ، مكان مظلم ودافىء أشعر بأمان حين أنام فيه ، فقلبى هنالك مطمئن ، والخمر تجرى ساخنة فى عروقى ، وضجيج القطارات يدخل ويغادر المحطة ، بطاقات الحقائب تلطم رأسى مع حفيف أصوات المصاعد ، أصواتها فى الظلام تجعله أكثر ظلمة ـ تخدرنى بسرعة

فأنام ، أيضاً ، أنا أبكى هناك أحياناً حينما أفكر فى كيت والأطفال . أبكى وأعلم أن دموع السكران لا حساب لها ولا وزن - وأن هنالك شيئاً أدعوه وخزات ضمير ، لكنها وخزات فحسب . اعتدت الشرب حتى قبل الحرب ، لكن الناس - على ما يبدو - قد نسوا ذلك ، فسلوكى المنحط هذا يُنظر له باعتبار خاص ، فيمكنهم أن يقولون عنى بأنى قاتل فى الحرب .

نظفت نفسى قدر استطاعتى ، وأنا أنظر فى المرآة المعلقة قرب نافذة المقهى الصغيرة ، وقد عكست المرآة هَيْئَتِي الرثة وأنا فى ذلك الفراغ مرةً ، وأخرى مثل ظل خيالى أجوف ، وحولى الكيك ذو الكريم والشكولاتة التى تلتمع على طول الخط إلى جانبى . هكذا رأيت نفسى هناك ، شكلاً ضئيلاً ضائعاً يتدحرج بين المعجّنات ، يحاول مضطرباً أن يصّفف شعره ويعدل «بنطلونه» .

مررت ببائع سجائر ، ومحلات بيع زهور ، ومخازن ملابس « المانيكانات » فيها يحدقن فى وجهى بتفاؤل زائف . تفرّع الشارع إلى اليمين ، فصار طريقى كله أكواخاً خشبية . كانت فى المنعطف لافتة ضخمة تقول :

مرحباً بالدوائيين ! .

أكواخ شيِّدت من كِسَر ، تبرز من بين واجهات مدمّرة ، محروقة - لكن تلك الأكواخ كانت مخازن سجائر ، ومخازن ألبسة ، ومحلات بيع صحف . وحين وصلت أخيرًا إلى محل الأكلات الخفيفة ، كان ذلك المحل مغلقاً .

حركت قبضة الباب ، استدرت فرأيت فى الأخير ضوءًا ، عبرت الشارع تإليه ، فبدا أن ذلك الضوء يأتى من كنيسة ، وكانت نافذتها الغوطية العالية سيئة الترميم .

حين توغلت إلى وسط مبنى من حجر ، لاحت لى نافذة صغيرة صفراء ، واضح أنها الغرفة حمام، زجاجاتها الصغيرة الأربع أُضيئت بضوءٍ أصفر شاحب توقفت هناك وتفكرت لحظة ربما لا تكون ، ربما كان هنالك دفء . خطوتُ إليها خطوات مترددة ، بدا الباب سالماً . . باب مغلف بالجلد ، دافئ داخل الكنيسة ، حركت قُبعتى قليلاً زحفت ببطء إلى الأمام بين المقاعد الطويلة ، فرأيت شموعاً تشتعلّ فى جناح الكنيسة المرمّم . مضيتُ فى سيرى ، اكتشفتُ أن البرد هناك أشد مما هو فى الخارج . كان هواءً باردًا ، وتيارات هواء تأتى من كل الجوانب ، لم ترمم جدران بعض الأمكنة بالحجارة، بل بألواح « فايبر» راحت تنفصل عنها طبقات ، وتقف آغلفة عليها. فى بعض ألواح « الفايبر» ثقوب تنضح ماءً . توقفتُ مترددًا إلى جانب عمود .

كان قس شاب ، بثيابه البيضاء واقفٌ بين نافذتين عند مذبح حجرى ، بين شمعتين ، كان يصلى ويداه مرفوعتان . ومع أنى رأيت ظهر القس فحسب ، فقد كنت متأكدًا أنه يشعر بالبرد . بدا لبرهة كما لو أن القس وحيد مع كتاب الترتيل المفتوح . إن يديه الشاحبتين مرفوعتان وظهره مرتجف ، لكننى ميّزتُ خلف الشموع المرتعشة فى الأعلى ، رأس فتاة محنياً بعيدًا إلى الأمام ، حتى أن شعرها المسترسل انقسم على ظهرها جديلتين . إلى جانبها انحنى صبى يتلفّت من جهة إلى أخرى ، وبالرغم من عتامة الضوء تمكنت من أن أميز فى هيئة وجهه أجفاناً منتفخة وفمَ أبله فاغرًا ، أن أرى الأجفان المحمرّة والوجنات المنفوخة والفم البارز الغريب . فى لحظات رؤيتى تلك ، كان على وجه الطفل تعبير احتقار فيه دهشة وتحدّ .

التفت القس ، وجه فلاح شاحب مضنى ، قبل أن يُخفض يديه

المرفوعتين ، انزلقت عيناه إلى العمود ، حيث أجلس ، فبسطهما ثانية ، وهمهم بكلمات . بعدها استدار ، انحنى على المذبح الحجرى ، وفجأة التوى حوله لحد ما ، وبورع يكاد يكون مضحكاً منح بركاته للفتاة والولد الأبله .

غريب أنى لم أشعر بأننى داخل الكنيسة ، وإنْ كنتُ فعلاً فيها . استدار القس إلى المذبح ، ارتدى قلنسوته ، حمل كأس القربان وأطفأ الشمعة التى على يمينه . مشى بتؤدة إلى المذبح الرئيسى ، ثَنَى ركبتيه قليلاً واختفى فى اكتئاب الكنيسة . لم أعد أراه ، وتعذر علىَّ سماع صرير مفاصل الباب .

بعد دقيقة ، رأيت الفتاة فى الضوء : وجه لطيف وورعٌ بسيط . ركعت ، ثم عجلّت خُطاها لتطفىء الشمعة الأخرى . وقفت فى ذلك الضوء الأصفر فاستطعت أن أراها ، كانت جميلة حقاًّ ، رقيقة وطويلة وذات ملامح ناعمة، لاحمق فى شدّ شفتيها حينما تنفخ على الشمعة ، ثم هبط الظلام عليها وعلى الولد . ولم أرها بعد ذلك إلا بعد أن لاحت ثانية فى الضوء الرمادى ، فى النافذة المدمرّة فوق . مرةً أخرى أثّرت فىّ الطريقة التى مسكت بها رأسها ، أمالت عنقها وهى تمرّ بى ، منحتنى نظرةً هادئة ومتطلعة وهى تغادر الكنيسة جميلة كانت ، وتبعتها عند الباب ركعت ثانية وفتحت الباب وسحبت الأبله وراءها .

تبعتها . سارت فى الاتجاه المعاكس ، باتجاه المحطة ، وخلال شارع مهجور ، لا أكواخ تحدّه ولا ركام . لاحظتها تنظر إلى وراء عدة مرات ، كانت رقيقة ، نحيفة إلى حدٍّ ما ، بدت لا تزيد على الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . وما اضطربت مشيتها وهى تجرّ الولد على الطريق .

لا تزال هناك بنايات ، وصادف أن رأيت كوخاً ، هنالك خطوط ترام تتجمع فى ذلك المكان ، ورأيتُ قسماً من مدينة لم أزره من قبل . لابد من أنه محطة ترام . أسمع صرير العجلات وراء حائط أحمر سيء الترميم . أرى فى ذلك الشفق إضاءاتٍ تعشى البصر ، تبعثها ماكينات اللحام ، وأسمع هسيس أسطوانات الأوكسجين .

حدّقت طويلاً فى ذلك الجدار حتى فاتنى أن الفتاة قد توقفت ، فأنا الآن جوارها تماماً ، ثم رأيتها تقف أمام أحد الأكواخ ، تبحث فى حزمة مفاتيح . كانَ أبله ينظر إلى المدى الرمادى للسماء . مرة أخرى نظرت الفتاة إلى الوراء ، إلىّ ، وترددت لحظة وأنا أجتازها حتى رأيت أن الكوخ الذى بدأت تفتح بابه ، هو مطعم أكلات خفيفة .

فُتِحَ الباب ، وفى الداخل فى الظلام الرمادى أرى مقاعد ومناضد ، ولمعاناً كامدًا لماكِنة قهوة ، وتأتى من خلال الباب رائحة فطائر البطاطا المحلاة . استطعت أن أرى فى العتمة ، وخلف زجاج ملوَث كرات من اللحم مكومة فوق طبقين بعضَ لحمِ الضُّلوعِ البارد ، ودورقاً كبيرا أخضر ممتلئاً خيارًا غاطساً فى الخل .

حين توقفت الفتاة ، نظرت إلىَّ ، تحركت مغاليق الباب الحديدية وحدقت أنا أيضاً فى عينيها .

قلت : « معذرة ، هل تفتحين المحل ؟» .

أجابتنى : « نعم »

ومشت عنى حاملة آخِرَ الأقفال إلى الداخل ، وسمعتها تنزله . ومع أنها رفعت الأقفال ، فقد عادت ثانية ونظرت إلىَّ ، فسألتها :

« أيحق لى الدخول الآن ؟ »

قالت : « طبعاً ، لكنها لا تزال باردة فى الداخل »

« آه ، لا يهمنى ذلك » أجبتها ودخلت .

كانت الرائحة فى الداخل لاتُطاق ، أخرجت سجائرى وأشعلت واحدة، فتحت الكهرباء ، فأدهشنى كم كان كل شىء نظيفاً فى الضوء .

قالت : « جو مضحك فى سبتمبر . فعند الظهر ستكون الأجواء حارة مرة أخرى ، لكنها لآن باردة جدًّا .

أجبتها : « أجل مضحك ، إن أجواء الصباح باردة » .

قالت : « خلال ثانية واحدة سأوقد النار »

كان صوتها واضحاً ، رفيعاً بعض الشىء ، ولاحظت أنها متحّيرة .

هززت رأسى قليلاً ، تطلعت إلى الحائط عن المنضدة ، وتطلعت داخل الغرفة : تتكون الجدران من ألواح خشب عارية ، مغطاة بإعلانات سجائر ملونة ، وهناك رجال مهذبون بسوالف رمادية يقدمون علبة سجائر لسيدات يرتدين فساتين واسعة الفتحات، يبتسمن بإغراء ويحملن فى اليد الأخرى زجاجة « شمبانيا » ـ رعاة بقر على ظهور جياد ، ملامح شر على وجوههم ، يد تمسك اللجام ، وأخرى تمسك السجائر ، يسوقون سحابة دخان زرقاء حجمها غير عادى ، فهى تمتد مثل لافتة حريرية إلى أفق المرج .

الولد الأبله جاثم قرب الموقد ، ينشج قليلاً من البرد . فى فمه مصَّاصة ، وفى يده عود خشبى ، يمتص بجنون قطعة السكّر الحمراء المزوّقة التى عليه، و خطان من السائل رفيعان يجريا على جانبى فمه .

قالت الفتاة برقةٍ وهى تنحنى بعطف عليه وتمسح زوايا فمه بمنديلها : «برنارد» .

ثم رفعت الغطاء عن الموقد وأمسكت بجريدة رمتها ، و وضعت بعض الفحم فى أعلى الموقد ثم حملت عود ثقاب مشتعل إلى الموقد الصدىء .

قالت لى : « اجلس ، هل تود؟ »

قلت : « شكراً » ولم أجلس .

كنت أشعر بالبرد وأردت أن أظل واقفاً قريباً من الموقد ، وإنِ اتجَهَ نظرى إلى الولد الأبله ومصدر الروائح الطعام الرخيص ، كما أن فكرة قهوة وخبز وزبد ملأتنى بدفء مبهج . ورحت أنظر إلى أسفل عنق الفتاة الجليدى ، إلى الجوارب الخشنة على ساقيها ، وانتبهت لحركات رأسها اللطيفة حينما انحنت تتابع سير النار .

فى البداية كان هنالك شىء من الدخان ، ثم بدأت أسمع قرقعة ، وابتدأ اللهيب بهدوء وخَفتَ آخر الدخان .

كات طيلة هذه المدة تحَرّك النار فى فوهة الموقد . أسمع حركات أصابعها، وأحياناً تحنى أكثر لتنفخ فيه ، وكلما فعلت مثل ذلك رأيت ظاهر عنقها .

فجأة نهضت على قدميها ، ابتسمت لى ونظرت إلى ما وراء المنضدة استدارت إلى الحنفية ، غسلت يديها ، وأوصلت الكهرباء لمكنة القهوة . تقدمت إلى الموقد أكثر ، رفعت الغطاء ، فرأيت اللهب يوقد قطع الفحم . بدأ الدفء فعلا ومكنة القهوة ابتدأت عملها ، وأحسست بشهيتى تزداد . وقت الشرب أحس بشهية كبيرة للقهوة والإفطار ـ لكننى نظرت بقرف

إلى السجق البارد وجلده المتغضن في إناء السلطة . رفعت الفتاة صندوقاً معدنيًّا لِلْقَنَانِى الفارغة وخرجت ، ملأني وجودى وحيدًا مع الولد الأبله باستياء غريب . الطفل أهملنى تماماً ، أثارت أعصابى طريقته وهو جاثم هناك يمتص بارتياح وشرهٍ عود السكر المقزّز .

رميتُ سيجارتى ، كنت متهيأ ، حين فتحت الباب ، وبدلاً من الفتاة ظهر القس الذى أنهى خطبته توًّا : وجهه الفلاحى المدور الشاحب ، تظلله الآن قبعة سوداء نظيفة .

قال : « صباح الخير »

وألقت الخيبة ظِلاًّ ثقيلاً على وجهه حينما رأى المكان وراء المنضدة خالياً . تذكرت الآن أن الكنيسة التى كنت فيها هى كنيسة الأبرشية ، « كنيسة أحزان مريم السبعة » ، وأنى ملمّ إلماماً جيدًا بأعمال القس ، كانت درجاته متوسطة ، أدعيته شعبية تفتقد الدرامية ، وصوته جشب يابس . لم يتميز خلال الحرب ، لم يكن بطلاً ، ولا مقاتلاً فى المقاومة ، ولم تزين صدره ميدالية ، ولم يُتَوَّج بتاج الشهادة السَّنِىِّ ، بل هو نال عقوبة تأديبية بحرقه قرار منع التجول ، فَلَطّخ سجله بها . لكن هذا كله لم يصل فى سوئه إلى ما وصلت إليه قضيته الغريبة مع امرأةٍ ، والتى وان اعتبرت قضية أفلاطونية ، فقد نالت درجة من النفح الروحى هبطت بمراتبه الكهنوتية . إن قس أحزان مريم السبعة واحد من أولئك الذين وسمتهم الكنيسة بأنهم قسس مادون الدرجة (ج) والمنحدرين إلى الدرجة (د) .

كان إخفاق القس المذلّ واضحاً جدًّا لدرجة أنه أربكنى . أشعلتُ سيجارة أخرى ، وقلت ثانية : «صباح الخير » .

وحاولت النظر إلى ذلك الوجه عديم الملامح . كلما رأيت القسس ، بقناعتهم البريئة ، أو بفقدانهم البرىء للقناعة ، فى ذلك الوقت ينتابنى مزيج من الغضب والرثاء ، مثل ذلك الذى أشعر به نحو أطفالى .

كان القس يحرك قطعا من فئة ماركين على واجهة المنضدة الزجاجية حينما فتحت الفتاة الباب ، ودخلت ... تدفق دم خفيف من عنقه صاعدًا إلى وجهه .

قال لحظتها :

« آه ، أردت بعض السجائر » .

راقبته عن كثب وهو يقترب بأصابعه القصار البيض يجتاز ـ باتجاه السجائر ، التقط علبة حمراء ، رمى بقطعة النقود على المنضدة وقال : « مع السلامة و-وهو يغادر الكشك متعجلاً .

تابعته الفتاة بنظراتها ، وقد أنزلت السلة التى كانت تحملها ، وشعرت بأن لعابى يسيل وأنا أمام تلك اللفّات الذهبية الطازجة .

ابتلعت ذلك اللعاب الدافىء ، أطفأت سيجارتى ورحت أبحث عن مكان أجلس فيه . المدفأة الحديدية تبعث دفئاً لذيذًا ، لا يزال هناك ما يثير دخانَ الفحم ، وكنت أشعر بغثيان خفيف يتحرك حامضاً فى معدتى .

فى الخارج كانت عربات الترام تقرقع حول المنحنيات وهى تغادر المحطة، العربات البيض المتسخة وصلت معاً ـ اثنتين اثنتين ، وثلاثات ـ وابتعدت مرتجّة صاخبة ، ينطلق صريرها من نقاط احتدام مثل عُقَدِ خيوط تنحلّ وتختفى فى قنوات أبعد .

الماء يغلى فى مكنة القهوة ، الولد الأبله ماضٍ فى امتصاص عود حلواه الذى لم يبق عليه غير طبقة وردية من السكر .

سألتى الفتاة من وراء المنضدة :

ـ « قهوة ؟ أترغب فى شىء من القهوة ؟ » .

أجبتها فى الحال :

ـ « نعم ، من فضلك » .

وكأن نغمة صوتى أثّرت فيها ، أدارت وجهها الهادىء الجميل إلىّ وأحنت رأسها مبتسمة وهى تدفع الكوب والصحن تحت رغوة المكنة . بهدوء فتحت علبة القهوة . وحين أخذت ملعقة منها هبت علىَّ نفحة من الفستق « الأرضى » ، وترددتْ لحظةً قبل أن تسالنى :

« كم ؟ كم من القهوة تود ؟ » .

وبسرعة أخرجت نقودى من جيبى ، سوّيتُ القطع الورقية منها ، وبسرعة كومتُ القطع المعدنية ، حسبتها جميعاً وقلت :

ـ « ثلاثة ، أريد ثلاثة أكواب » . أجابتنى :

ـ « ثلاثة » ؟ .

وابتسمت مرة أخرى وأشارت برأسها :

ـ إذن سأعطيك دورقاً ، إنه أرخص » .

راقبتها وهى تضع أربع ملاعق من البن فى « المجرّ» المعدنى الصغير ، دفعته ، أبعدت الكوب ، ووضعت الدورق مكانه . وبهدوء عدّلت القفل ففتحت المكنة ، وبدأ الغليان . هسَّ البحار عابرًا وجهها ، ورأيت السائل

البنىّ الغامق ينساب إلى الدورق ، وصار قلبى يخفق بسرعة أكثر قليلاً مما كان .

أحياناً أفكر فى الموت ، وفى لحظة العبور من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى، وأحاول أن أتخيل ما سيظل معى فى الحياة الثانية : وجه زوجتى الضامر ، أُذن القس البيضاء ، فى الاعتراف ، بضع جلسات هادئة فى الكنائس المعتمة مملوءة بتراتيل الطقوس ، وجلد أطفالى القرمزى الساخن وفى هذه اللحظة وأنا أراقب الفتاة تعدل قفل مكنة القهوة انتبهت إلى أنها أيضاً ستكون معى هناك . فتحت أزرار سترتى ، رميت قبعتى على كرسى فارغ وسألت :

ـ « أيمكننى تناول بعض اللفائف ، أهى طازجة ؟ »

أجابت : « طبعاً ، كم واحدة تريد ؟ » .

قلت : « أربع ، وعليها شىء من الزبد » .

ـ « أوه ، أونس ، أو ما يقارب ؟ » .

تناولت اللفائف من السلة ، وضعتها فى الصحن ، وبدأت تقطع بسكين قطعة من الزبد :

ـ ليس لدى ميزان ، أيمكن أن تكون أكثر قليلاً ؟ »

قلت : « بالتأكيد » .

وكان واضحاً أنها وضعت إلى جانب اللفائف أكثر من « أونسين » ، لأن القطعة كانت هى الكبرى بين الأرباع الأربعة ، التى قُسمّت العلبة إليها .

وبعناية ، أزاحت الورق عن الزبد وجاءت تحمل الصينية إلىّ .

رفعتِ الصينية عالياً ، قريباً من وجهى ، لأنه أرادتْ أنْ تمد الشرشفَ بيدها الأخرى المتحررة ، فرحت أساعدها على نَفْضِه ، وللحظة رحت أشم شذى يديها ، شذى يديها كان زكيًّا .

قالت : « هذا ما أردت » .

قلت : « شكراً » .

صببتُ لنفسى كوباً من القهوة ، أضفت لها سكّرًا ، حركتها وشربت . كانت القهوة ساخنة وطيبة جدًّا . زوجتى وحدها تصنع قهوة مثل هذه ، لكى نادرًا ما أنال قهوة فى البيت ، ولا أدرى كم مضى علىَّ من زمن منذ تناولت مثل هذه القهوة الجيدة . ارتشفت عدة رشفات شعرت بعدها فى الحال بعودة روحى .

صحت : « مدهشة ، قهوتك مدهشة ! » .

ابتسمت ، وأشارت لى برأسها ، وأدركت فجأة كم أحببت النظر إليها . حضورها ملأنى بالرضا والوجود المريح .

« لأول مرة يقول لى شخص إن قهوتى بمثل هذه الجودة » .

قلت : « نعم ، إنها كذلك » .

بعد ذلك سمعت قرقعة القنانىِ الفارغة فى الإناء المعدنى ، فى الخارج . بائع الحليب جاء بقنانٍ ملأى ، وبهدوء عدتّها بأناملها البيض : حليب ، شوكولاته ، لبن ، قشطة ، بدأت الحرارة تزداد فى الكشك ، ولا يزال الولد الأبله يجلس هناك يمسك بعود السكرّ العارى فى فمه ، يتلفظ أصواتاً تتفق ومناسباتها . يطلقها خطَأً من كلمات تبدأ بـ «ز» فتبدو كأنها تبعث نغماً من

« زوزو ـ زازا ـ زَوْزُو» إيقاع وحشى وسرى يثقل هذه البربرة . وإذا ما التفتت الفتاة إلى الأبله انتشرت على وجهه جهامة . دخل بعض مُصلحى الترامات . أزاحوا النظارات الواقية عن عيونهم ، جلسوا ، شربوا حليباً خلال قصبات فى القنانى ، تبينّت سمات المدنية مرسومة على صداريهم . فى الخارج ، كانت الأشياء نابضة بالحياة ، خطوط الترام اختفت الآن ، وعربات بيض مسودّة ترسل صريرها وهى تمر على فراغات منتظمة فى الخطوط الطويلة .

فكرت فى « كيت » زوجتى وبأنى سأكون معها ذلك المساء ، لكن علىّ أولاً أن أهيّىء بعض النقود وأن أجد غرفة . ليس سهلاً أن أحصل على نقود ، وتمنيت أن أجد من يقدمها لى . لكن فى مدينة مثل مدينتنا ، مدينة الثلاثمائة ألف نسمة ، ليس سهلاً أن تجد فيها إنساناً يعطيك نقودًا فقط ، لأنك تطلب ذلك منه . أعرف أناساً قليلين من السّهل سؤالهم ، وقررت أن أقصدهم ، ويمكننى فى الوقت نفسه أن أتطلع إلى الفنادق وأحاول إيجاد غرفة .

أنهيت قهوتى ، وقد قاربت السابعة . رائحة التبغ ملأت خياشيمى . معوّق عجوز ، خرِبٌ ، هالك ، غير حليق ، جاءنى مبتسماً . جلس أمام المدفأة ، راح يشرب قهوةً ويُطعم الأبله شطائر جُبن كانت ملفوفة بجريدة .

جلست الفتاة هادئة قرب الواجهة وبيدها حمّالة صحون ، كانت تتسلم النقود وتعيد الباقى ، تبتسم وتهز رأسها ، وهى تضغط على مكنة النقود ، تجفف القنانى بقطعة قماش بعد أن تخرجها من الماء الساخن .

كل شىء تفعله يبدو يسيرًا ، وبدون جهد ، وإن ألحّ عليها بعض «الزبائن » أحياناً ، لقد تزاحموا حول المنضدة . صبّت حليباً ساخناً ، شرابَ

كاكاو باردًا وشراب كاكاو ساخناً ، تركبت البخار يتصاعد من مكنة القهوة ، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قطَعَ مخلّلٍ من مكنة القهوة ، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قِطَعَ مخلّلٍ من «برطمان » زجاجى قاتم ـ وفجأة فرغ الكوخ « الكشك » . وظل شاب واحد بدين ممتلىء الوجه أمام المنضدة ، يحمل قطعة مخلّل فى إحدى يديه ، وقطعة ضلع باردة فى الأخرى ، . وبسرعة أفرغ كلتا يديه . أولع سيجارة ، وببطء أخرج بعض النقود من جيب بدلته الجديدة التى لم تتغضّن إلاّ قليلاً . عرفُت واثقاً أن وراءه يوماً من الراحة ، وأدركت أن الأحد بدأ توًّا فى المدينة ، وهنا تذكرت كم كان صعباً اقتراضُ نقودٍ يوم الأحد .

بعدها خرج شطائر الشاب ، تاركاً العجوز الملتحى مرتجفاً يضع فى فم الأبله قطعاً من شطائر الجبن ، وبينما كان بصوتٍ خفيف يقلد أصوات الطفل « زوزو ـ زازا ـ زَوْزَوْ » وإن كانت بربرة العجوز لا يملأها ذلك الإيقاع الوحشى المؤثر . استقرت عيناى على الأبله وهو يمضغ قِطَعَ خُبزه . وانحنت الفتاة على جدار الكوخ تراقبهما . كانت تشرب حليباً ساخناً ببطء من قدح فخارى كبير ، وتقضم ملء فمها شريحة خبز جافة . كل شىء هادىء الآن وآمنٌ . وأحسست أنا بانفعال يتصاعد فـىَّ .

ناديتُ بشىء من الحزم :

ـ رجاءً . . قائمة الحساب » ونهضت .

شعرت بشىء شبيه بالحيرة حينما رمقنى العجوز المعوّق بنظرة باردة فاحصة . الأبله هو الآخر التفت إلىّ ، لكن نظرته الواسعة الزرقاء انحرفت وتجاوزتنى . فى ذلك الصمت قالت الفتاة :

ـ « يكفى هذا ياأبى ، أظن برنارد أخذ كفايته » .

وأخذتِ الورقة النقدية من يدى وأسقطتها فى صندوق سجائر تحت المنضدة : وببطء عدّت الباقى على زجاجة المنضدة . وحين دفعت بقطعة النقد على الزجاجة إليها ، أخذتها وهمهمت :

ـ « شكرًا » .

ورفعتِ القدحَ الفخارىَّ الكبير إلى شفتيها لتشرب منه بعض الحليب . كانت جميلة حتى فى رحابة النهار ، وترددت لحظة قبل أن أغادرها .

لقد بقيت هناك بضع ساعات جالساً فقط وأنتظر . أدرت ظهرى إلى ثلاثتهم ، وتوقفت ثم سحبت نفسى وأنا أتمتم :

ـ « مع السلامة » .

وخرجتُ عَجِلاً .

خارج الباب شابان ، كل منهما يرتدى قميصاً أبيض ، كانا يفتحان لافتة ويثبتانها على عمودين خشبيين . الأزهار متناثرة فى الشارع . انتظرت دقيقة حتى نُشرِت اللافتة تماماً ، واستطعت أن أقرأ الكتابة : حروف حُمر على قاعدة بيضاء :

مرحى لراعى كنيستنا !

أشعلت سيجارة ، واستدرت متثاقلاً نحو المدينة لأقترض نقودًا وأجد غرفة لقضاء الليل .

2



حين ذهبتُ إلى الحنفية لأملأ الدلو ، لم أطق رؤية وجهى فى المرآة . أنا امرأة يابسة ، جاءت لتعرف مرارة الحياة . لا يزال شعرى كثيفاً ، وآثار الشيب فى سالفى ، هذا الشيب الذى يعطى شعرى الجميل مظهرًا فضيًّا ، هو عامة الحزن من أجل طِفْلَىَّ اللذين أوصانى مَنِ اعترف أبى أمامه ، بأن علىَّ أن أصلى من أجلهما . هما فى عُمْر فرانز الآن ، وبدَءا يجلسان فى الفراش ليحاولا الكلام معى . لم يلعبا يوماً فى مروج مزهرة ، لكننى أراهما أحياناً فى مرعى مزهر ، فيختلط الحزن بشىء من الرضا ـ الرضا بأن هذين الطفلين فائضان عن حاجة الحياة ، مع ذلك رأيت أن لى بطفلين آخرين ، تصور ـ مخلوقين ينموان ، يتغيران سنة بعد سنة ، وتقريباً شهرًا بعد شهر وأنهما يمران بما مرَّ به الطفلان السابقان . يتراءى لعينىَّ الطفلان الآخران، هما واقفان فى المرآة وراء وجهى ، ويلوحان لى ، حكمة أدركتها دون أن آخذ بها . هذه الابتسامة التوّاقة فى عينى الطفلين اللذين يلوحان لى فى المرآة ، شفق فضى ـ أرى فى عينيهما صبرًا ـ صبرًا لا حدود له ، وأنا ، أنا لست امرأةً صبورًا ، وأرفض التخلى عن المعركة التى أخوضها ، والتى كانا ينصحاننى بألاّ أبدأها .

استغرق ملء الدلو وقتاً طويلاً ، وها قد بدأت قرقرة الامتلاء تعلو

وتعلو، بشيء من الإنذار ، إنها السرعة التى أسمع فيها امتلاء الميدان أخرى على عظام وجنتى البارزة قليلاً، هزلت كثيرا ، شحوب وجهى صار الآن اصفرارًا ، وأتساءل إن كان علىَّ تغيير صبغ شفتىّ هذا المساء ، قد أستعملُ أحمر شفاه أكثر إشراقاً .

كم من آلاف المرات يجب أن تقوم يداى بهذه الحركات ! دونما نظر إلى الدلو ، كنت أسمعه قد امتلأ . أغلقت الحنفية وأمسكت يداى بسرعة قبضة الدلو . أحسست بعضَلات ذراعىّ تتوتر وأنا أنزل الدلو الثقيل متأرجحاً إلى الأرض .

وضعت أذنى على باب « جزء » البيت الذى اقتسمناه بقواطع من خشب ، أنصت لأتأكد من أن فرانز لا يزال نائماً .

بعدها بدأت معركتى ، معركتى ضد القذارة . لا أدرى كيف أنقذ الأمل مما يميته ، أَجَّلْت الهجوم قليلاً ، مشطتُ شعرى بدون النظر إلى المرآة . نظفتُ صحون الإفطار ، وأشعلت نصف السيجارة المتروك على الدولاب بين كتاب الصلاة ودورق القهوة . استيقظ الجيران فى الغرفة المجاورة ، أستطيع سماع هسيس اشتعال الغاز بوضوح أسمع قهقهات الصباح الباكر، وتلك الأصوات الكريهة التى تتفجر فى بعض الأحاديث . ربما هو لا يزال فى فراشه ، تمتماته غير مفهومة ، أستطيع تمييز الكلمات حينما تبتعد .

« الأحد الماضى أردتُ أشترى بعد المطاطيات ... متى يدفعون لنا ؟ ... »

يبدو أنه راح يقرأ إعلانات السينما ، سيذهبون إلى « بار » . وبدأت آسف قليلاً على أن لى موعدًا مع فريد ، فستكون الغرفة المجاورة هادئة هذا

المساء . لكن « فريد » الآن فى طريقه ربما ليحصل على غرفة وبعض النقود ، وقد فات الأوان لإلغاء موعدنا . وأنا استنفدت سجائرى .

لحظة حرّكتُ الدولاب، تدحرجت على من الحائط قطع من البلاستر الجصى ،قطع تهاوت بين أرجل الدولاب وانتشرت على الأرض ، يوم طباشيرى جاف وناعم ، يبدأ بالتفتّت . أحياناً ينزلق لوح كامل إلى أسفل وتتوالى قرقعته بسرعة ، وحين أحرك الدولاب يهوى بعاصفة مُحْمَدَة ،

فى حين تنبئنى سحابة طباشيرية بأن يوم معركة استثنائية قد طلع علىَّ فجره ، استقر الغبار على كل شىء فى الغرفة ، طحين ناعم لطيف يضطرنى لأن أمرّ على كل شىء أنظفه مرتين ، وأنه ليلتمّ تحت قدمى ، وأسمع عبر الجدار البسيط لذلك المسكن المجزّأ الطفل يسعل ، يحاول التخلص من ذلك الغبار المفزع فى حنجرته . تصاعد اليأس فى داخلى ، صار ألماً جسديًّا ، حنجرتى أطبقت على غبارٍ غضبٍ حاولت ابتلاعه . أخمدته ، لكنَّ مزيجاً من غبار ودموع وخيبة انزلق إلى معدتى ، لقد بدأت الآن المعركة فعلاً . وجهى يلتمّ من ألم ، كنستُ النثار بعد أن فتحت النافذة ، بعدها مسحت بمنفضتى الغبار عن أوجه الأشياء . أخيرًا غطّست ممسحة الأرض فى الماء ، وما إنْ حاولت تنظيف أوول مساحة مربعّة وأغسل ممسحة الأرض حتى بدأت سحابة بيضاء تنتشر فى الماء . بعد المساحة المربعة الثالثة ، صار الماء كثيفاً ، وحين أفرغت الدلو ترسب تفل طباشيرى مقرف ، أزحته بيدى ، وغسلت الدلو ، كان علىَّ أن أملأ الدلو مرة أخرى .

أنظر إلى وجهى فى المرآة ، عيناى لمحتا شيئاً ، أستطيع رؤيتهما ، طفلىَّ : ريجينا و روبرت . . تَوْأم ولدتهما كى أتحمل فقط رؤيتهما يموتان . إنَّ يَدَىْ فريد هما اللتان قطعتا الحبل السرى وغليتا الأدوات ، واستقرتا على جبهتى

حين كنت أصرخ من الألم . لقد ترك المدفأة موقدةً ، لف سيجارتين لكلينا ، وكان هارباً من الخدمة ، وكنت أشعر بمزيد من الحُب له حين أدركتُ قَدْرَ كُرْهِهِ للقانون . رفعنى بذارعيه . . حملنى إلى السرداب ، وكان إلى جانبى حين وضعتهما لأول مرة على صدرى ، هنالك ، تحت فى السرداب البارد الذى لا يتغير هواؤه ، إلى جانب ضوء شمعة خافت « كليمنز » جالس على كرسيه الصغير ينظر فى كتاب مصور والقنابل تتفجر فوق بنايتنا .

تلك الأصداء الكبيرة تذكرنى الآن بمعركتى ضد القذارة والنثار المتهاوى ، فما إن ذهبت مرة أخرى يتأرجح الدلو فى يدى نازلة إلى الأرض ، حتى رأيت الأمكنة التى غسلتها قد جفّت وكشفت عن طبقة طباشيرية بيضاء وبقع كريهة أعرف أنها لا تزاح . هذه اللاجدوى الباهتة تقتل انتباهاتى الحية ، تدمر قُواى ، والتشجيع الذى يمدنى به الماء النظيف فى الدلو الذى أحمله ، قد هبط الآن إلى حده الأدنى .

مرةً أخرى ، أخرى أحمل الدلو الفارغ لأضعه تحت ماء الحنفية ضعيف الجريان . وتقع أيضاً عيناى على المساحة البيضاء غير المضاءة فى خلفيّة المرآة ، ورأى جَسَدىْ طفلى تغطيهما لَسعات البعوض الوارمة ، مثخن جسداهما من عض القمل فيعترينى إيلام فى معدتى وأنا أفكر فى جيش الهوام المشحون إلى الحرب . . بلايين القمل والبعوض والقراد تتحرك حالما تندلع الحرب ، تتبع الأمر الصامت الذى يقول لها :

هنالك طعام يمكن الحصول عليه .

أوه . . إننى أدرى ! أدرى ولا أظننى يوماً سأنسى أننى كنتُ أدرى أن الموت يأتى إلى طفلىَّ من القمل ، فقد باعوا لنا علاجاً عديم الجدوى من

مصنع يديره ابن عم وزير الصحة ، فى حين حُظِرَ العلاج الجيد ، الفعّال .

أدرى ، ولا أظننى أنسى ، لأننى أراهما ، هناك فى المرآة ، أحمرين من الحشرات ، قبيحين ، محمومين وبيكيان ، جسداهما الصغيران متورمان من زرق الإبر اللامُجْدِيَة . وفتحت الحنفية بدون أن أرفع الدلو ، فاليوم هو الأحد ، وسوف أجد راحة نفسى ، فى هذه المعركة ضد القذارة التى هيجتها الحرب .

وأرى وجه فريد شائخاً جافًّا ، أتلفته حياة لا طائل وراءها ، ودائماً لا طائل وراءها . حياة ستظل لا طائل وراءها . فهى خلو من الحبْ ، لا تثير أية محبة فى وجه رجل استسلم فى سن مبكرة إلى اللامبالاة بإزاء أى شىء مما يجهد الناس للحصول عليه . أراه كثيرًا ، وأكثر من أى وقت ، وإن لم يعد يعيش معنا . ابتسم فى المرآة ، تدهشنى رؤية ابتسامتى أنا التى لا أعرف عنها شيئاً ، أصغى لقرقرة الماء فى الدلو ترتفع ، ترتفع أكثر . أخفق فى استعادة نظرتى من المرآة لأحيلها إلى وجهى . وجهى الحقيقى الذى أعرفه غير مبتسم . وراء وجهى أرى نساءً ـ نساءً صُفْرًا ينجزن غسيلهن جنب أنهار موحلة ، أسمع غناءهن ـ أرى نساءً سُودًا يحفرن فى أرض لفحتها الشمس ، أسمع قرع طبول لا معنى لها ، ولٰكنها آسِرة ، من رجال عاطلين أراهم فى خلفية المرآة . أرى نساءً سُمْرًا يطحنَّ حبوباً فى رحًى حجرية ، يحملن رُضَّعًا على ظهورهن على حين يقبع الرجال بغباء حول النار يدخنون غلاايينهم ـ وإخواتى البيض فى حجرهن ، فى لندن ونيويورك وبرلين ، فى تلك الأزقة المظلمة ، فى شوارع باريس الخلفية ، وجوههن مألومة ، يصغين مرعوبات لصراخ مخمورين . وأرى بعيدًا فى المرآة ، أرى جيش الجحيم يتقدم ، تحرك غامض بلا نشيد للهوام ، إنه يتقدم حاملاً الموت لطفلىَّ .

لكن الدلو قد امتلأ منذ حين ، ومع أنه الأحد ويجب أن أغتسل ، فأنا اليوم عليّ أن أقاتل القذارة . منذ سنين وأنا أقاتل القذارة فى هذه الغرفة الصغيرة ، أنا أملأ الدلاء وأعصر الثياب ، أسكب الماء القذر فى البالوعة ، وافترض أنى سأكسب معركتى، فأرانى ثانية أقشع قدرًا من التلف الطباشيرى، وأزيح بقدر ما أضاف البناءون مبتهجين من ملاط على جدران هذه الغرفة قبل ستين سنة . كلما رحت أملأ الدلو تنظر عيناى فى المرآة ، وحين ترتدان من الخلف تفعان أمام هى يابستين بلا حياة ، تراقبان اللعبة اللامرئية ، ثم أرى على وجهى ابتسامة قد تكون سقطت من وجوه أطفالى على وجهى وبقيت عليه . أو هى فى جهى تعبير عن قرار قاس ، عن كراهة وقسوة يملآننى بالكبرياء أكثر ممن ينذراننى ، إنها قسوة وجهَ لا ينسى .

لكن اليوم هو الأحد ، وأنا ماضية لأكون مع فريد . الرضيع نائم .

وكليمنز خرج إلى الموكب مع كارلا ، ومن الفناء أستطيع سماع أصداء طقوس ثلاث كنائس يخترقها جميعاً غناء خشن لزنجى .

إن غناء ذلك الزنجى كان الشىء الوحيد الذى يلامس قلبى :

« ... وهو أبدًا لم يقل كلمة »

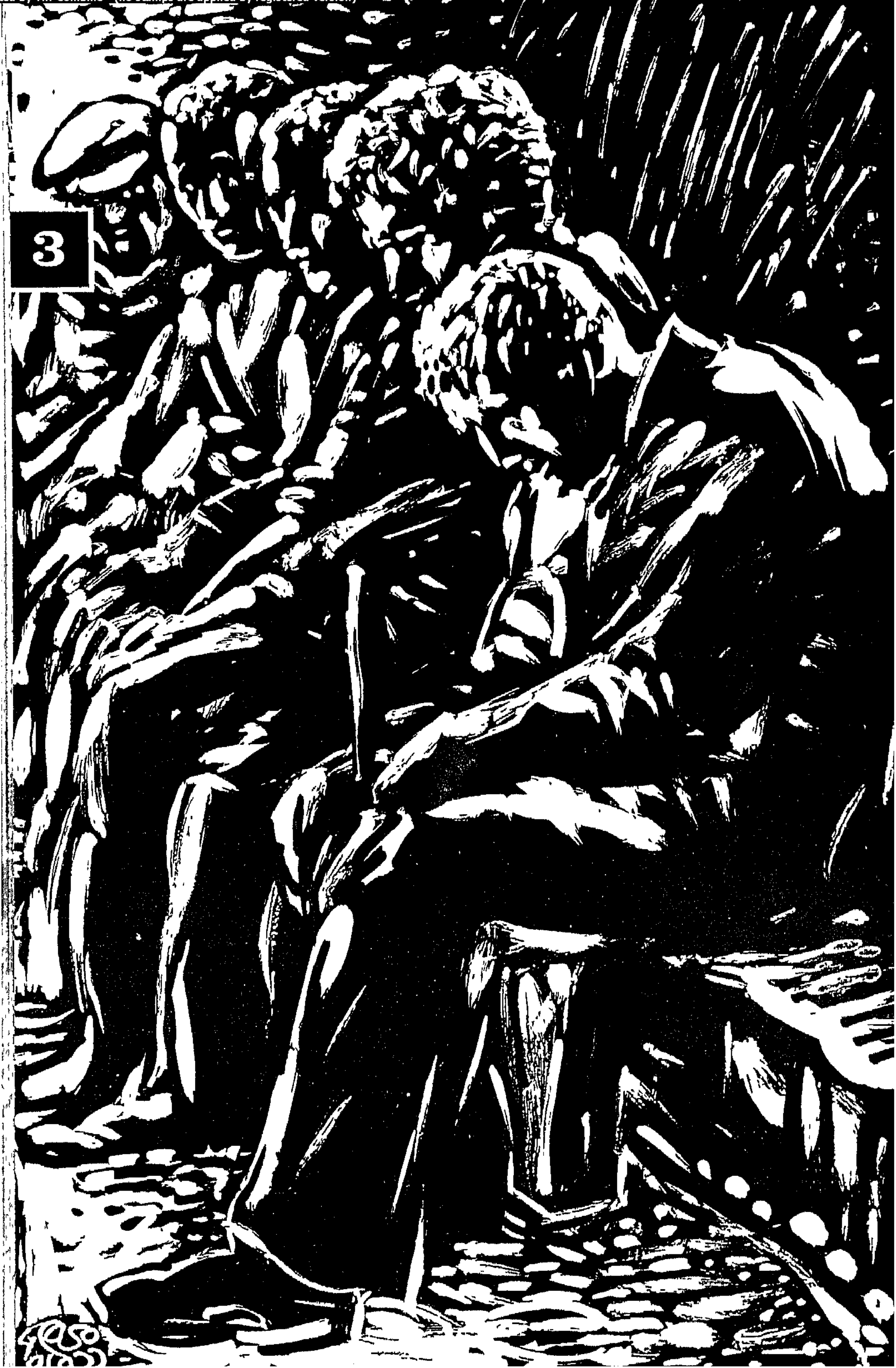
لعل فريدًا سيسكب بعض النقود وسنذهب عندئذ للرقص ، سأشترى قلمَ حمرة جديدًا ، أشتريه ديناً من سيدة مالكةٍ فى الطابق الأسفل . وسيكون لطيفاً إن أخذنى فريد للرقص . أستطيع أن أبقى هنا أسمع صراخ الزنجى الخشن الجميل ، أسمعه خلال اثنتين من صلوات الماء ، وأستطيع أن أحس بالكراهية تكبر فى قلبى للأصوات الأخرى التى تتقطر قوتها فى داخلى مثل تحلل بطىء :

« لقد سمروه على الصليب ، سمروه على الصليب » .

نعم هو الأحد ، غرفتنا ملأى برائحة « الروست » . إن هذه الرائحة تبكينى ، تبكينى على فرح الأطفال بها ، والذين نادرًا ما ينالون لحماً :

« ... لم يقل كلمة » يغنى الزنجى .

« ... ولم يقل كلمة » .


3

عدت إلى محطة القطار ، أخذت بعض القطع النقدية الصغيرة من محاسب « مطعم الأكلات الخفيفة » ، وقررت أن أسلك أسهل الطرق إلى الخارج ، فقد كان اليوم يوم أحد ، كنت شديدالتعب وشديدالتعاسة ، لا طاقة لى على الذهاب ورؤية كل أولئك الناس الذين أستطيع أن أفترض منهم نقودًا ، لذلك فكرت أن أتصل هاتفيًّا بالذين عندهم هواتف ، فى الهاتف أحاول أحيانا أن أشبع صوتى بتلك النغمة التى تؤكد الثقة بصاحبها ، والتى تتضح فى وجه المقابل وتضغط على سحَّاب فتح المحفظة . كانت مقصورة الهاتف فى المحطة خالية ، دخلت وأدرت أرقام هواتف عدة فنادق ، وأخرجت دفتر ملاحظاتى لأرى أرقام هواتف ناسٍ يمكن أن أطلب منهم مالاً ، كان فى جيبى كثير من القطع النقدية الصغيرة ، وترددت قليلاً ، تطلعت إلى ورقة جدول التعليمات المتهرئة ، على جدران المقصورة تعليمات استعمال الهاتف وعليها الكثير من الخربشة ، أسقطت أول قطعتين من النقود فى الفتحة .

كلما حاولت الاتصال بأحد ، ضغط على هَمُّ طلب النقود ، حتى تحول ذلك إلى كابوس ، فلم آسف على أنى كنت مخمورًا . أدرت رقم الرجل الأكثر احتمالاً أن يقرضنى شيئاً ، لكن رفضه سيجعل كل شىء فى أسوأ

حال . فالأشد إحراجاً بعده سؤال الآخرين . وهكذا تركت القطعتين الأخريين تستقران فى جوف الجهاز ، ضغطت على الذراع مرة أخرى وانتظرت قليلا . كان العرق يتجمع على جبهتى ، مما جعل قميصى يلتصق على ظهر عنقى ، وأدركت فى ذلك الوقت كم عولت كثيرًا على اقتراض النقود ، خارج مقصورة الهاتف ، رأيت ظل رجل بدا منتظراً ، كنت أوشك على ضغط الزر الآخر لأخرج نقودى مرة أخرى ، ففرغت المقصورة الثانية واختفى الظل الذى كان وراء باب مقصورتى . مازلت مترددًا . فوق رأسى ترعدالقطارات داخلة خارجة ، ومن بعيد أستطيع سماع صوت مذيع المحطة . مسحت العرق وقلت لنفسى :

لن أستطيع فى وقت قصير أن أنال النقود التى أحتاج إليها لأكون مع «كيت » .

كنت شديد الخجل وأنا أدعو الله ليَهَبَ لى أحدًا أطلب منها النقود بيسر . جمعت نفسى وأدرت الرقم مرة أخرى ، وأبعدت يدى اليسرى عن الذراع ، فما عدت قادرًا على ضغطها مرة أخرى ، حين أدرت الرقم الأخير. مرّت لحظة صمت تبعها أزيز ، واستطعتُ تمييز مكتبة سيرجى ، حيث يرن الهاتف الآن ، أستطيع رؤية كل كتبه ـ النقوش المثيرة على الجدران ، النوافذ الملطخة الزجاج تطلّ على القديس كاسيوس ، تذكرت اللافتة التى رأيتها قبل قليل :

« مرحى لراعــى كنيستنا »

وأدركت طبعاً أنه يوم الموكب ، وأن سيرجى ربما لا يكون فى البيت . كنت أنضح عرقاً ، أكثر غزارة من أى وقت مرَّ بى ، ربما أخفقت فى سماع صوت سيرجى أول مرة ، لأنه قال جَزِعاً :

ـ « هلو ، مَن المتكلم ؟ » .

ومن نغمة صوته ذابت كل شجاعتى ، وأكثرها تسرب عبر رأسى فى ثانية واحدة . لكنى ، إذا سألته مالاً فسيكون قادرًا عندئذ على التمييز بين مستخدمه وبينى أنا المقترض ، فقلت بأعلى ما يمكن :

ـ « إنه بوكنر » .

ومسحت العرق البادربيدى اليسرى وأصغيتُ بدقة لصوت سيرجى ، ولن أنسى ارتياحى حين سمعت صوته يتخذ نغمة ودية .

قال : « أوه ، هذا أنت ! لماذا تتكلم مضطرباً ؟ »

قلت : « كنت أخشى أن . . . . » .

ظل صامتاً ، وكنت أسمع رعد القطارات ، وصوت مذيع المحطة فوق رأسى ، وكنت أرى امرأة وراء باب المقصورة . تلمست منديلى .

كان قذرًا رطباً . صوت سيرجى صدمنى بين عينى حين قال :

ـ « حسن ، كم تريد ؟ » .

كنت أسمع خلال الهاتف أجراس كنيسة بيفانى الجميلة الباكية كأنها ربطوا رنينها الداوى بسماعة الهاتف . بصوت خفيض قلت :

ـ « خمسين » .

ـ « كم ؟ » .

ـ قلت : « خمسين »

ولا زلت مضطرباً من الضربة التى لم يقصدها ، لكن هكذا هى الأمور ،

حين يسمعنى شخص ، يرانى ويعرف فى الحال أنى سأطلب منه مالاً .

سألنى . « كم الساعة الآن ؟ »

وفتحت باب مقصورة الهاتف ، نظرت أولاً إلى وجه امرأة عجوز مكفهر كانت واقفة هناك هزت رأسها حين أخرجت رأسى ، ثم ـ فوق لافتة اتحاد الدوائيين ـ رأيت ساعة المحطة ، وأجبت فى السماعة :

ـ « السابعة والنصف » .

صمت سيرجى ثانية ، سمعت رنين جرس الكنيسة الناحب ، ثم قال :

ـ « تعالى حوالى العاشرة » .

خشيت من أن يقطع المكالمة فقلت عجلاً :

ـ « هلو ، سيدى ، هلو ؟ »

« نعم ، ماذا ؟ »

« أستطيع أن أعتمد . . . » .

« يمكنك . . وداعاً » .

وسمعته يضع السماعة ، وضعت سماعتى ، وفتحت باب المقصورة .

قررت أن أوفّر ثمن المكالمات وسرت متمهلاً فى المدينة أبحث عن غرفة . كان صعبًا العثور على غرفة بسبب الاحتفال الكبير ، فهنالك الكثير من الزوار فى المدينة ، ومجرى السياح الأجانب لم يتوقف . المؤتمر جلب أخيرًا مثقفين من جميع أنحاء البلاد . صارت المناسبة معروفة للجراحين وهواة الطوابع والمنظمات الخيرية ، فهم يجتمعون كل سنة فى ظل الكاتدرائية ، لقد

ملأوا الفنادق، رفعوا الأسعار ، وأسرفوا في صرف حساباتهم الكبيرة ، والآن هم الدوائيون ، الذين يجتمعون

يستعرضون في كل مكان ، يحملون أعلاماً حُمْرًا صغيرة وشارات تنظيماتهم على صدور سترهم ، لا يبدو لبرد الصباح الباكر تأثير في حالتهم الروحية . يتبادلون كلام الباعة البهيج في السيارات وفي الترام ، ويندفعون إلى لقاءات جميعات وانتخابات هيئات ، ويبدو أنهم قرروا إشغال كل فندق من الفنادق متوسطة الأسعار ، ولأسبوع على الأقل ، كان هناك فعلاً الكثيرُ من الدوائيين ، وكثير من هؤلاء تصحبهم زوجاتهم لمناسبة نهاية الأسبوع ، مما شكل صعوبة في الحصول على غُرف ذات سريرين ، كما أن التجمع أقام معرضاً . وهنالك لافتات تدعو الناس لزيارة هذا المعرض الفخم للمنتجات المهجّنة . . مجاميع من العقائديين يظهرون بين حين وآخر في مركز المدينة بمسيرة تتجه إلى موقع التجمع ، قس محاط بمشاعل باروكية وهاجة ، ومنشدون بأرواب حُمْر ، ورجال ونساء في أناقةيوم الأحد .

منتج معجون أسنان استأجر منطادًا ذا محرك يلقي بمظلات بيض . المظلات طفت ببطء باتجاه الأرض ، حاملةصناديق من معجون الأسنان فوق المدينة ، وعلى السّد كان مدفع ضخم يفجّر بالونات تحمل ماركات منافسة ، عجائب أكبر أعلنت ، وكان هناك كلام بأن « خدعة » إعلانية عن منتج بضائع مطاطية كبير خربتها الكنيسة .

حين بدأت الاتصال بسيرجي في الساعة العاشرة لم أكن قد وجدت غرفة بعد ، وكان رأسي يئز بأعذار مالكات النزُل ، والأجوبة القاطعة للنوادل ذوي العيون الغائمة من سهر .

المنطاد ذو المحرّك اختفى فجأة ، والمدفع الذي كان يُطلق من فوق

السد، لم يعد يُسمعَ ، وحين سمعت ترانيم الأدعية تأتى من القسم الجنوبى للمدينة ، علمت بأن الاجتماع يوشك على البدء الآن .

العاملة بمنزل سيرجى استقبلتنى فى المكتبة . قبل أن أجلس ، دخل سيرجى عبر غرفة النوم ، ورأيت فى اللحظة نفسها نقودًا فى يده .

رأيت قطعة ورقية خضراء ، وواحدة زرقاء ، وفى الأخرى بعض قطع معدنية ، حدقت فى الأرض ، منتظرًا ظله يسقط علىَّ ، ثم رفعت بصرى ، وقد دفعه تعبير وجهى إلى القول :

ـ « تعال ، ليست الأمور بهذا السوء » .

لم أعترض عليه .

ـ قال : « ها هى ذى »

مددت يدى مبسوطة إليه ، وضع القطعتين الورقتين فى يدى اليمنى ، وكوم القطع المعدنية فوقها قائلاً :

ـ « خمسة وثلاثون ، هذا أقصى ما أستطيع ! »

قلت : « آه ، شكراً » .

نظرت إليه وحاولت أن أبتسم ، لكن نشيجاً لم أسيطر عليه انبثق منى كمن يتجشأ . لاشك أن مابدا علىَّ حَيَّرَهُ . نفض رداءَه بعناية . يداه مقلمتا الأظافر جيدًا ، وخداه الحليقان ، كل ذلك جعلنى أمام رثاثة شقتنا ، والبؤس الذى نتنفسه طيلة عشر سنوات مثل غبار أبيض لانحس به ولا نلمس له طعماً ـ ذلك اللامرئى ، الذى لا وصف له . لكننا نعرفه غبار التعاسة الأصيل الذى استقر فى رئتى ، فى قلبى ، فى دماغى ، ذلك الذى

تسلط على دمى وتركز فى جسدى ، ذلك الذى جعلنى الآن متقطع النفس ، أسعل قبل أن أستطيع انتشاق الهواء .

قلت بجهد : « حسن إذن ، وداعاً وشكرًا جزيلاً » .

ـ « تحياتى لزوجتك »

ـ « شكرًا » .

تصافحنا ، وسرتُ نحو الباب ، حينما التفت ، رأيته قد رفع يده مباركاً . ورأيته واقفاً قبل أن أغلق الباب : يداه تتدليان واهنتين إلى جانبيه ، ووجهه فى حُمرة الشمندر . كانت باردة فى الخارج فقَلَبْتُ ياقة سترتى . سمعت توًّا صوت الصلوات ، أصوات « الترمبونات » وأصوات النساء يُغَنِّين ، وقد تلتهن وأخفت أصواتهن أصواتُ كورس الذكور . هبّات الريح قربت الغناء أكثر ، سياقات موسيقية مزجتها ريح الخرائب بالغبار . كل مرة ترشق الريح الغبار على وجهى ، وتصدمنى عاطفية الغناء . لكن الغبار توقف فجأة ، وعلى بعد ياردات وجدتُ نفسى فى الشارع وحيدًا حيث اعتاد الموكب أن يمر. لم يكن هنالك الكثير من الناس على المماشى ، فتوقفت منتظرًا .

راعى الأبرشية، وقد تجلبت باللون الأحمر للشهداء ، سار وحيدًا بين حاملى القربان المقدس وفرقة المنشدين ـ وجوه المنشدين المتوردةبدت منتفخة وشبه بلهاء، كأنهم لا يزالون يصغون إلى الترتيل الذى توقفوا عنه .

راعى الأبرشية كان رشيقاً ، طويل القامة ، شعره الأبيض الكثيف خرج من تحت قبعنه التى يلائم حجمها رأسه تماماً . لقد كان مُشْتَدًّا ، ويداه مَثْنِيَّتَيْن ، أستطيع القول إنه لم يكن يصلى ، وإن كانت يداه مثنيتين ، وعيناه

تنظران محدقتين إلى أمام . الصليب الذهبى على صدره يتأرجح تأرجحاً لطيفاً وعلى إيقاع مدى خطواته .

كانت للراعى مشية فخمة ، متمايلة ، وعند كل خطوة يحرك قدمه ذات الخف المراكشى الأحمر ، إنها مثل خُطًى نوع لطيف من الإوز . كان الراعى ضابطاً عسكريًّا . وجهه نورانى حسن التصوير ، يصلح كثيرًا لغلاف مجلة دينية .

أعضاء التجمع الكاتدرائى يتبعونه تاركين مسافة صغيرة تفصلهم عنه . من هؤلاء اثنان فقط حظيا بوجهين نيرين ، كل الآخربن كانوا صارمين جُهْماً، إمَّا شاحبون جدًّا أو شديدو الحمرة ، وعلى وجوههم تعبير سخط غير محدد السبب .

كانت « الظُّلَّةُ » الباروكية كثيرة الأحزمة يحملها أربعة رجال يرتدون ثياباً سوداء شبه رسمية ، ويسير تحت الظلة أسقف الأبرشية حاملاً وعاء القربان المقدس . تتعذر على رؤية مركز التجمع ، بسبب سعته ، ولقد ركعت ورسمت إشارة الصليب وانتابنى إحساس خاطف بأنى منافق ، حتى تذكرت أن الله كان بريئاً ، وليس رياءً أن أركع أمامه . وكل الناس على الأرصفة تقريباً ركعوا إلاَّ واحدًا طويل القامة ، يرتدى جاكتاً من المخمل المضلع ، وقبعه ظل واقفاً لم يحرك قبعته أو يخرج يديه من جيبه . أفرحنى أنه لم يدخن . جاره أخيراً رجل أبيض الشعر ، همس له بشىء ، وبهزة كتف رفع قبعته وحملها بيده أمامه ، لكنه لم يركع .

فجأة شعرت بأنى حزين جدًّا . وتابعت عيناى حاملى أوعية القربان المقدس وهم يبدأون الحركة فى الشارع الشاسع . كان هنالك الركوع

والاستقامة ونفض السراويل من الأتربة ، كل ذلك يتحرك مثل موجة . بعد حاملى أوعية القرابين جاءت مجموعة من عشرين رجلاً ثياب سوداء . كانت الثياب كلها نظيفة ، حسنة الخياطة ، إلا بالنسبة لرجلين ، فلم تكن ثيابها ملائمة لها ، علمت لحظتها أنهما عاملان . لابد أن يكون أمرًا حرجاً أن يسيرا بين رجال آخرين ثيابهم ملائمة لأصحابها تماماً ، فهذا يعنى أن أولئك يرتدون ثيابهم الخاصة، واضح أن العاملين قد استعارا ثوبيهما السوداوين ، فمعروف جدًّا أن لراعى الأبرشية وعى اجتماعى عال وقد أصرّ على أن يكون بعض العمال بين حاملى الظُّلّة .

مرت مجموعة من الرهبان، كان منظرهم مؤثرًا ، رداؤهم الكهنوتى الأسود فوق صدرياتهم «الكريم» ، بقع الشعر المحلوقة بدقة تعلو رؤوسهم المحنية كل ذلك كان مؤثراً جدًّا ، ولم يكن على الرهبان طى أيديهم، فقد كان يمكنهم إخفاؤها فى أكمامهم الطويلة . . تحركت المجموعة إلى الأمام ، الرؤوس المحنية فى حالة استغراق ، صامتة تماماً ، ليسوا مسرعين جدًّا، ليسوا بطاءً ، هم يمشون وفق اتساق روحى ، الياقات العريضة ، الأرواب الطويلة ، والتناسق الجميل بين الأسود والأبيض ، كل ذلك أضفى عليهم شيئاً هو الشباب والنباهة معاً ، ولابد أن المشهد جعلنى أتمنى أن أكون واحدًا بين صفوفهم ، لكنى أعرف بعضهم وأعلم أنهم فى ثياب القسس ليسوا أفضل من الآخرين .

الأكاديميون يصل عددهم إلى المائة ، بدوا نابهين جدًّا ، بعضهم فى الأقل يبدون كذلك . بعض الوجوه تحمل سحنة النباهة ، كان أكثرهم فى ثياب سوداء ، لكن بعضهم كان يرتدى ثياباً اعتيادية ، رمادية غامقة .

أعقبهم قسس من مختلف أبرشيات المدينة ، إلى جانبهم مشاعل باروكية كبيرة ، ورأيت حينها كم من الصعب على قس مدنى امتلاك شكل جيد فى تلك الأردية الكهنوتية الباروكية ، بعض القسس لم يكونوا محظوظين جدًّا إلى إلى حد امتلاك مظهر نورانى ، بعضهم كان ثقيلاً ويبدو غليظاً تماماً .

ومعظم الناس فى الشارع بَدَوْا فاقدى العافية ، متضايقين ، بل مُحْرجِينَ .

أفراد من جموع الطلبة يرتدون قبعات ملونة بهيجة ، وأولئك الذين يسيرون فى الوسط ، كل واحد يحمل علماً ملوناً بهيجاً يرتخى إلى أسفل حريريًّا ثقيلاً كانت هناك سبعة أو ثمانية تشكيلات من الطلبة ، كل واحد يتكون من ثلاثة صفوف ، والمجموعة كلها تبدو ملونة مفرحة ، ومن أجمل ما رأيت ، وجوه الطلبة تبدو ساكنة جدًّا ، وكلهم يحدقون أماماً لايطرف لهم جفن ، ينظرون إلى هدف بعيدجدًّا ، وفاتن جدًّا ، ولا يبدو أى منهم عارفاً أنهم يبدون بذلك مضحكين ، أحدهم يرتدى قبعة زرقاء وحمراء وخضراء - ينضح وجهه عرقاً ، وإن لم يكن الجو حارًّا ، لكنه لا يبدو مضحكاً كثيرًا قدر ما يبدو فاقدًا سعادته . أتصور أن هناك شيئاً ، قاعة شرف مثلاً ، وأنه سيُطرد منها بسبب مواصلته نضح ذلك العرق الغزير خلال المسيرة ، وأن هذا قد يعنى نهاية مسار حياته ، إنه فعلاً يعطى انطباعاً عن رجل خسر فرصته فى الحياة ، وكل الآخرين الذين لا ينضحون عرقاً ، يبدون كأنهم لن يعطوه بعدفرصة أخرى .

مرت مجموعة كبيرة من أطفال المدارس ينشدون بسرعة شديدة وبشىء من عدم الانتظام ، وإن غناءهم كان يشبه إنشاد مدفع ، فالكلمات التى ينشدها رؤساء المجموعة يرددها الآخرون عالياً وراءهم ، بعد ثلاث ثوان ،

بضعة معلمين شباب فى ثياب سوداء ، حديدة ورَجُلاَ دينٍ كل واحدٍ منهما يرتدى مَدْرَعةً ذات نطاق ، كانوا يركضون فى محاولة لحفظ الترامن فى الإنشاد وهم يهزون أذرعهم محاولين ننظيم السرعة والإشارة إلى قواعد الهارمونى لأولئك البعيدين عنهم ، ولم يكن لكل ذلك جدوى . فجأة دار رأسى ، فلم أعد أرى الناس فى المسيرة ولا المراقبين . فالقطاع الذى أنا فيه قد انكمش كما لو أنه قد ضُغِطَ ، وخلال ضباب كان ينحول رماديًّا ، رأيتهما هما فقط ، طفلىَّ ، كليمنت وكلارا ، الولد شاحب جدًّا فى بدلته الزرقاء يحمل مقابل صرته الشارة الخضراء لعضو الكنيسة اللاأول ، ويحمل شمعة . وجهه العزيز ، الوجه الطفولى الوديع ، كان شاحباً وابنتى ، التى تحمل لون شعرى الأسود ، واستدارة وجهى وتكوينها الرقيق ، كانت تبتسم قليلاً ، وإنْ كنت بعيدًا عنهما ، فقد رأيتهما بوضوح تام ، رأيت ذلك الجزء من حياتى ، مثل جزء من حياة رجل غريب مات ودفنت حياته معه . وفى طفلى وهما يسيران قدماً بهدوء حاملين شموعهما عبر حقل الرؤية الضيق المتاح لى - رأيت ما كنت أظن دائماً أنى أعرفه ، إننا فقراء .

كان يحملنى مد الجموع التى تتالت فى أعقاب الموكب ، والتى قررت حضور المراسم الأخيرة فى الكاتدرائية .

فكرت لحظة فى الإفلات إلى الجانب الآخر . لكنى كنتُ متعباً لا أتبين طريقى ، تركت نفسى يجرفها المدّ ببطء إلى الخارج ، كان الناس مقرفين ، أنفر منهم ، وقدر ما أتذكر كنت دائماً أضدّ عن العقاب الجسدى ويؤلمنى أن يُضْرَب إنسان أمامى ، وأمنع ذلك متى ما كانت لى القدرة على منعه ، حتى بين أسرى الحرب . سبب لى ذلك كثيرًا من المتاعب والمخاطر ، فما كنت أستطيع احتمال رؤية الأسرى يجلدون ، لكن لم أكن أستطيع فعل شىء

بإزاء ما أشمئز منه ، حتى إذا هممت أن أفعل شيئاً ، ولم أكن أستطيع احتمال بقائى صامتاً أراقب إنساناً يُضْرَب أو يُقسَى عليه . وكنت أتدخل ، لا لأنى أشعر بالرثاء له ، أو بالحب له فى الأقل ، ولكن ببساطة ، لأنى لا أحتمل ذلك ، لكنى خلال الأشهر الأخيرة صرت غالباً ما أحس برغبة لتوجيه ضربة لأحد ما فى وجهه ، حتى صرت أضرب أطفالى ، إذ تثيرنى ضوضاؤهم بعد عودتى متعباً من العمل . صرت أضربهم بقوة ، وأدرك أنهم يعانون الظلم من خلالى ، لكنى كنت أفقد السيطرة على نفسى .

دائماً ما تسيطر علىَّ رغبة مفاجئة فى ضرب أحدٍ ما فى وجهه : المرأة الناحلة التى تسير الآن إلى جانبى فى الزحام ، هى قريبة جدًّا منى ، حتى لأشم عطرها الحامض المبتذل . وجهها ملموم القسمات من كراهة ، وتنهر زوجها الذى يتقدمنا ، وإنه ليشبهها هيئة ، ضيق الكتفين ، يرتدى قبعة خضراء من لباد :

هَيَّا عَجِّلى ، التحقى بى ، سنتأخر عن اللقاء ! »

شققت طريقى بعيدًا إلى اليمين ، واستطعت أن أخلص نفسى من المجرى ، توقفت أمام واجهة مخزن ، وتركت مجرى الناس يجتازنى . تحسست النقود التى فى جيبى ، حسبت الأوراق النقدية وقطع النقود المعدنيةبدون أن أخرجها من جيبى ، وتأكدت من عدم فقدان شيء منها .

رغبت فى كوب من القهوة لكن تذكرت أن علىَّ أن أحرص على النقود .

فجأة خلا الشارع ، فلم أعد أرى الآن إلاَّ القذارة : الأزهار المسحوقة ، التراب المخلوط بالجص ، واللافتة المعلقة منحرفة بين أعمدةالترام . بالأسود والأبيض ، كتبوا عليها السطور الأول من الترنيمة :

الثناء عليك أيها الرب ،

أمنا المقدسة ، بارِكى نذورنا .

وبعض اللافتات تحمل رموزًا : حملان ، وكئوسًا ، سعفات نخيل ، قلوباً ومراسى سفن .

أشعلت سيجارة ومشيتُ باتجاه الطرف الشمالى للمدينة . من بعد كانت تصلنى أناشيد الموكب ، لا تزال تُسمع ، لكن بعد دقائق عَمَّ الهدوء ، فعلمت أن المواكب وصل إلى الكاتدرائية ، التى تخلو عادة صباح الأحد . وجدت نفسى بين مجموعة من المتعلمين الشباب الذين بدأوا يناقشون فيلماً . كانوا يرتدون معاطف مطريةوقبعات وقد شكوا مجموعة حول فتاة جميلة ذات بلوزة خضراء براقةوبنطلون قصير مما يرتديه الجنود الأمريكان :

« . . . عبارة مؤثرة . . . »

« . . . ولكن الوسيلة . . . »

« . . . كافكا . . . »

لم أستطع إبعاد طفلىَّ عن ذهنى . فكأنى أراهما وعيناى مُطبقتان . طفلاى ، الولد ذو الثلاث عشرة سنة ، والفتاة ذات الحادية عشرة . مخلوقان شاحبان ، مقدّر عليهما أن يمرا تحت طاحونة العذاب الكبير . إنهما يحبان الغناء ، لكنى كنت أمنعهما عنه فى البيت .

روحاهما العاليتان تجاوزتا قدرة أعصابى ، علت ضوضاؤهما فانهلتُ عليهما بالضرب ، أنا ، ذلك الشخص الذى ما كان قادرًا يوماً على احتمال مشهد عقوبة جسدية ، ضربتهما على وجهيهما ، على ظهريهما ، لأنى أردتهما هادِئَيْنِ ، أردت سلاماً وهدوءًا فى الأمسيات حين أعود من العمل .

صوت الإنشاد يعلو فى الكاتدرائية ، الريح تأتى إلىّ بأمواج من الموسيقى الدينية ، وأنا أمشى مجتازًا محطة القطار . رأيت مجموعة رجال فى ثياب بيض ينقلون اللافتات ذات الرموز الدينية من أعمدة الأعلام ، ويعلقون مكانها أخرى جديدة تقول :

« اتحاد الدوائيين الألمان ، زوروا المعرض ! » .

« نماذج كثيرة مجاناً »

« أين أكون بغير دوائىّ يهتم بأمرى ؟ » .

مبطئاً بدون انتباه توجهتُ إلى كنيسة أحزان مريم السبعه ، اجتزت الباب الرئيسى وبدون أن أرفع بصرى انتهيت إلى محل الأكلات الخفيفة ، حيث تناولت إفطارى . كأن خطواتى كانت محسوبة ذلك الصباح ، كأنَّ إيقاعاً سريًّا كان يتحكم فى عضلات ساقى ، أجبرنى على التوقف والنظر إلى أعلى ، فإذا بى عنده ـ نظرت إلى اليمين خلال فتحة فى الستارة ، فرأيت الطبق وشرائح اللحم ، رأيت بوسترات السجاير الخضراء الكبيرة . وصلت إلى الباب ، فتحتها ، دخلت ، أنا فى الداخل تماماً ، وأدركت أنها غير موجودة هناك ، الأبلة غير موجود أيضاً . فى الزاوية ، جلس مصلح الترام ، يرشف حساءه وإلى المائدة المجاورة له ، جلس سد وسيدة أمامهما علبتا شطائر ورقينان وكوبان من القهوة ، ووراء المائدة كان المحارب القديم المعوق . نهض ونظر إلىّ ، بدا أنه عرفنى . زاويتا فمه ترتعشان قليلاً . مصلح الترام والزوجان نظروا إلىّ أيضًا . قال لى المحارب المعوق :

ـ « ما الذى أستطيع أن أقدمه لك ؟ » .

همهمت :

ـ « سجائر . خمس ـ العلبة الحمراء » .

وجهدت لأعثر على قطعة النقود فى جيبى ، وضعتها بعناية على المائدة الزجاجية . أخرج المحارب السجائر وناولنى إياها ، قلت :

ـ « شكراً »

وانتظرت .

نظرت متريثاً حوالىَّ . لا يزالون يحدقون بى . . مصلح الترام يحمل ملعقته إلى وسط المسافة بين فمه والصحن ـ أستطيع رؤية قطرات الحساء الصفراء تتساقط من ملعقته . . الزوجان توقفا عن مضغ الأكل ، الزوج وفمه مفتوح ، والزوجة وفمها مطبق ، ثم نظرت إلى المحارب ، كان يبتسم ، ومن تحت بشرة وجهه الداكنة غير الحليقة استحضرت وجهها .

كانت الغرفة هادئة جدًّا ، وفى الصمت سألنى :

« هل تبحث عن أحد ؟ »

هززت رأسى ، التفت باتجاه الباب ، تريثت لحظة وأحسست بعيون الآخرين على ظهرى قبل أن أغادر . كلن الشارع لا يزال خالياً حين خطوت خارجاً إليه .

جاء مخمورًا يترنح آتياً من النفق المظلم المؤدى إلى ما وراء محطة القطار. كانت مشيته المتمايلة الخرقاء فى اتجاهى ، وحين اقترب رأيت علم الدوائيين الصغير على طية سترته . تهاوى أمامى ، قطع زر سترتى وقاء البيرة الحامضة فى وجهى ، تمتم :

ـ « أين أكون من غير دوائى يهتم بأمرى ؟ » .

أجبته بلطف :

ـ « لا مكان لى بدون دوائى ، أنا بلا مكان » .

فقال باحتقار :

ـ « هكذا أنت إذن . فاغرب عن وجهى »

ومضى يترنح .

مشيت متئدًا فى النفق ، كان كل شىء خارجَ المحطة هادئًا . الأرج المر ـ الحلو لحبات الكوكا الأرضية ، ورائحة الكرامل تنتشر فى جو المنطقة كلها ، مصنع شكولاتة كبير يحتل ثلاثة قطاعات من المدينة ويعطى لهذا القسم من المدينة منظرًا كئيباً لا علاقة له بمنتجاته الشهية ، هنا يعيش الفقراء ، الفنادق القليلة فى هذه المنطقة رخيصة ، ومكتب السياحة يتجنب إرسال الزوار إلى هذه المنطقة لكى لا تثيرهم شدة فقرها ، الشوارع الضيقة ممتلئة بروائح طبخ قطع « الروست » الكبيرة . أطفال يقفون وفى أفواههم مصاصاتهم ، وكنت ألمح من خلال النوافذ رجالاً مطويى الأكمام يلعبون الورق ، وعلى حائط مبنى مهدم مسودٍّ من نار ، رأيت علامة سوداء كبيرة تمثل يدًا سوداء تشير ، وتحت اليد السوداء كانت هذه الكلمات :

البـيت الهـولندى

غرف ، طبخ منزلى ، رقص أيام الأحد .

تابعت اتجاه اليد السوداء ، وجدت يدًا سوداء أخرى فى زاوية اللوحة :

ب ، هـ ، عبر الشارع

وحين رفعت بصرى ونظرت إلى المبنى المقابل ، إلى الطابق الأحمر الملطخ

بدخان مصنع الشكولاتة الأسود، عرفت أن الدوائيين لم يتغلغلوا إلى هذا الطرف من المدينة .

يدهشنى بدون شك ما يسيطر عليَّ من شعور كلما سمعت صوت فريد فى الهاتف : صوته خشن ، مجهد إلى حد ما ، وله تأثير يجعله مثل صوت غريب يقصد إثارتى ، هكذا سمعته يتكلم خلال الحرب ـ من أوديسا ، من سيباستبول ، من حانات لا عدد لها حين اعتاد السكر . وكم خفق قلبى وأنا أرفع سماعة الهاتف وأسمعه عبر الخط يضغط على زر « الدفع » وتسقط قطع النقود ليكمل الاتصال ، همهمة التبادل الصامت ، مثلما يتكلم : سعاله ، الرقة التى فى صوته كلها تتسرب إلىَّ من الهاتف .

حين انحدرت إلى الطابق الأسفل كانت صاحبة النُّزلِ جالسة فى الزاوية المعتادة من أريكتها ، مُحاطَة بالأثاث الرث ، كان مكتبها مغطى بكارتونات الصابون ، وبصناديق موانع الحمل ، وصناديق خشب صغيرة تحفظ فيها مواد تجميل غالية الأثمان . كانت الغرفة مفعمة برائحة شعر النساء الذى اكتوى من حرارة أجهزةالتصفيف ، تتسرب من « الخانات » المنفردة فى واجهة الغرفة العليا ، ورائحة فظيعة حادة ، لكل ذلك الشعر المحروق يوم السبت . كانت السيدة « ردود » شعثاء ، غير ممشطة الشعر ، أمامها رواية استعارتها من مكتبة ، مفتوحة لا تقرأ فيها طالما هى مشغولة بمراقبتى وقد رفعت سماعة الهاتف إلى أذنى ، بعدها ، ودون أن تنظر إلى طريقها وصلتْ إلى الزاوية خلف الأريكة ، تناولت قنينة الشنابز وملأت قدحها دون أن تبعد عينيها المتعبتين عنى .

قلت : « هلو ، فريد » .

قال : « كيت ، حصلت على غرفة وبعض النقود ، متى تأتين ؟ » .

ـ « فى الخامسة ،أريدأن أصنع كيكة للأطفال . هل سنذهب للرقص؟» .

ـ « بالتأكيد، إذا رغبت فيه ، هنالك حفلة رقص فى الفندق » .

ـ « فى البيت الهولندى »

ـ « أين ذلك ؟» .

ـ « شمال المحطة ـ تسيرين فى شارع المحطة ، ثم تنعطفين وسترين علامةً ، يدًا سوداء تشير . اتبعى الإصبع المؤشر . . كيف الأولاد ؟ »

ـ « بخير » .

« اشتريت لهم بعض الشكولاتة ، وسنشترى لهم بعض البالونات ، وأود أن أصرف شيئاً لينالوا شيئاًمن الآيس كريم أيضاً ، سأعطيك شيئاً من النقود لهم ، أخبريهم أننى آسف على ضربى لهم . كنت مخطئاً » .

« لا أقدر أن أقول لهم ذلك ، يا فريد » .

ـ « لِمَ لا ؟ »

ـ « لأنهم سيبكون » .

ـ « فليبكوا ، يجب أن يعرفوا بأنى آسف ، ذلك شىء مهم جدًّا بالنسبة لى ، أرجوك لا تنسى » .

لم أعرف حينها بماذا أجيبه . لاحظتُ صاحبة النُّزلِ تملأ قدحها الثانى وعلى وجهها ملامح الخبيرة ، ترفع الكأس إلى شفتيها ، تترك التنابز يتدحرج ببطء على لسانها ، ورأيت تعبير امتعاض بسبط فى وجهها حينما يجتاز الشنابز بلعومها .

قال فريد : « كيت ؟ » .

ـ « نعم ؟ »

ـ « أخبرى الأولاد بكل شىء ،رجاءً لا تنسى ،وأخبريهم عن الشكولاتة، والبالونات ، والآيس كريم .

عدينى بذلك .

قلت : « لا أستطيع ، هم اليوم سعداء جدًّا ، فقد سُمِحَ لهم بأن يستعرضون فى الموكب . لا أريد أن أذكرهم بالضرب ، سأخبرهم فيما بعد ، فى وقت ما نتحدث فيه عنك . »

ـ «هل تتكلمون عنى ؟ » .

ـ « نعم ، هم يسألوننى أين أنت ، وأقول لهم إنك مريض » .

ـ « مريض ؟ » .

ـ « نعم أنت مريض » .

ظل صامتاً ، واستطعتُ أن أسمع نَفَسَه فى سماعة الهاتف .

قامت صاحبة النُّزل وهزت رأسها بعزم .

« قد تكونين محقة ، قد أكون مريضاً فعلاً . إذن ، أراك فى الخامسة . الإشارة باليد السوداء فى منعطف شارع المحطة . لدىَّ ما يكفى من النقود ، وسنذهب للرقص . . وداعاً يا حبيبتى » .

ـ « وداعاً »

وببطء أنزلت سماعة الهاتف إلى مكانها ، ورأيت صاحبة المنزل تضع قدحاً آخر على المنضدة ، وتقول لى :

ـ « تعالى يا فتاتى ، تناولى شراباً » .

تسنَّى لى أشعر بالجرأة ، أفضيتُ لها بشكواى من أحوال غرفتنا ، لكنها كانت كلما شكوتَ تصدّنى ، تسكب لى شراباً وتترك لحكمة عينيها المتعبتين أن تؤثرا فىَّ ، أكثر من ذلك ، هى تعرف كيف تقنعنى بأن إصلاح الغرفة يكلف أكثر من إيجار ثلاث سنوات لها . إنها هى التى علمتنى شرب الشنابز. أولاً وجدت البراندى موجعاً ، وطلبت الليكور .

قالت : « ليكور ؟ مَنْ على الأرض يشرب ليكور ؟ »

من ذلك الوقت عرفت أنها على حق : فهذا النوع من البراندى جيد .

« هَلُمِّى ، الآن ، أيتها الفتاة ، اشربى » .

جلست قبالتها ، نظرتْ إلىَّ بتحدٍ لسكِّير ، واجتازت نظرتى أنا كل وجهها لتقع على صناديق كارتون ممزقة عليها هذه الكلمات :

« بضاعة . . انظر إلى علامةالصقر التجارية »

قالت : « هذه لك » .

ورفعت قدحى ، قلت :

« أنت أيضاً . . »

وتركتُ البراندى اللاذع يجرى فىَّ ، وفى تلك اللحظة فهمت ، فهمت الرجال السكيّرين ، فهمت فريدًا ، وكل الآخرين الذين يدمنون الشرب .

وهى تملأ قدحاً آخر بسرعة ، فاجأتنى :

ـ « أيتها الطفلة المسكينة ، لا تأتى إلى هذا المكان ثانية لتبثى الشكوى .

فلا علاج للفقر . ابعثى الأولاد إلىَّ هذا اليوم ، يمكنهم أن يلعبوا هنا . هل أنت ذاهبة ؟ » .

قلت : « نعم أنا ذاهبة ، لكنى طلبت من رجل شاب أن يظل مع الأطفال » .

ـ « طول الليل ؟ » .

ـ « نعم ، طول الليل » . ألمٌ واهن تصاعد إلى وجهها ، فاتسع مثل إسفنجة صفراء ، لدقيقة ، والتمَّ مرة أخرى :

« أوه ، فهمت ، خذى لهم إذن بعض الصناديق الفارغة » .

قلت : « شكراً » .

كان زوجها سمسار أملاك ، ترك ثلاث بنايات ومحلَّ تجميل شعر ، ومجموعة صناديق ملأى :

ـ « يمكنك أَخْذُ صندوق آخر » .

ـ « أوه ، لا ، شكرًا » .

ما إن لامست يداها الراعشتان القنينة حتى تشبثت بها ، ثم امتلأت حركاتها برقة أخافتنى ، أعادت ملء قدحى ، قلت :

ـ « أرجوك ، لا أريد مزيدًا » .

قالت : « أذن سأشربه أنا » .

ونظرت إلىَّ بحدة مضيقةً عينيها ، وسألتنى :

«أحبلى أنتِ يا صغيرتى ؟ »

فزعت ، فأنا أحياناً أفكر بأنى حامل فعلاً ، لكنى غير متأكدة حتى الآن . وهززت رأسى .

« مسكينة أيتها الطفلة ، سيكون ذلك مزعجاً لك ، طفل آخر . . » .

قلت بدون تأكد : « لست أدرى » .

« يجب أن تغيرى لون صبغ شفتيك » .

وأعطتنى قلم حمرة آخر ذا لون حاد ، نهضت يتموج جسدها الثقيل داخل رداء ملون ، شقت طريقها بين كرسى وأريكة ومكتبة :

« تَعالى معى » .

تبعتها فى المخزن : رائحة الشعر الذى ألحَّ عليه الكيُّو« السبرى » المعطر يَعْلَقُ فى الجو ثقيلاً مثل سحابة وفى الغرفة مسدلة الستائر ، نصف المضاءة، استطعت أن أرى ماكينات تجعيد الشعر بارزة ، والمجفّفات ، لنيكلها لمعٌ واهن فى الضوء الرصاصى لعصر يوم الأحد .

« نعالى ، أدخلى ! »

وراحت تبحث فى درج مملوء بَلفائف شعرٍ ، تتناثر حواليها أقلام حمرة وعلب تجميل ملونة .

التقطتْ قلمَ حمرة وناولتنى إياه قائلة :

ـ « جرِّبى هذا » .

أدرت الغطاء المعدنى لذلك القلم ، فرأيت الأحمر الغامق ، وفد برز ملتفاً مثل دودة صلبة ، سألتها ·

ـ « الغامق ؟ » .

ـ « نعم هذا الغامق ، هيَّا ضعى بعضاً منه .

المرايا هنا مختلفة تماماً ، تمنعك من رؤية ما فى الخلف ، هى تحمل وجهك إلى أمام تماماً وقريباً من وجه المرآة ، تجعله أكثر جمالاً مما هو عليه ـ فتحتَ شفتىَّ ، انحنيت إلى أمام ، وبعناية أمررت عليهما الأحمر الغامق ، لكن عينىَّ ما اعتادتا مثل هذى المرايا ، كانت عيناى تتسعان ، ونظرنى المحدّقة تحاول الانزلاق عابرة وجهى . لكنى نظرى فى هذه المرآة يغادر سطح المرآة إلى الأبد ، يرتد إلى نفسى ووجهى ، شعرت بدوار ، وارتعشت قليلاً ، إذ أحسست بيد صاحبة المحل على كتفى ورأيت وجهها المخمور وشعرها الأشعث ورائى ، فى المرآة همست لى :

« اجعلى نفسك حلوة لحبيبك ، يا حمامتى الصغيرة ، اجعلى نفسك حلوة له ، لكن لا ندعيه يحبلك ، ذلك هو الشىء الصحيح يا صغيرتى ، أليس كذلك ؟ ، ذلك هو المَنْجى » .

خطوت إلى وراء مبتعدة من المرآة ، وأَدَرْتُ قلم الحمرة لأدخله فى أنبوبته ، وقلت :

ـ « نعم ذلك هو الشىء الصحيح . لكنى لا أملك أية نقود لهذا القلم؟» .

ـ « أوه لا نبالى ، يمكن الانتظار ـ يمكنك الدفع فيما بعد » .

ـ « نعم فيما بعد » .

أجبتها ومازلت أنظر فى المرآة ، أنزلق فيها كما أنزلق فوق جليد ؛ غطيت عينىَّ بيدىَّ ، وأخيرًا خطوت إلى وراء ، وضَعَتْ بعض صناديق الكارتون

الفارغة على ذراعى الممدودة ، وضَعَتْ قلم الحمرة فى جيب صدريتى وفتحت لى الباب .

قلت لها : « شكرًا ، مع السلامة » .

قالت : « مع السلامة » .

لا أفهم كيف يثور فريد بسبب ضجيج الأولاد ؟ إنهم هادئون ، خاصة ، حين أقف بجوار الأريكة أو المنضدة ، أنصت لهم ، أجدهم ساكتين غالباً ، حتى أنهم ألتفت فجأة لأتاكد من أنهم لا يزالون هناك ، هم يبنون دورًا من صناديق الكارتون ، يتهامسون معاً ، وحين التفت يفزعهم الخوف فى عينى ويدفعهم للسؤال :

« ما الأمر يا أمنا ؟ ما الأمر ؟ » .

فأجيبهم : « لا شىء ، لا شىء » .

وأستدير عنهم لأدحرج عجينتى ، أخشى من تركهم وحدهم بعد ذلك ، اعتدت أن أتركهم وحدهم عصرًا فقط ، مع فريد مرة واحدة قبل كل ليل .

الرضيع نائم ، وأريد أن أغادر قبل أن يستقيظ .

فى الغرفة المجاورة أنين مرعب ، المغازلات والضربات المخيفة التى تصحب مضاجعتهم ، هدأت الآن . إنهما نائمان نومة قبل الذهاب إلى السينما ، بدأت أننا يجب أن نشترى مذياعاً ، لأدفع بصوته هذا الأنين الذى يصدر عنها الآن ، صيحات الكلام العالية غير الاعتيادية التى بدأت حال بدأ ذلك الفعل الشنيع ، هى التى ملأتنى بالقرف ـ بالرعب ، بالرعب وحده ـ تلك الأحاديث غير الاعتيادية شقت طريقها إلى الخارج وتلاشت

فيه . أسأل نفسى إنْ كان الأولاد لم يبدأوا بعد فى فهم ما يجرى . على أية حال كانوا يسمعون ذلك ، وملامحم تشبه تلك الحيوانات المرتجفة التى تتحسس الموت . سأحاول ارسالهم إلى الشارع إن أمكن ذلك . لكن أوقات العصر المبكرة فى أيام الأحد مثقلة عادة بالكآبة التى تكسف حتى الأطفال . وجنتاى بدأتا تتقدان حين سماعى ذلك الشؤم وبدأ الصمت الممتد من حولى يتشقق ، حاولت أن أغنى حين سماعى ذلك الشؤم ، وبدآ الصمت الممتد من حولى يتشقق، حاولت آن أغنى حين بدأت الأصوات الأولى ، لكن ابتدأ التعذيب واستمرت الضربات المتقطعة على السرير ، وأصوات المضجع، والصرخات التى تشبه تلك التى يطلقها لاعبو الأكروبات وهم يتأرجحون تحت القبّة الكبيرة ويغيرون أراجيحهم وسط الهواء . لكن صوتى تشقّق ، وبحثت سُدًى عن نغمات بقيت فى رأسى ، فما استعدت واحدةً منها . مرت لحظات ، لحظات لا نهاية لها ، فى الكآبة الرصاصية لما بعد ظهر الأحد . سمعتهما يشعلان سيجارتين ، وامتلأ الصمت الذى أعقب ذلك بالاشمئزاز . ألقيت العجينة التى كانت فى يدى على المنضدة ، دحرجتها إلى وراء وإلى أمام ، مُحْدِثَةً قَدْر ما أستطيع من ضوضاء ، ألقيت العجينة ثانية ورحت أفكر بملايين من أجيال الفقراء الذين عاشوا دون أن يمتلكوا حتى غرفة يتضاجعون فيها ـ ودحرجت العجينة ، طويت حافاتها ، وضغطت الفاكهة فى العجين .

كانت الغرفة مظلمة فى آخر الممر الطويل نظرت إلى النافذة ، وقعت عيناى على حجارة الحائط الداكنة ، حمراء ، مزينة بتصميم بُنِّىٍّ غامق كان فى الأصل أصفر ومن طابق مرصوف بصياغة ـ المفتاح الإغريقى . أنظرُ متجاوزة الحائط الذى يحجب حقل رؤيتى ، فتقع عيناى على رصيفى

المحطة الفارغين الآن . كانت هناك امرأة تجلس على مصطبة وتحمل طفلاً ، والفتاة ـ من الكشك لطيف الشراب ـ وقفت خارج الباب تتململ بمئزرتها البيضاء ، تحركها أعلى وأسفل فخذيها . كانت الكاتدرائية وراء المحطة ، والأعلام مثبّتة عليها . أحسست بالإحباط من مشهد الناس المزدحمين حول المذبح الذى يلى المحطة الخالية أخجلني صمتُ الزحام خارج الكاتدرائية . ثم رأيت راعى الأبرشية فى ردائه الأحمر يقف قرب المذبح ، وفى اللحظة نفسها سمعت صوته ينطلق واضحاً وعالياً من مكبرات الصوت عبر المحطة الخالية .

غالباً ماكنت أسمع راعى الأبرشية ، وتثقل روحى تراتبله ـ أنا لا أعرف ما هو أسوأ من غرفة النوم ، لكن الآن بعد سماع صوت راعى الأبرشية يأتى عبر مكبرات الصوت ، وقعت على الصفة التى كنت أبحث عنها طبل هذا الوقت . لقد عرفت الآن أنها صفة بسيطة ، وأنها كانت على طرف لسانى ودائماً ما تنزلق عنه . إن الراعى يستخدم فى لهجته تلك الظلال التى تجعل صوته شعبيًّا ، وإن لم يكن راعى الأبرشية شعبيًّا . مفردات تراتبله مستمدّة دائماً من قوائم كلمات الافتتاح فى الكتب الدينية ، تلك التى افتقدت حيويتها خلال الأربعين سنة الماضية ، كلمات صارت كليشهات ، أنصاف حقائق . الحقيقة لاتُضجر ، لكنى راعى الأبرشية له القدرة على جعلها مضجرة .

« فليكن السيد ، إلهنا فى حياتنا اليومية ـ نشيد له برجاً فى قلوبنا ... و» .

أصغيت دقائق لهذا الصوت الذى يأتى عبر بالرصيف الخالى ، وأنا أرى فى الوقت نفسه ذلك الشكل ذا الرداء الأحمر يقف هناك إلى جانب مكبر الصوت الذى نتكلم بصوت تتضخم اللهجة فيه لأقصى اختلافها ، وفجأة

جاءتنى الكلمة ، الكلمة التى بقيت طويلاً أبحث عنها ، وهى بسيطة جدًّا، إلى حَدٍّ أنها لا تخطر لى على بال ، تلك هى : إن الرعى كان «غبيًّا» . عاد بصرى إلى ما فوق المحطة ، حيث لا تزال الفتاة تتململ من صدريتها البيضاء والمرأة على المصطبة تطعم رضيعها من القنينة . جالت نظرتى على صياغة المفتاح الإغريقى ذى اللون البنىّ الغامق فوق حجارة الحائط ، واجتازت إطار النافذة الكابية ، عائدة إلى غرفتى . أغلقت بعدها النافذة من فوق السرير وبدأت أدخن .

لم أعد الآن أسمع شيئاً . لا صوت بعد فى المبنى ،جدران غرفتى مغطاة بورق مظلل بالأحمر ، لكن الرسوم الخضر التى تشبه أشكال القلوب قد تلاشت ، فهى الآن تغطى ورق الحائط مثل خربشات بقلم الرصاص ممحوة، وانتظامات غير متوقعة ، والثابتة الخفيفة من أشياء الغرفة بشعة ، مثل كل الثوابت : قدح بشكل بيضة مملوء بتعرقّات رخامية ، فيه مصباح قوة خمسة عشر وَاطًا . وخزانة الملابس الضيقة لَوَّنَها الصَّدَأ . واضح أنها لم تُستعمل ، ولاهى معرضة لذلك . الناس الذين يشغلون هذه الغرفة ليسوا من النوع الذين يفتحون حقائبهم ، إن كانت لهم أية حقائب ، هكذا الأمر. ليس من جاكتات يعلقونها على مشاجب الملابس ، ولا قمصان ترصف بعيدًا ، والمشجبان اللذان أراهما فى الخزانة المفتوحة كانا ضعيفين ، وزنُ سترتى كاف لكسرهما ، فهنا يمكن أن نعلق سترتك على كرسى ،ترمى سروالك عليه دون اهتمام بطيّه ، هذا إذا ما خلعته أصلاً ـ وانظر إلى أدنى : هذه الأنثى شاحبة ، وربما محمرةّ الخدين ، ثيابها مرمية على الكرسى الآخر. الخزانة لا ضرورة لها ، فوجودها رمزى ، مثل المشاجب التى لم يستعملها أحد . المغسلة ليست أكثر من منضدة مطبخ اعتيادية يغطسُ فيها حوض

غسيل ، وإن كان حوض الغسيل هذا لم يغطس . كان مطليًّا ، وفى أماكن منه كسور . صحن الصابون من الصينى الرخيص عليه إعلان عن مصنع إسفنج .

لابد أن قدح فرش الأسنان قد انكسر ، وما استُبْدِل بغيره . ليس من واحد على أية حال . ولابد من أحد قد شعر بضرورة توفير صور للجدران ، وهل أكثر ملائمة من صور مطبوعة للموناليزا ، والتى بدت كما لو كانت يوماً ملحقاً فى مجلة شعبية .

الأَسِرَّةُ جديدة لا تزال تضوع برائحة الخشب الجديد، وهى خفيضة قاتمة اللون . شرشف الفراش القطنى لم يُرِحْنى . نمت طيلة الوقت الذى مَرَّ بكامل ثيابى ، أنتظر زوجتى التى قد تجلب معها شرشفنا الخاص . كانت البطانيات من صوف ، ذات لون أخضر مزرق ، مستهلكة لحد ما ، والرسوم التى عليها ـ وهى دببة تلعب كرة ـ قد تحوّلت بشرًا يلعبون كرة ، لا تُمَيِّزُ بعدُ وجوه الدببة هى تشبه الآن كاريكاتيرًا لرياضيين برقاب ثيران ، تقذف فقاعات صابون إلى وراء وإلى أمام . دَقَّ الجرسُ : الثانية عشرة .

نهضتُ لآتى بصحن الصابونة من المغسلة ، وبدأت أدخّن . بدا مزعجاً أنى لا أستَطيع الكلام عن حالى لأحد ، لا أستطيع شرح الموقف الحقيقى لأحد ، لكنى محتاج للنقود . محتاج للغرفة لأنام مع زوجتى فحسب . نحن نعيش فى مدينة واحدة ، لكننا منذ شهرين نلتقى لقاءات متقطعة فى غرف الفنادق . أحيانا ، حين يكون الجو دافئاً نلتقى فى الحدائق ، فى ممرات البنايات المدمرة ، فى قلب المدينة ، وحيثما نكون آمنين لا يكتشفنا أحد . شقتنا جد صغيرة ، هذا كل ما فى الأمر . إضافة إلى ذلك ، الحائط الذى

يفصلنا عن جيراننا خفيف جدًّا . وشقة أوسع تقتضى مالاً ، تحتاج إلى ما يُعرف بالعزم ، ونحن لا نملك عزماً ولا مالاً.

حتى زوجتى ليست لها طاقة على شيء .

آخر مرة نمنا معاً كانت فى حديقة عامَّة فى الضواحى ، كان ذلك مساء وكانت تصل إلى أنوفنا من الحقول رائحة جزّ الكرّات ، وعلى الأفق تقذف المداخن كتلاً من دخانٍ فى السماء المحمرّة . هبطت الظلمة علينا سريعاً ، وصارت السماء الحمراء قرمزية ، ثم سوداء ولم نعد نرى ضربات الفرشاة الجريئة للمداخن نافثات السواد ـ شذى الكراث صار أقوى ، صار ممتزجاً بحدّة البصل . بعيدًا وراء تجويف رملى ، تتقد أضواء ، وقريباً ، فى الطريق إلينا ، رجل على دراجة : شعاع ضوء يرتعش على طول الطريق كثير المطبّات يقطع الضوء مثلثاً مظلماً فى السماء مفتوحاً من جهته اليسرى . كان هنالك صرير ليراعٍ سائبةٍ .

ضربات واقية الطين تتلاشى بعيدًا بإيقاع يكاد يكون منتظماً. لو بقيت أنظر لرأيت ، بعيدًا فى الممر ، جدارًا أكثر عتمة من ظلمة السماء . ومن وراء الجدار تأتى وقوقات إوز، وصوت امرأة متعب تدعوهن لإطعامهن .

كل ما كنت أراه من كيت على الأرض المعتمة وجهها الأبيض والارتعاش الأزرق الغريب لعينيها حين تفتحهما . كان ذراعاها أبيضين أيضاً وعاريين . بكت بمرارة ، وحين قبلتها ذقت طعم دموعها . شعرت حينها بدوار ، كانت قبة السماء تميد بى قليلاً إلى الأمام وإلى الوراء . وراحت كيت تبكى بمرارة أكثر ، لم أشهدها كذلك من قبل .

نفضنا الأوساخ عن ثيابنا ، وعلى مهل سرنا إلى موقف الرقم (٩) . ومن

بُعْدٍ سمعنا الترام يستدبر على العقدة الكهربائية ، رأينا الشرارات تنطلق من السلك فوقها .

قالت : « بدأَتْ نبرد ؟ » .

قلت : « نعم » .

« أين ستنام الليلة ؟ » .

« فى المجّمعات السكنية » .

وانحدرنا فى زقاق دمرته المعارك يوصلنا إلى الترام .

جلسنا فى حانة . طَلَبَ كُلٌّ مِنَّا شيئاً من البراندى ، وضعنا قطعة نقد فى « مكنة ـ البنبول » ، ولاحظنا كرات صغيرة تتهاوى فى الحوض الخشبى ، ونأخذها واحدة بعد أخرى . إنها تتدحرج حول النوابض الحديدية لترتطم بموصلات معدنية ، فتصدر أزيزاً زجاجيًّا ناعما . كيت وصاحبة الحانة كانتا تراقباننى ، وحين مضيت فى اللعب ، ويدى على شعر كيت ، شبكت صاحبة الحانة ذراعيها وأضاءت وجهها الثقيل ابتسامة ارتياح .

مضيت فى اللعب ، وكيت تتابعنى ، دخل رجل فى الحانة ، انزلق إلى مقعد من مقاعد البار ، وضع محفظته على مقعد وراءه ، وطلب شنابز . كان وجه الرجل ملطَّخاً ، ويداه بُنِّيتين ، والضوء الأزرق فى عينيه بدا أخف مما هو عليه . نظر إلى يدى التى ما زالت على شعر كيت ، ثم إلىَّ ، وطلب كأسَ شنابز آخر . بعد ذلك بقليل وقف إلى جانبى وراح يلعب بالمكنة الأخرى ، والتى بدت بدائية جدًّا تشبه مكنة محاسب : كرة . شق ، سطح معزول بلون محمرٍّ يظهر ثلاثة أعداد كبيرة فى صف احد . وضع الرجل قطعة

نقد ، سحب العتلة ، ارتجّت الكرات فى الأعلى وضجّت ـ ثم ، وفى فترات ـ جاءت ثلاث قرقعات وظهرت الأرقام ٦ , ٤ , ١ على ذلك السطح .

قال الرجل . « لا شىء » .

وأسقط قطعة نقد أخرى ، تسارعت الأقراص ، ضربت ومرت ، ضرَبتْ ضربات أخرى ـ لحظة صمت ، وفجأة جاءت قطع النقود تتصادم خارجة من فوهة المكنة . قال الرجل :

ـ « أربعة » .

وابتسم إلىّ وقال :

ـ « هذا أفضل » .

نظرتُ إلى كيت ، أخذتها ويدى فى شعرها ، فقالت :

ـ « يجب أن أذهب » .

فى الخارج كان الترام يستدير حول المنحنى ، يصرُّ حول عقدة الأسلاك ، فدفعت ثمن كأسى البراندى وأخذت كيت إلى موقف الحافلة . قبلتها ، وقد دخلت ، ووقعت هى يدها على خدى ، ولوّحت لى بيدها حتى لم أعد أراها .

حين عدتُ إلى الحانة كان الرجل ذو الوجه الأسود لا يزال واقفاً إلى جانب العتلة . طلبت براندى وأشعلت سجارة ، ورحت أراقبه . فكرت : بإمكانى تمييز الإيقاع حين تبدأ الأقراص تدور ، شعرت بالقلق حين جاء صوت التوقّف قبل أوانه ، حسب تقديرى ، واستطعت أن أسمع الرجل يربرب :

« لا شيء ـ لا شيء ـ اثنان ـ لاشيء ـ لاشيء » .

لم يكن وجه صاحبة الحانة مبتسماً حتى خرج الرجل من الحانة لا عناً ، فتغيرتْ بعده . وبدأت أسحب العتلة . لا أنسى أبدًا لحظة ضغطت العتلة إلى أسفل لأول مرة ، فدارت الأقراص بسرعة بدت خيالية ـ وكيف كانت ثلاث قرقعات فى فترات مختلفة ، أصغيت بعدها لضجيج تساقط النقود :

لم يخرج شىء ! .

بقيت هناك نصف ساعة تقريباً أشرب شنابز ، وأحرّك العتلة ، أصغى إلى الدوران الجنونى للأقراص والقرقعة اليابسة . وحين غادرت الحانة لم أكن أملك فلساً فى جيبى . فكان علىَّ أن أقطع كل الطريق مشياً إلى شارع «أختر» حيث المجمّعات السكنية ، ثلاثة أرباع الساعة أقطعها الأقدام تقريباً .

منذ ذلك الوقت صرتُ أقصد الحانات التى أجد فيها ذاك النوع من المكنات ، أصغى إلى إيقاع الأقراص الساحر ، أنتظر القرقعات ، وأتلقَّى صدمة كلما توقفت الأقراص ولم يخرج شىء .

إيقاع لقاءاتنا هو الذى لم نكتشفه بعد . المفاجآت تتحكم فى درجته . يمكن أن يحدث لقاؤنا فى المساء ، قبل أن أبدأ البحث عن مكان أقضى فيه الليل ، غالباً ما أذهب إلى بنايتنا وأدعو كيت لتنزل لى ـ أقرع الجرس فى الممر المؤدى إلى الشقّة بحيث لا يعرف الأولاد أنى قريب منهم . الشىء الغريب أنهم بدأوا يحبوننى و يفتقدوننى ، و يتحدثون عنى ، بالرغم من أنى كنت أُصْدَمُ بذلك المظهر الغريب الذى يلوح على وجهى إذا ما ألقيتُ نظرةً على

نفسى فى المرآة : شعر غير حليق ووجه شاحب ، سابح فى العرق . يداى تغطيا أذنى لكى لا أسمع صراخ الولد الذى انهلتُ عليه ضرباً لأنه كان يغنى . .

مرة اكتشفتنى كارلا وكليمنز ، عصر يوم سبت ، وقد كنت أنتظر كيت فى الأسفل ، فى مدخل البناية . فزعتُ لرؤية وجهيهما يتوقدان عند رؤيتى . اندفعا إلىَّ ، تعَّلقَا بى ، تساءلا إنْ كنتُ على مايرام ، وصعدت معهما إلى أعلى . ولكن ما إنْ دخلت غرفتنا حتى تسلّط علىَّ الرعب مرة أخرى ـ رائحة الفقر المفزعة ـ حتى ابتسامة رضيعنا ، الذى بدا يعرفنى ، وسرور زوجتى : ما كان لأى منهما قوة على إزاحة الهياج الكريه الذى تصاعد فىَّ حالما بدأ الأطفال يرقصون ويغنون . غادرتهم قبل أن يفلت منى ما لا أستطيع ردَّه .

لكن غالباً ، ومتى ما كنت جالساً فى البار تلوح أوجههم حلوة بين أقداح البيرة والقنانى التى أمامى ، كما لم تفارقنى حتى الآن صُوَرهم هذا الصباح وهم فى المسيرة . .

قفزت من السرير عند بدء إشارات ترتيلة الختام خارج الكاتدرائية . فتحت النافذة ورأيت الشكل الأحمر لراعى الأبرشية يمشى خلال الجموع .

فى النافذة أدنى منى ، رأيتُ شعرًا أسود لامرأة على ثوبها بعض قشور ، بدا رأسها وكأنه كان نائماً على النافذة . التفتت إلىَّ فجأة ، فكان وجه صاحبة البيت ، فكان الوجه الزيتى النحيف ،نادت :

« إذا أردت أن تأكل فالأفضل أن تعجّل » .

وأنا أنزل السلم ، بدأت مدفعية شركة معاجين الأسنان بإطلاق قذائفها على السَّدِّ مرة أخرى .

نضجت « الكيكة» جيدًا ، وأنا أُخرجها من الفرن فاحت رائحة النضج الحلوة فى الغرفة . كان الأطفال كلهم مبتسمين . أرسلت « كلبمنز » لجلب بعض « الكريم » ملأت أنبوبة منه ، لأُسرَّ الأطفالَ ، ورحت أرسمْ علبها خصلاً ودوائر . الرسوم ارتفعت قليلاً فوق وجه الكيكة الأرجوانى المزرق رأيتهم يلتقطون بقايا الكريم من الإناء ، وكنت مسرورة لرؤية كليمنز وهو يتهيب أن يلتقط . . وحين ظل منه ملء ملقعة أعطاء للرضيع الذى جلس فى مقعدة العالى يبتسم لى وأنا أغسل يدى وأضع على شفتى حمرةً جديدة .

ـ « هل ستبتعدين طويلاً ؟ » .

ـ « نعم حتى صباح الغد » .

ـ « هل سيعود أبونا بسرعة »

ـ « نعم » .

التنورة والقميص معلَّقان على جانب دولاب المطبخ ـ وسمعت الشاب الذى سيرعى الأطفال يصل . هو يستوفى ماركاً واحدًا عن كل ساعة ، ولكن من الرابعة بعد الظهر حتى السابعة فى الصباح ، يعنى خمس عشرة ساعة ، أى خمسة عشرة ماركاً ومفهوم أنه يحصل على وجباته ، وفى المساء حين يبدأ واجباته الحقيقية ، يجد سجائر إلى جانب المذياع ، استعرت المذياع من عائلة هوبفز .

بدا « بلرمان و مولعاً بالأطفال ، وهم على أية حال يحبونه . وكلما تركتهم معه حدثونى عن بعض اللعب التى يلعبها معهم ، والقصص التى يرويها لهم . لقد زكّاه لى القس ، وأعلمتُه بوضوح ، بأسباب تركى الأطفال ، قَطَّب قليلاً بدون ارتباك ، إذ رأى فمى مطليًّا بحمرةالشفاه .

ارتديتُ قميصى ، وشددتُ شعرى ، ودخلت الغرفة .

« بلرمان» أتى بفتاة معه ، فتاة لطيفة شقراء حملت الرضيع فى الحال بين ذراعيها ، تدورّ له « خشّاشة . بأصبعيها ، فصار يتسلى بها . قدّم لى «بلرمان » الفتاة ، لكننى لم ألتقط اسمها . ابتسامتها ، رقّتها اللامتناهية نحو الطفل ، كانا يتسمان بشىء من الاحتراف ، وقد أخبرتنى عيناها أنها تعتبرنى غير صالحة لأكون أمّا .

كان لبلرمان شعر أسود جعد ، وبشرة دهنية شاحبة ، وأنفه داتياً منخفض .

سألتنى الفتاه : « أبمكن أن نخرج مع الأطفال ؟ »

ورأيت عبنى كليمنز الراجيتين وهزة رأس كارلا فرضيت . رحت أبطر داخل الدرج بحثاً عن بعض النقود والشيكولاته ، لكن الفتاة رفضت ذلك . قالت :

« أرجوك ، إن سمحت ، أود أن أدفع أنا ثمن الشيكولاتة و. . » .

« طبعاً . كما تودين » .

وأرجعت النقود إلى الدرج ، وشعرت بالتعاسة أمام هذه الشخصية اللامعه للنسوية اليافعة .

قال بلرمان : « يمكنك أن تثقى بكولى ، فهى مجنونة بالأطفال » .

نظرت إلى كل واحد من أطفالى على التوالى : كليمنز ، كارلا، والرضيع ، وأحسست بعينى امتلأتا بالدموع .

أشار لى كليمنز برأسه وقال :

« الأمر على ما يرام يا أمى ، لاشيء يحدث ، لن نقترب من الماء » .

قلت للفتاة : « أرجوك ، لا تقربوا من الماء » .

قال بلرمان : « طبعاً لا ! » وضحكا معاً .

ساعدنى بلرمان على ارتداء جاكتتى ، التقطت حقيبتى ، قبّلت الأطفال ، وباركتهم . شعرت بعدم أهميتى .

توقفت لحظة وراء الباب ، سمعتهم يضحكون فى الداخل ، وببطء هبطت على السلم .

كانت الساعة الثالثة والنصف ، ولا تزال الشوارع خالية . كان بعض الأطفال يلعبون « الهوب سكوتش» ، تطلعوا إلى أعلى حين سمعوا خطواتى تصل إليهم ، كان كل شيء هادئاً فى الشارع الذى يسكن فيه مئات الناس. هدوء ، إلاَّ من خطواتى . من أقصى الشارع سمعت ضربات بيانو خافتة ، ومن وراء ستارة لا تكاد تتحرك ، رأيت امرأة عجوزاً بوجه شاحب تحمل لقيطاً بديناً بين ذراعيها . ومع أنا نعيش هنا منذ ثمانى سنين ، فلم أشعر بدوار / كما أشعر الآن ، حين أنظر إلى أعلى ، فالجدران الرمادية التى أصلحت رقَعًا رُقعٌ ، تبدو مائلة إلى أمام ومن قسمها العلوى ، ومن شريط السماء الرمادى الضيّق كانْ يأتى إلىَّ جارياً صوت « البيانو» الأصوات حبيسة ، والميلودى تكشف عن أنامل شاحبة لفتاة بحثت ولم تجد . مشيت أسرع ، تعجلت أكثر لأتجاوز نظرات الأطفال التى بدت تحمل تهديدًا .

ماكان على فريد أن يتركنى وحيدة ، ومع أنى أتطلّع لملاقاته ، فقد أحزننى أننى أترك الأطفال لأكون معه . متى ما سألته عن مكان سكنه ، يتخلص من السؤال ، وهذه المجمعات السكنية التى يقول إنه يسكن فيها

طيلة الشهر الماضى ، فيها ناس لا أعرفهم ، وهو لم يعطنى عنوانه نلتقى أحياناً فى المساء ، فى مقهى لقاءً قصيرًا لنصف ساعة ، تُعنى صاحبة البيت خلال ذلك الوقت بالأطفال ، نتعانق على عجل فى موقف الترام ، وحين أصعد إلى الحافلة يظل فريد واقفاً يلوح لى هناك . تمرُّ ليالٍ علىَّ وأنا مطروحة على الأريكة أبكى وكل ما حولى فى صمت . أستمع إلى تنفس الأطفال ، الرضيع يفز غير مرتاح بسبب ظهور أسنان له . كنت أدعو وأصغى إلى صوت الزمن الأجوف فى الخارج يقرقع فى جريانه من حولى كنت فى الثالثة والعشرين حين تزوجنا ـ مرت خمس عشرة سنة على ذلك ، سنوات تدحرجت واختفت بدون أن أنتبه إليها . وكل الذى أريد الآن هو أن أرى وجوه أطفالى ، مدركة أن كل سنة تضاف إلى حياتهم مأخوذة من حياتى .

فى ميدان « توخوف » ركبت حافلةً ورحت أتطلع للشوارع الصامتة ، لم أر إلاَّ بضعة أشخاص واقفين عند كشك السجاتر . نزلت فى شارع «بنكام»، ودخلت فى رواق كنيسة الأحزان السبعة لأسأل عن وقت قداس المساء .

كان الرواق مظلماً ، بحثت فى حقيبتى عن علبة كبريت بين سجائر منفرطة ، وقلم حمرة واحتياجات مغاسل ، حتى وجدت أخيرًا علبة الكبريت ، وأشعلت عودًا . ففزت : فهناك فى الجانب الآخر من منطقة الضوء شخص مّا واقف فى مشكاة مظلمة. شخص لم يتحرك . أردت أن أصيح بشىء يشبه الترحيب أهلاً ، لكن صوتى التمَّ من خوفٍ، وخذلنى خفقُ قلبى . لم يتحرك الشكل ، كان يحمل شيئاً فى يديه ، يبدو فى الظلام مثل عصا رميت عود الثقاب المشتعل وأشعلت آخر . وحتى حين أدركت أنه تمثال ، لم يهدأ خفق قلبى . اقتربت منه خطوة ، وفى الضوء رأيت ملاكاً

حجريًّا خصل شعره تتدلّى ويحمل فى يده زنبقة . انحنيت عليه حتى كان حنكى يلامس صدر التمثال . نظرت طويلاً فى وجه الملاك . طبقه كثيفة من الغبار تغطى وجهه وشعره . وحتى فتحتا العينين العمياوين كانتا مملوءتين بقشور سود . بعناية نفخت عليه ، وأزحت ما تراكم فوقه من غبار مخلّصة ذلك الكائن اللطيف منه . وفجأة رأيت أن تلك الابتسامة مصنوعة من جصٍّ ، وأن تلك الابتسامة الساحرة قد مسحها النفخ مع الغبار . ومع ذلك بقيت أنفخ الغبار عن الخصل الجميلة ، عن صدره ، وعن الرداء المتدلى . وباهتمام زممت شفتىّ ودنوت أكثر أنظف الزنبقة . كان فرحى يزداد بازدياد وضوح الألوان المعفَّرة ومعها الألم الجامد للمعبودات التجارية .

استدرتُ مُتَرَيِّثَةً ، وتقدمت أبعد داخل الرواق لأرى إعلانات الكنيسة .

أشعلت عود ثقابٍ آخر ، لاحت وراء اللوحة حمرة معتمة لمصباح دائم الاشتعال . فزعت وأنا أجلس أمام لوحة الإعلانات السوداء : فقد جاءنى هذه المرة شخص من الخلف . التفت ، وتنفست الصعداء إذ رأيت وجه القس الفلاحى الشاحب ، وقف قبالتى ، بدت عيناه حزينتين . انطفأ عود الثقاب ، وسألنى فى الظلام :

« هل تبحثين عن شىء ؟ »

قلت : « قداس ، أين يُقام القداس فى المساء ؟ » .

قال : « القداس المقدس ، فى الكاتدرائية ، فى الخامسة » .

رأيت شعره ، أشقر مرسلاً ، عيناه شعّتا بكدر ، سمعت الترام فى الخارج يستدير على المنعطف ، سمعت سيارات تتصايح ، وفجأة قلت فى الظلام :

« أريد أن أعترف » .

دُهِشْتُ من نفسى ، لكنى استرحت أيضاً . وقال القس ، كأنه كان ينتظر ذلك :

« تعالى معى »

قلت : « كلا ، هنا من فضلك »

قال بودٍّ : « غير ممكن هنا ، فالموعظة ستبدأ بعد خمس عشرة دقيقة ، وقد يجىء الناس . كرسى الاعتراف فى الداخل . » .

شعرت بنبض فى الظلام . ممر تيّارات باردة ، اقتربت من الملاك الجصى ، المصباح الثالث البعيد واضح فى المشهد أمامى علىَّ أن أخبر القس بكل شىء ، أن أهمس فى أذنه فى الظلام ، وأن أسمع الغفران همساً ، ولكن بدلاً من ذلك تبعته طائعة فى الفناء . الحماسة التى اتقدت فىَّ لحظةً ، تسربّت ونحن سائران بين قطع الجص المتساقطة من المبنى ، جص وكِسَرٌ من حجارة رملية تتساقط من حائط الكنيسة باتجاه البيت الرمادى الصغير الذى يقع ملاصقاً لحائط موقف الترام ، حيث صوت طَرْق المعادن يخترق سكون عصر يوم الأحد .

حين فتحت الباب ، تطلعت فى وجه مدبرة المنزل المندهش الفظ ، والتى نظرتْ إلىَّ بارتياب .

كانت القاعة مظلمة ، وقال لى القس :

« انتظرى لحظة من فضلك . »

لا أستطيع أن أرى شيئاً حول الزاوية ، لا من هذا المكان ولا من ذاك .

وصلت طقطقة الصحون ، فجأة ميّزت الرائحة الكريهة المُمْرضة تَثْقلُ فى القاعة ، واضح أنها استقرت فى الخيش الرطب الذى يغلف الجدار . بخار اللفت الدافئ فاح من الزاوية التى لابد من وقع المطبخ وراءها . أخيرًا جاء الضوء من بابٍ للقاعة ، وتمكنت من تمييز ظل القس فى الشعاع الباهت .

ناداني : « إلى هنا »

وصلت غير متيقنة . بدت الغرفة مرعبة : وراء ستارة حمراء فى الزاوية ، يبدو سرير ، أستطيع القول أنى استطعتُ أن أشمّه . رفوف كتب مختلفة الأحجام ، بعضها محنيٌّ . وهى مُسْنَدَة إلى الحائط . بالقرب منها وحول منضدة كبيرة مجموعة من كراسى قديمة ثمينة ، كلها مغلّفة مقاعدها بالقطيفة السوداء . فوق المنضدة كتب ، عُلَبُ تبغٍ ، سجائر ، أوراق ، كيس خرز ومجموعة من صحف . وقف القس وراء المنضدة ، دعانى إلى الأمام وهو يدفع نحوى كرسيًّا مُسَمَّرَة على ذراعٍ منه ستارة مشبكة من حديد ، عند زوايا المنضدة .

أحببت وجهَهُ ، فأنا أراه كله فى الضوء .

قال : « يجب أن أعتذر » .

نظر إلى الباب وأشار برأسه .

« نحن ناس قرويون ، ولا أستطيع إقناعها بألاّ تخلِّلَ رءوس اللفت . إنها أكثر كلفة من شرائها مطبوخة جاهزة . لو حسبت الوقود والأوساخ والرائحة والعمل ، لكنى لا أستطيع أن أُريها كل ذلك ، اجلسى » .

دفع الكرسى وستارته الحديد قريباً من المنضدة ، جلس عليه ودعانى . سرت حول المنضدة وجلست إلى جانبه ، أقابله من خلال الستارة .

وضع القس شالاً على كتفيه ، ثنى ذراعيه على المنضدة ، وبدت الطريقة التى يخفى فيها صورة وجهه بيده المثنية مدروسة واحترافية .

كانت بعض المربّعات فى الشبكة الحديد مكسورة ، وحين بدأت أهمس : « باسم الرب ، الابن والروح القدس . . . » نظر إلى ساعته ، فوق رسغه ، تابعت نظرته ، كانت الرابعة وثلاث دقائق - بدأت الكلام ، همست بكل مخاوفى ، بكل ألمى ، كل حياتى ، فى أذنه ، بحت بخوفى من الرغبات ، خوفى من تلقى العشاء الربانى ، وباضطراب زواجنا . أخبرته بأن زوجى تركنى ، وأنى ألتقى به بين وقت وآخر فقط كى أنام معه - وحين ترددت بضع ثوانٍ ألقى نظرة على ساعته ، وكل مرة أتابع فيها نظرته أرى كم بطيئاً يتحرك عقرب الساعة . رفع بصره ، رأيت عينيه ، نقط النيكوتين الصفر على أصابعه ؛ ثم خفض عينيه ثانية ، وقال :

« استمرّى »

قالها برقّة آلمتنى ، كان ألماً يشبه ما تحدثه يد متمرّسة تخرج الصديد من الجرح .

ومضيت أهمس فى أذنه ، أخبرته بكل شىء عن الزمن الذى سبق السنتين الأخيرتين ، حين كنا نشرب معاً ، فريد وأنا - عن موت طفلىّ ، عن أطفالى الأحياء ، عما نضطر لسماعة من غرفة عائلة هوبفز المجاورة لغرفتنا ، وعمّا يسمعه آل هوبفز منا . وترددت مرة أخرى . كانت الساعة الرابعة وست دقائق . رفع أجفانه مرة أخرى ، قائلاً بلطف :

« استمرى »

وأهمس له أسرع من قبل ، أخبرته عن كراهتى للقسس الذين يعيشون فى

دور كبيرة ولهم وجوه مثل تلك التى فى إعلانات كريم الوجوه، عن السيدة فرانك ، عن خوائنا ووساختنا ، وأخيرًا أخبرته بأنى قد أكون حاملاً مرة أخرى . وحين توقفت هذه المرة ، لم ينظر إلى ساعته ، رفع جفنيه لنصف ثانية أطول من قبل .

وسألنى : « هل ذلك كل شىء ؟ » .

وقلت له : « نعم » .

ونظر إلى ساعته ، التى كانت أمام عينى تماماً بعد أن أبعد يديه من جهه وشبكهما على حافة المنضدة : إنها الساعة الرابعة وإحدى عشرة دقيقة ، ونظرت بدون قصد فى أعماق كُمِّه السائب ، فرأيت من كم قميصه المطوى ذراعه الفلاحى الذكورى المشعر ، وفكرت لماذا لا يحلّ أكمامه ؟

تحسرّ ، وضع يديه فوق وجهه مرة أخرى وهمهم :

ـ « هل تصلين ؟ »

فأجبته : « نعم »

أخبرته أنى أحياناً أنام الليل كله على أريكتى الرثّة ، أقرأ الأدعية التى أتذكرها ، وأنى غالبًا ما أوقد شمعة ـ بدون أن أوقظ الأطفال ، وأقرأ من كتاب الصلاة تلك الأدعية التى لا أحفظها عن ظهر قلب .

لم يسأل أسئلة أخرى ، كنت صامتة أنا أيضاً ، ونظر إلى الساعة على رسغه : إنها الرابعة وأربع عشرة دقيقة ، وكنت أسمع فى الخارج الطَرْقَ فى موقف الترام وغناء مدبرة المنزل : ترا لا لا ... فى المطبخ وطرقعة القطار فى المحطة .

أخيرًا رفع يديه عن وجهه ، شبكهما فوق ركبتيه ، وقال بدون أن ينظر إلىَّ :

« تنالُك فى هذا العالم محنة : تقبَّليها برضاً طيّب ، فأنا تغلبتُ على العالم هل أدركت ما يعنيه هذا القول ؟ »

وبدون أن ينتظر منى جواباً ، أكمل :

« أدخلك فى الباب الضيّقة : فباب التهلكة واسعة وطريقها رحيب :

والكثيرون هم الذين يدخلونها ، وضيقة هى الباب : عسيرة تلك التى تؤدى إلى الحياة ، وقليلون أولئك الذين يجدونها »

صمت مرة أخرى ، وضع يديه فوق وجهه ثانية : وهمهم بين أصابعه :

« ضيقةٌ ـ أضيق طريق نعرفها هى التى على حافة السكين ، ويبدو لى أنك تسيرين عليها ... » .

وفجأة رفع يديه ، ونظر إلىَّ خلال فتحة الستارة الحديد لحظة ، وفزعت من القسوة النى لاحت فى عينيه ، عينيه اللنين كانتا من فبل جد حنونتين :

« آمرك ، آمرك أن تسمعى القداس المقدس من قسيسك الذى نكرهينه كثيرًا جدًّا ، أن تتلقى العشاء الربانى من بديه ، حين ... » .

وهنا نظر إلىّ مرة أخرى وأكمل :

« حين تنتهين من تلقى الغفران . » .

صمت أيضاً ، بدا يفكر ، فى حين كنت أنا أحاول فى ذهنى أن أردِّدَ الصلوات ، كل الحسرات التى أعرفها ، كنت أسمع هسيس مشاعل

اللحام فى الخارج ، فى موقف الترامات ، وفجأة بدأ قرع أجراس كنيسته : إنها الرابعة وخمس عشرة دقيقة .

قال فجأةً :

« لا أدرى إن كنت أستطيع منحكِ الغفران ، يجب أن تنتظرى . باسم الرب ... » .

وفقدت عيناه قسوتهما .

« كيف تستطيعين حمل هذا القدر من الكراهية ؟ »

أبدى إشارة يأس ، والتفت إلىَّ :

« أستطيع أن أباركك ـ ولكن عليك أن تعذريننى ، فأنا أريد أن أعطى الأمر مزيدًا من التفكير ، ربما أناقشه مع أخ ، مع قسٍّ آخر . هل يمكن العودة هذا المساء ـ آه ، لا ـ أنت ستقابلين زوجك . يجب أن تأملى بعودة زوجك لك . » .

خيّبنى جدًّا عدم غفرانه لى .

قلت له : « أرجوك امنحى الغفران » .

ابتسم ثم رفع يده قليلاً ، وقال : « أتمنى أن أقدر على ذلك ، فأنت تتوقين للغفران كثيرًا ، لكن لى فى الحقيقة شكوكاً . ألا تشعرين الآن بمزيدٍ من الكراهية ؟ »

قلت متعجلة : كَلاَّ كَلاَّ ، إنه فقط أحزننى » .

بدا متردِّدًا ، ولم أعرف ما أفعله ، ربما إنْ ألححتُ عليه استجاب . لكنى أردت أن أنال غفراناً حقيقيًّا ، لا بإقناعٍ منى .

قال لى وابتسم ثانية :

« بشرطٍ ، يمكن أ غفر لكِ بشرطٍ ـ لدىَّ شكوك ـ ولكن بشرطٍ ، إن أنا امتلكتُ الحق فعلاً ، ربما . . » .

لوّح بيديه أمام وجهى نافد الصبر : »

« بكراهيتك أنتِ تحكمين ـ ولكن نحن يجب ألاَّ نحكم ، يجب ألاَّ نكره، كلا » .

وهز رأسه بحزم ، ثم أمسك وجهه بكفيه المجوفين على حافة المنضدة ، صلّى ، ونهض فجأة ، وغفر لى . رسمت علامة الصليب ، ونهضت . وفق إلى جانب المنضَدة ، عيناه مسلّطتان علىَّ ، وفجأة شعرت بالأسى عليه ، حتى قبل أن يتكلم . . :

« أستطيع فقط »

ومسح الكلمات بإشارة :

« هل تعتقدين أننى لا أشعر بها ـ بهذه الكراهية ـ أنا القس ؟ أنا أشعر بها هنا » . ضرب غفّارته السوداء ، على موضع القلب تماماً ، هذه الكراهية للمتفوقين علىَّ أحياناً ، هنا » .

وأشار إلى النافذة ، فى قداسات الكنيسة التى أقوم بها تحت إشراف قُسس زائرين ، يأتون من الجوار ، قرب الفنادق ، رجال مُلَمَّعو المظاهر فى طريقهم إلى مؤتمر ، يأتون من مؤتمر ، يدمدمون عن القذارة ، عن قلة التشديد على القداسات ، قداسات العشر دقائق ، قداسات الثلاث عشرة دقيقة ، العشرين ، والمعدل قداسات الخمس والعشرين دقيقة التى تُقام هنا ، خمس مرات ، و عشر مرات ، وغالباً خمس عشرة مرة فى اليوم .

لا فكرة لديك عن عدد القسس الذين يسافرون من حولنا ، إنهم يعودون من المراكز الصحية ، وهم فى طريقهم من هناك ، ومن مؤتمرات ومنتجعات، هنالك الكثير منها . خمسة عشرة قداساً تقام بأقل من خمسة عابدين يشاركون فى كل هذا العدد من القداسات فى هذا المكان ، حيث كل الأشرطة المسجلة تالفة ، حيث يتراوح أخلاط القادمين منهم بين خمسة عشر إلى خمس ، لكِ بعد هذا أن تُقدّرى لهذا أنا أكرههم ،هؤلاء القسس المساكين الذين يخلفون عطور حمامات الفنادق الباذخة وراءهم هنا ، فى غرفة ملابسى المهملة .

استدار من النافذة ليواجهنى مرةً أخرى ، سلّمنى دفتراً وقلماً من المنضدة، كتبت عنوانى وعدّلت قبّعتى . كانت هنالك عدّة ضربات عالية على الباب . صاح :

« أعرف ، أعرف . الموعظة . إنى آتٍ ! »

صافحنى ونحن نفترق ، نظر إلىّ متحسرًا ، وصحبنى إلى الباب .

سرت متّئِدةً اجتاز رواق الكنيسة باتجاه المجاز السفلى ـ امرأتان ورجل يتجهون إلى الموعظة فى الكنيسة ، ومن الكنيسة ، عبر الشارع عُلِّقَتْ لافتة تقول حروفها الحمر :

أين تكون دون دوائىٍّ يهتم بك ؟

عاليةً فى المساء انزلقت سحابة سوداء ، اجتازت الشمس وكشفت حافتها الأخيرة عن قرصها ، فالشمس الآن كلها معلقة . واصلت سيرى . مرّ بى صبى صغير يحمل فى يده كتاباً للصلاة ، بعده خلا الشارع . كان

على الجانبين خطا من الأكواخ وبيوتْ من حجارة ، وكنت أسمع خلف الواجهات المحروفة ضجيجاً يصل إلىّ من موقف الحافلة .

أوقفنى الشَّذَى الدافىء المفاجىء للخبز الذى نضج ، نظرت إلى اليمين خلال باب مفتوح لكوخ خشبى تتصاعد متخلّصة منه لفائف بخار أبيض : كان هنالك طفلٌ يجلس على عتبة دار فى الشمس ينظر شزّرا إلى السماء ، وعلى وجهه تعبير البلاهة الهادىء ، أجفانه محمرة ، وعيناه تبدوان مرتحلتين فى الشمس ، شعرت بغصة من تعاطفى وحنوى عليه .

كان الطفل يحمل فى يده كعكة محلاة ، وفمه ملطخ كله بالسكر ، وحين يعضها تنبثق مربى الكعكة وتسيل على بلوزته فى الداخل فتاة صغيرة محنيّة على قدر ، كان لها وجه لطيف ، وبشرة رقيقة . ومع أن شعرها مُغَطّى بشالٍ فإنها شقراء حتماً . كانت تُخرِجُ كعكاتها من الزيت المغلى وتضعها فوق المشواة . فجأة نظرت إلى أعلى ، التقت عيوننا وابتسمت بوجهى . كان لابتسامتها تأثير السحر فىّ ، رددت لها الابتسام ، وبقينا كذلك بضع ثوان ، دونما حركة ، وإذ لم يكن سواها . فقد رأيت نفسى أنظر إليها من مسافة قصوى ، رأيتنا ، نحن الاثنين ، نقف هناك ، تبتسم واحدتنا للأخرى مثل أختين . وخفضتُ بصرى إذ تذكرت أنى لا أملك نقودًا فأشترى واحدة من كعكاتها المقليات بالدهن ، والتى أثارت رائحتها معدتى . نظرت إلى أدنى ، إلى قسمَىْ رأس الأبله وتمنيت لو أن معى نقودًا . لا يمكن أبدًا أن تظل معى نقود بعد أن التقى بفريد ، فهو لا يستطيع مقاومة رؤية النقود ، وغالباً ما يقنعنى بصرفها على الشراب . واجهنى مشهد عنق الأبله الغليظ ، فُتات السكر المتناثر على وجهه وتصاعدً فىّ مثل حُمرة الخجل وأنا أتأمّل شفتيه المنفرجتين .

حين رفعت عينى مرة أخرى كانت الفتاة قد دفعت الجفنة جانباً ، وكانت قد بدأت بحل ربطة شعرها ، نفضتها ، وتلامع شعرها فى ضوءالشمس : ومرة أخرى لم أرها فحسب ، ولكن أيضاً رأيت نفسى من مكانٍ عالٍ : الشارع مملوء بالأنقاض ، رواق الكنيسة ، اللافتة ، وأنا وواقفة فى مدخل هذا الكوخ : ناشفة وحزينة ، لكن مبتسمة .

مشيت متأنية ، مررت بالأبله فى الكوخ . فى الزاوية طفلان يجلسان إلى مائدة ، وإلى جانب الأريكة عجوز غير حليق ، يقرأ صحيفة . أنزل الصحيفة ونظر إلىَّ .

الفتاة الواقفة بجوار مكنة القهوة نظرت إلى المرآة ورتَّبَتْ شعرها ؛ رأيتها صغيرة جدًّا ، بيضاء ، لها يدا طفلة ، ولآن أراها فى المرآة و إلى جوارها وَجْهُ فتى ينظر إلىَّ ، ينظر إلى فمى النحيل المزموم قليلاً ، بطلائه الرفيع ، القرمزى الممسوح . والابتسامة على وجهى وإنْ صدرت عنى ، لكنها ارتسمت خلافاً لإرادتى ، فبدت ابتسامة كاذبة ، والآن ، فجأة لاح رأسان يتبادلان المكان ، أخذتْ رأسى ، وأخذتُ رأسها ، ورأيتنى فتاةً صغيرةً تقف أمام المرآة ، أُرتِّبُ شعرى ، رأيتنى ، تلك الطفلة ، يافعةً متفتحة فى الليل لرجل تحبه ؛ والذى سيضخُ الحياة والموت فيها ، تاركاً على وجهها آثار ما يُسمّى بـ الحب ، حتى يصير وجهها يشبه وجهى الآن : هزيلاً ممصوصاً من مرارة الحياة .

لكنها الآن تستدير ، تخفى وجهى فى المرآة ، وخطوتُ إلى اليمين مستسلمةً لسحرها .

قلت : « مساء الخير » .

قالت : « مساء الخير ، هل تريدين كعكاتٍ ؟ » .

قلت : « كلا ، شكرًا » .

ـ « لِمَ لا ، أليست طيّبة رائحتُها ؟ » .

ـ « هى كذلك » .

قلت واضطربت أمام فكرة الرجل المجهول الذى سوف تمنحه نفسها ، «نعم رائحتها حقيقةً طيبة ، لكنى لم أجلب نقودى » .

عند كلمةً « نقود » نهض الرجل الذى بجوار الأريكة ، جاء إلَّى من وراء المنضدة ووقف إلى جانب الفتاة ، وقال :

« نقود ؟ ولكنك يمكن أن تدفعى فيما بعد . أنت ترين كعكاتٍ ، ألا تريدين ؟ » .

قلت : « نعم » .

قالت الفتاة : « أوه ، اجلسى » .

رجعت خطوات إلى وراء وجلست إلى جانب الأطفال ، نادت الفتاة :

ـ « قهوة أيضاً ؟ .

ـ « نعم ، من فضلك . »

وضع الرجل ثلاث كعكات على صحنى وجلبها إلىَّ .

انتظر إلى جوارى قلت :

« شكرًا ، ولكنك لا تعرفنى ؟ »

ابتسم إلىّ ، أنزل يديه من وراء ظهره ووضعهما بهدوء فوق بطنه ، وهمهم :

« أوه ، لا تهتمى » .

أشرت برأسى إلى الأبله الذى يجلس على العتبة :

« ابنك؟ »

قال بصوت خفيض : « هو ابنى ، وتلك ابنتى » .

نظر إلى الفتاة وراء المنضدة ، التى كانت تحرك عتلة مكنة القهوة .

قال الرجل العجوز : « ولدى لا يفهم ، لا يفهم لغة البشر ، ولا لغة الحيوان ، لا يستطيع لفظ كلمة واحدة غير دزو ـ دزا ـ ززاى ـ ونحن » .

وهنا انبسط لسانه الذى كان يجهد لتشكيل تلك الأصوات ، فى فمه مرة أخرى .

« ونحن نقلده ، بضعف ، بخشونة ، نحن نلفظ تزو ـ تزا ـ تزاى . نحن غير أكفاء » .

قال ذلك بخفوت ثم رفع صوته قليلاً منادياً :

« برنارد » .

فأدار الأبله رأسه ببلادة ، ثم تركه يهطل إلى أمام مرة ثانية مثل بندول ، ونهض العجوز ، أخذ الولد برفق من يده وقاده إلى المنضدة جلس بجانبى على الكرسى ، رفع الولد إلى حضنه ، وسألنى برقّة «أم أنه خيّبك ، قولى ذلكِ . »

قلت : « كلا لم يخيّبنى » .

وأتت ابنته بالقهوة ، وضعت الكوب أمامى ، وجلست إلى جانب أبيها : « يجب أن تقولى إن هو ضايقك ، لا نهتم ، أكثر الناس يشعرون بالقرف منه » .

كان الطفل بديناً . ملطَّخاً كله ، نظرته فارغة ، يرطن بأصواته : دزو ـ دزا ـ دزاى . نظرت إليه مليًّا ، رفعتُ رأسى ثانية ، وقت :

« كلا هو لم يقرفنى ـ هو كالطفل » .

رفعت كوب القهوة إلى شفتى ، رشفتُ بعضاً منه قضمت الكعكة المقليّة المحلاة ، وقلت :

« يا عزيزتى قهوتك جيدة ! »

« حقاً ؟ » ردت على الفتاة باندهاش . « قال لى رجل هذا صباح اليوم ـ لا أحد عده مثلها » .

« إنها جيدة فعلاً » .

قلتُ ذلك وشربت أكثر ، وأخذت قَضمْةً أخرى من الكعكة . مالت الفتاة على ظهرى كرسى والدها ، نظرت إلىّ ، ثم ورائى ، وقالت :

« أحاول أحياناً أن أتصور كيف يجرّب الأشياء ، كيف يعيش ـ هو عادةً مسالم جدًّا ، سعيد جدًّا ـ ربما بالنسبة له ، الهواء ماء ، ماء أخضر ، لأنه يجد من الصعب الخوض فيه ـ ماء أخضر يتحول بعض الأحيان إلى بنى ، مُوشىً بأشرطة سود ، مثل شىء قديم . يصرخ أحياناً ، إذا ما كانت حوله ضوضاء معينة ، أو سمع صرير الحافلات أو صافرات المرسلات الحادة . هذا مزعج » ويصرخ إن داهمه مثل ذلك .

قلت : « أوه ، هو يصرخ ؟ » .

قالت : « نعم » .

وردَّتْ نظرتَها إلىَّ متطلعة فىَّ دون ابتسام .

« هو يصرخ غالباً ، وتنهمر دموعه على بقايا الطعام حول فمه . والشىء الوحيد الذى يحب أكله هو الطعام الحلو والحليب والخبز - أى شىء ليس حلوًّا ، غير الحليب والخبز - يتقيؤه ثانية . أوه ، أنا آسفة . لقد قرفت ... » .

قلت : « كلا ، أخبرينى عنه . »

نظرتْ ورائى مرة أخرى ، وضعت يدها فوق رأس الأبله . وكما تزعجه تلك الأصوات ، يتعذر عليه تحريك وجهه أو جسمه ضد تيار الهواء . لعل أذنه مملوءة دائماً بإيقاعات لطيفة لأورغنات ، أو بسياقات موسيقية هو وحده يسمعها - لعله يسمع عاصفة تسفّ أوراق شجرٍ خفىٌّ - أوتار كمان ، أوتار غليظة مثل أذرع تضج - أو أنَّ أزيزًا بعيدًا يدعوه ، أزيز مدمّر .

أصغى العجوز إلى سحرها ، وهو يحتضن بيديه جسم الأبله تاركاً المربى والسكر يتساقطان على أكمامه . شربت مزيدًا من الهوة ، نلت قَضْمةً من الكعكة الثانية وسألت الفتاة بصوت خفيض :

- « كيف تعرفين ؟ » .

نظرت إلىَّ وابتسمت قائلة :

- « أنا لا أعرف أى شىء - لكن ، لعل فيه شيئاً لا نعرفه نحن ، أحول أن أتخيله - فهو أحياناً يصرخ فجأة ويأتى راكضاً إلىَّ ، فأترك دموعه تهمى على صدريتى - يحدث هذا تماماً - ولمدة نصف ثانية فقط - تخترقه مثل طعنة

رعب حركة الناس ، فى الطريقة التى نراهم فيها ، السيارة ، القطارات ، كل أنواع الضوضاء . بعدها يستمر فى الصراخ وقتاً طويلاً » .

نهض الأطفال الجالسون فى الركن ، دفعوا صحونهم ، ساروا بمحاذاتنا ، عندها صاحت فتاة صغيرة وقحة ترتدى قبعة خضراء :

« يقول والدى سجّله على الحساب . »

« نعم ، وهو كذلك . » أجاب العجوز وابتسم وراءهم .

سألت بلطف :

« هذه زوجتك ، وهل أمه ميتة ؟ » .

قال الرجل :

« نعم إنها ميتة ـ نثرتها قنبلة أشلاءً فى الشارع ، قذفت الرضيع من ذراعها ، سقط على حزمة قشٍّ وعُثِرَ عليه يصرخ . »

سألت الفتاة :

«هل كان أعنى من الولادة . . ؟ »

قالت الفتاة

« من الولادة ، كان دائماً كذلك كل شىء يمر به بَليل لا صوت له إلاَّ أصواتنا ، فهى وحدها التى يسمع : أورغنات الكنيسة ، صرير الترامات وتراتيل الرهبان . لكن لماذا لا تأكلين ـ أوه قرفتِ . »

التقطت الكعكة ، هززت رأسى ، وسألت :

ـ تقولين إنه يستطيع سماع الرهبان ؟ »

فقالت برقّة وعيناها عليَّ :

« نعم لابد من أنه قادر على سماعهم حين يقدمون تراتيلهم هنا ـ فوجهه يتغير ـ فى كل وقت لى صدمة ـ وجهه يضيق ، يبدو قاسياً وهو يصغى ، أعرف أنه يسمعهم ، هو يصغى ، يصير مختلفاً تماماً . هو يسمع ألحان الصلوات ويصرخ حين يتوقف الرهبان . مندهشة أنت ! » .

قالت لى ذلك وابتسمت : « استمرى فى أكلك ! » .

رفعت الكعكة مرة أخرى ، أخذت قَضْمَةً ملء فمى ، أحسست بالمربى تذوب فى فمى ، قلت

« لابد من أنك تمضين به كثيًرا إلى ميدان بلدونر » .

قالت : « أوه ، نعم ، غالباً ما أصطحبه إلى هناك ، وإن كانت الصدمة دائماً تنتظرنى منه ، . هل تريدين مزيدًا من القهوة ؟ » .

قلت : « كلا ، شكرًا ، يجب أن أمضى » .

نظرت إليها مترددة وللأبله ، ثم قلت :

ـ « أود أن أراه يوماً » .

سألتنى : « فى الكنيسة ؟ مع الرهبان؟ » .

قلت : «نعم » .

ـ « أوه ، لِمَ لا تمرّين بنا دائماً ، كم مؤسف أن تتركينا ـ ستعودين ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « سأعود ، ينبغى علىَّ أن أدفع ما أنا مَدِينة به » .

« لا ، ليس من أجل هذا أرجوك ، عودى إلينا » .

وهزّ العجوز رأسه مؤيدًا كلماتها .

أكملت قهوتى ، نهضت ونفضت الفُتاتَ قلت :

ـ « سأعود . لطيف هذا المكان » .

فسألت الفتاة : « اليوم ؟ »

« ليس اليوم ، ولكن قريباً ، لعل صباح الغد ـ وفى الأكثر سأذهب معك لأستمع إلى الرهبان » .

قالت : «نعم » .

ومدّت لى يدها ، أخذتها بيدى لحظة ، تلك اليد الرقيقة البيضاء النحيلة جدًّا ، تطلعت فى وجهها الفتىّ ، ابتسمتُ وأشرت برأسى للعجوز ، قلت بمحبة للأبله الذى كان يفتّتُ كعكة بين أصابعه :

« برنارد » .

لكنه لم يسمعنى ، حتى لم يبدُ أنه يرانى ، فقد أطبق أجفانه تماماً ، تلك الأجفان المحمرة ملتهبة الأطراف .

استدرت مغادرةً المكان وسرت باتجاه الممر السفلىّ الذى يؤدى إلى شارع المحطة .

حين نزلت السلّم ، كانت الصحون قد رفِعَتْ عن الموائد ، وكانت لا تزال هناك رائحة اللحم البارد والسَلَطة حلوى البودنج . جلست فى زاوية ورحت أراقب شابين يلعبان فى مكنات التسلية ، وأسمع ذلك الأزيز الذى تطلقه كرات النيكل فى ارتطاماتها الجانبية . أثارتنى دوامة الأقراص فى شق المكنة ووقفاتها المتقطعة . مسح النادل الموائد بمنديله ، السيدة ، صاحبة المحل رفعت بطاقة صفراء كبيرة مكتوب عليها :

رقص هذه الليلة . الدخول مجاناً .

إلى المائدة التى تجاورنى ، جلس رجل عجوز فى سترة « لودن » وقبّعة من لباد خضراء ، وغليونه يدخّن فى المنفضة . احتفظ الرجل بقبعته على رأسه وهو يخلط اللحم الغنى بالفلفل .

سألنى النادل : « ماذا تحب ؟ »

صعدت نظرى عليه إلى وجهه الأليف :

« ما عندكم ؟ »

قال : « لحم ، شرائح لحم ، بطاطا ، سلطة ، سجق وشوربة تبدأ بها إن شئت » .

« سأتناول لحمًا ، وأبدأ بـ شوربة وشنابز »

قال النادل : « كما تحب يا سيدى . »

كان الطعام ساخناً وشهيًا ، وأدركت أنى ضائع ، طلبت شيئاً من الخبز وغمست الخبز بالصلصة . طلبت شنابز آخر . لا يزال الشابان هناك . شعر أحدهما قافّ من مفرقه .

دفعت ، انتظرت دقائق أخرى ، لكن المكنة لا تزال مشغولة . نظرت عن قرب إلى وجه النادل ثانية : ذلك الوجه الشاحب ، ذلك الشعر الخفيف الأبيض تقريباً : الشعر ـ حتماً رأيتهما فى مكان ما .

حين طلبت عند المنضدة سجائر ، نظرت إلىّ صاحبة المحل وسألتنى :

ـ « هل ستقضى الليلة هنا ؟» .

قلت : « نعم » .

« هل تتفضل بالدفع مقدماً ، إنه فقط ـ وعبسَتْ ـ إنا بهذه الطريقة نشعر باطمئنان أكثر ، فقربنا الشديد من المحطة ، لا نعرف اللغة . . »

قلت : « حسناً » . وأخرجت نقودى .

قالت « ثمانية ماركات من فضلك ، وبللّتْ قلمها لتكتب لى إيصالاً.

« هل تتوقع أحدًا ؟ » سألتنى وهى تناولنى الورقة .

ـ « نعم ، زوجتى » .

ـ « هذا حسن » .

قالت لى وسلمتنى السجائر ، وتركت لها ماركاً وغادرت إلى أعلى .

اضطجعت على الفراش وقتاً طويلاً ، أفكر وأدخّن ، دونما شىء يدور حوله تفكيرى ، حتى تذكرت بأننى كنت أريد تحديد : أين رأيت وجه النادل ، أنا لا أنسى وجهاً ، كل الوجوه تتبعنى ، وأعرفها حالما تقابلنى . إنها تتسكع هناك فى اللاوعى ، بخاصة أولئك الذين رأيتهم مرة واحدة ، وباختصار شديد ، هى تسبح فى ذهنى مثل سمك رمادى غير واضح يتسلل بين الأعشاب فى بركة موحلة . أحياناً تخرج وجوهها إلى أعلى السطح، لكنها تخرج كاملة حين أراها مرة أخرى . دونما هوادة أحاول الاصطياد من ذلك السرب فى البحيرة ، سحبت الخيط ، فكان هو ، النادل: الجندى الذى نام جوارى دقيقةً فى مستشفى الميدان ، تذكرت أنى رأيت القمل يزحف من الضمادات حول رأسه ، لقد انغمست فى الدم المتخثر والطازج ؛ قمل يزحف مكشوفاً فوق رقبته ، فى الصديد وكان شعر أبيض تقريباً فوق وجه ذلك الإنسان فاقد الوعى ، ومخلوقات جريئة تتسلق أذنيه ، تنزلق ، تهبط على كتفيه ، وتختفى ثانية فى الياقة . . وجه ضيّق

يتعذّب رأيته على مسافة ألفى ميل من هذا المكان ـ ذلك هو الشخص الذى يقدم لى الآن .

فرحت إذ عرفت مكان النادل الأولى ، انقلبت على جنبى ، أخرجت نقودى من جيبى وعددتها فوق الوسادة . لا يزال عندى ثمانون ماركاً وثمانى فينيكات .

بعدها نزلت ثانية إلى البار . كان الشابان لا يزالا واقفين عند المكنات . يبدو جيب أحدهما مليئاً بقطع النقود ، لقد هطل ثقيلاً ، ويده اليمنى تتلمس طريقها خلال النقود . الشخص الأخر الذى تبقّى هو الرجل ذو قبعة اللباد الخضراء ، بقى يشرب بيرة ويقرأ الجريدة . تناولت شنابز . عيناى إلى وجه صاحبة المحل الأملس ، وقد كانت جالسة على مقعد تتصفح مجلة .

صعدت فوق مرةً أخرى . اضطجعت على السرير ، دخنت ، وفكرت فى « كيت» وألاولاد ، فكرت فى الحرب وفى الطِّفلين اللذين أكد لنا القسس أنهما فى الجنة ، أنا أفكر فى هؤلاء الأطفال كل يوم ، لكنى اليوم فكرت فيهم مدة أطول . لاأحد ممن يعرفوننى ، ولا حتى كيت ، يصدقون كم أفكر فيهم . إنهم يعتبروننى شخصاً مهزوزاً يغير عمله كل ثلاث سنوات مذ استنفد النقود التى ورثها من أبيه على الخمر ، شخص بالرغم من تقدمه فى السن لا يسعى لاستقرار ، غير مهتم بعائلته ، ولكنه وقع على مال أضاعه فى سُكْره .

لكنى فى الواقع ما كنت أشرب إلاَّ نادرًا ، حتى ولا كل شهر ، ولا يحدث أن أكون مخمورًا حتى كل ثلاثة أشهر بشكل منتظم . وأتساءل

أحياناً : ماذا يتصور الناس عملى خلال كل الأيام التى لا أشرب فيها ، وهى تسعة وعشرون من ثلاثين ؟ أنا أسعى كثيًرا . أحاول كسب المال . أحمل بعضاً من الكتب التى قرأتها فى المدرسة وأبيعها إلى الطلبة المجدين فى الصفوف الخامسة . أتسكّع فى المدينة ، عادةً ، خارجها فى الأطراف ، وأزور المقابر حين تكون مفتوحة ، أتمشى بين الأشجار المشذّبه باعتناء ، ومنابت الأزهار المنتظمة ، أقرأ الشواهد ، الأسماء ، أتشبّع برائحة المقبرة ، وأشعر بقلبى يخفق من الحقيقة الثابتة ، حقيقة أنى أيضاً ، سأرقد هناك . مرّ زمن اعتدنا أن نسافر فيه كثيرًا ، فى تلك الأيام التى كنا فيها لا نزال نمتلك نقودًا ـ لكنى فعلت فى المدن الغريبة مثل هذا الذى أفعله هنا ، حيث قررت البقاء : أنام على أسرةّ الفنادق ، أدخْن أو أسير على غير هدى بين وقت وآخر أدخل كنيسة ، أو أمضى مشياً إلى الضواحى البعيدة حيث تكون المقابر . أشرب فى حانات رخيصة ، أكوّن صداقات فى الليل مع غرباء أعرف أنى لن ألتقى بهم مرة أخرى .

حتى حينما كنت طفلاً ، كنت أحب الذهاب إلى المقابر ، أُشبع رغبةً لا يعتبرونها مناسبةً لولد صغير . لكن تلك الأسماء ، وأصص الأزهار تلك حرف وُرائحة هناك ، تقول لى إنى أيضاً سأموت : تلك الحقيقة التى ما شككت بها قط أحياناً ، فى تلك الصفوف التى أجتازها ببطء ، والتى لا نهاية لها ، أجد أسماء ناسٍ أعرفهم .

طفلاً ، خبرت حقيقة الموت . ماتت والدتى وأنا فى السابعة ، وباهتمام شديد راقبت كل شىء أجرَوْه لها : جاء القس ، مسحها بالزيت ، باركها ـ كانت ممددة لا تتحرك . تسلّموا الأزهار ، جاء الأقربون ، بكوا ، وصلوا إلى جانب سريرها ـ كانت ممددة لا تتحرك . راقبت كل شىء بفضول .

ولأنى أنا الذى فُجِعتُ فى أُمّى ، لم يمنعونّى من مراقبة الرجال فى « بيت الموتى » . غسلوا أمى ، ألبسوها رداءً أبيض ، وزّعوا الأزهار حول النعش ، سمُروا غطاء النعش . حملوا النعش فى سيارة ـ وكانت الشقة خالية ، ليس فيها أمى . دون أن أخبر أبى ، ذهبت إلى المقبرة . ركبت السيارة (١٢) ـ آه لن أنسى ـ ذهبت إلى ميدان توكوف ، ومنه ركبت الحافلة رقم (١٠) ، ركبتهاإلى نهاية الخط البعيد .

كانت تلك المرة الأولى التى أدخل فيها مقبرة ، سألت الرجل ذا القبّعة الخضراء عند البوابة : أين أمى ؟

كان له وجه منفوخ أحمر ، تفوح منه رائحة الخمر ، أخذنى من يدى ، وسار بى عبر القبور إلى مبنى الإدارة . كان طيباً جدًّا معى ، سألنى عن اسمى ، أدخلنى غرفة ، وطلب أن أنتظر . انتظرت . سرت بين المقاعد حول منضدة بلون بنىٍّ فاتح ، تطلعت إلى الصُّوَر على الجدار ، وانتظرت : إحدى الصور كانت امرأة نحيلة سوداء جالسة فوق جزيرة ، تنتظر . وقفت على أطراف أصابعى ، وحاولت قراءة ما كان مكتوباً تحتها ، وجهدت لأميّز: نانا . صورة أخرى أظهرت رجلاً عجوزًا ملتحياً ، يكشرّ حاملاً علبة بيرة ذات غطاء باذخ الزخرفة مفتوح باتجاه وجهه . لم أستطع قراءة ما تحت الصورة ، ذهبت إلى الباب ، لكنّ كان البابَ مغلقاً . فبدأت أبكى حتى سمعت وقع خُطًى فى الممر : إنه والدى قد وصل : كنت غالباً أسمع خُطاه خلال ممرّ طويل . فأشفق والدى علىّ . مع الرجل البدين ذى القبعة الخضراء الذى تفوح منه رائحة الخمر ، مضينا عبر المقابر إلى معرض الجثث . رأيتهم هناك واقفين ، ونقوش عليها أسماء وأرقام . قادنا الرجل ذو

القبعة الخضراء إلى نعش ، ورفع والدى رقعة باصبعه ، وقرأ : اليزابث بوكنر ١٨ ، ٤ ، ٤ ب : ظ مخطط ٧/ ل .

وسألنى عن تاريخها ، قلت : لا أدرى . فقال السادس عشر . لن تُدفن أمك حتى بعد غد .

أردت الاطمئنان عليه ، ألاّ يحدث شيء للنعش الذى ربما لا نراه ، وبكى والدى ، وعدنى ، وتبعته . فى الشقة الكئيبة ، ساعدته على تنظيف المخزن الكبير القديم ، وأخرجنا كل الأشياء التى اشترتها أمى خلال سنواتها من باعتها المتجولين : مجموعة من نصول المقصّات الصدئة ، صابون ، مسحوق مبيد للحشرات . مطاط تالف ، وعدة علب من دبابيس الأمان .

بكى أبى .

وبعد يومين فعلاً رأيت النعش تماماً كما كان . حملوه على عربة معلقةٌ عليها أكاليل وأزهار ، تبعنا النعش سائرين وراء القس ، مساعد الكاهن . إلى حفرة طينية فى المخطط (رقم ٧) ورأيت النعش يُبارَكُ ، ويُنْزَل ، ويُرَشّ عليه الماء المقدس ، ويُنْثَرُ عليه التراب . وأصغيت لصلاة القس ، وهو يتكلم عن التراب والنشور .

وقفنا خلف المقبرة وقتاً طويلاً ، أبى وأنا ، فقد أصررتُ على أن أرى : أَلْقَى حفّارو القبور كثيًرا من التراب على أعلى القبر ، ثم رصفوه ، وبمساحيهم جعلوا منه رابيةً صغيرة ، ألقوا الأكاليل فوقها وأخيرًا غرس أحدهم فى التراب صليباً أبيض صغيرًا ، منقوشة عليه حروف سود ، تمكنت من قراءتها :

« إليزابث بوكنر »

حتى وأنا طفل أدركت معنى كون الإنسان ميتاً : يعى أنه اختفى ، دُفِنَ فى الأرض ، وأنه ينتظر النشور . وفهمت ، انتبهت بدقة إلى أن جميع الناس يجب أن يموتوا ، والكثير ممن أعرفهم ماتوا ، وأن أحدًا لم يمنعنى من حضور دفنهم .

ربما فكرت فى الموت كثيرًا ، وأولئك الذين يعتبروننى سكّيرًا مخطئون . فكلما أجهدت نفسى فى شىء ، بدا غيرَ مجدٍ ، ومملاً ، وبعيدًا عنى .

ومنذ غادرت كيت والأطفال بدأت أعاود الذهاب إلى المقابر مرة بعد أخرى ، وأحاول أن أكون هناك مبكرًا حتى أشارك فى مراسم الدفن ؛ فأنا أتابع نعوش ناسٍ لا أعرفهم ، أصغى إلى تراتيل الدفن ، وأردّد الشعائر التى يهمهم بها القس فوق القبر ، أرمى تراباً فى الحُفَر ، أصل بجانب النعوش ، إذا امتلكتُ نقوّدا ، أشترى زهورًا أولاً ، وأنثرها زهرات منفردات فوق التراب . الذى سيُهال فوق النعش . أمشى مارًّا بالأقارب الباكين ، وأُدعى فى مناسبات إلى الدار ، فأجلس إلى مائدة مع غرباء تماماً . أشرب بيرة ، وآكل بطاطا وسلطة وسجقاً ، أسمح لنسوة باكيات بأن يملأن صحنى بسندويتشات كبيرة ، أدخن سجائر ، أشرب شنابز ، وأصغى لتاريخ ناس لا أعرف عنهم شيئاً ، غير رؤيتى لنعوشهم . ويُروننى صورًا فوتوغرافية لهم قبل أسبوع تَبِعْتُ نعش فتاة شابة ، وجلست بعد ذلك فى غرفةٍ فى ركن ، فى مطعم من طراز عتيق وبجانب أبيها ، الذى أخذنى إلى معجب سرًّا بابنته . أرانى صورًا لها ، صوراً لمخلوقة جميلة حقًّا : شعرها يرفرف فى الهواء ، كانت جالسة فوق دراجة بخارية خفيضة فى مدخل شارع مشجر .

أخبرنى والدها : « لقد كانت طفلة ، لا تعرف شيئاً عن الحب » .

نثرت زهورًا فوق نعشها ، ورأيت دموعاً فى عينى والدها وهو ينزل سيجارة للحظة إلى منفضة فخارية ذات لونٍ رمادى ، لكى يمسح عينيه .

لم أهتم بكل تلك المشاغل التى مارستها ، لم أستطع توفير الجدّ المطلوب لشاغل حقيقى . قبل الحرب عملت زمناً طويلاً فى مكتب لإنتاج مواد صيدلية حتى أدركنى السأم ، وانتقلت من ذلك العمل إلى التصوير الفوتوغرافى الذى تعبت منه أيضاً . ثم قررت العمل فى مكتبة ، وإن كنت لا أجد متعة فى القراءة ، وفى المكتبة التقيت بـ « كيت» التى تهوى الكتب .

بقيت هناك أن « كيت » كانت هناك ، لكننا قبل أن يمضى وقت طويل تزوجنا ، وكان عليها أن تغادر حين حملت لأول مرة ، . وجاءت الحرب أيضاً ، وولد طفلنا الأول كليمنز ، واستُدعيت إلى الخدمة .

لم أشأ التفكير فى الحرب ، نهضت من فراشى وهبطت على السلم ثانية إلى البار : كانت الساعة الرابعة ، تناوت شنابز ، ذهبت إلى المكنات . لم يكن حولها أحد ، لك ما إن أسقطت فيها قطعة نقد واحدة وضغطت على العتلة ، حتى أدركت أنى كنت متعباً . عُدْتُ إلى الغرفة ، اضطجعت على فراشى مرة أخرى ، دخّنت ، فكّرت فى « كيت » حتى سمعت الأجراس تُقْرَع فى كنيسة الأحزان السبعة ...


4

لم أجد صعوبة فى رؤية إشارة اليد السوداء ، فتابعت طريقى ، وسرت وفى أتجاه الإصبع المؤشّرة . كان الشارع رماديًا وخالياً ، وأنا ماضية فى سيرى، واجهتنى فجأة كتلة بشرية تجرى من بناية ضيّقة ، ورأيت صالة سبنما تفرغ من ناسها . فى المنعطف كانت إشارة أخرى ، يد سوداء مصبوغة والإصبع فيها محنبة تشير : صرت أمام الدار الهولندية ، صدمتنى قذارتها . !عبرت الشارع ببطء ، توقّفت عند المدخل المصبوغ بالأحمر صبغاً رخيصاً ، دفعت فاتحةً الباب وسرت فى داخل المطعم . كان ثلاثة رجال واقفين عند المنضدة . نظروا إلىّ وأنا أدخل ، انقطع حديثهم نظروا إلى صاحبة المحل ، ورفعت هذه نظرها من المجلة ونظرت إلىّ . انتقلت عيناها من وجهى إلى قبّعتى ، بعدها إلى الحقيبة .

التى كنت أحملها ، انحنت قليلاً إلى أمام تتفحص حذائى وساقىَّ ، ثم نظرت فى وجهى ، حدّقت طويلاً فى شفتىّ ، كما لو كانت تحاول معرفة اسم قلم الحمرة الذى استعملته . مرة ثانية مالت إلى الأمام ، نظرت متشكّكة إلى ساقىّ ، وسألتنى بوهن :

ـ « نعم ؟ »

أزاحت يديها عن عجيزتها ، وضعتهما على المائدة المعدنية ، ثم شبكتهما فوق بطنها ، واتخذ وجهها النحيل الأبيض تعبيرًا غامضاً .

قلت : « زوجى يتوقع مجيئى » .

استدار الرجال عنى واستأنفوا حديثهم ، وقبل أن أعطيها اسمى ، قالت صاحبة المحل :

« رقم أحد عشر ، الطالب الثانى » .

وأشارت إلى الباب وراء المائدة . اندفع أحد الرجال نحو الباب وأبقاه مفتوحًا لى . و كان شاحباً ويبدو سكراناً : شفتاه ترتعشان ، وبياض عينيه محتقن دماً . خفض عينيه حين نظرت إليه ، قلت له :

ـ « شكرا »

سمعتُ خلال فتحة الباب وأنا أصعد السلالم صوتاً يقول :

« هى ليست من خارج البلدة » .

كان لـ « فُرْغة السلّم » جدران خضر ، ووراء زجاجها يمكن أن يرى المرء ظل جدار أسود ، وعلى الطابق الثانى ، فى ممرّ صغير لغرفة الطعام العامة يتوقّد مصباح مكشوف .

طرقت على الباب (رقم ١١) ، وإذ لم يأت ردّ من الداخل ، فتحته ودخلت . كان فريد مضطجعاً غافياً . بدأ هشًّا ، طفلاً تقريباً ، ينام فى فراشه . ربما لا تصدّق أن ابن الثامنة عشرة ذاك ، قد أظهرت الحياة على وجهه كل هذا التعب . حين ينام ، تنفرج شفتاه قليلاً ، يتهدّل شعره الأسود على جبينه ويبدو وجهه كما لو كان فاقد الوعى ، إنه ينام عميقاً ،

وأنا صاعدت على السلم إليه كنت غاضبة منه ، إذ اضطرنى لأن أواجه النظرات مثل بَغِيّ .

لكنى الآن وصلتُ سريره ، وبحذر سحبتُ الكرسى ، وفتحت حقيبتى اليدوية ، وأخرجت سجائرى .

دخّنت وأنا جالسة إلى جانب سريره ، أبعدت عينى عنه ، حين بدأ ينتبه ، تطلعت إلى ورق الجدران الأخضر ورسوم القلوب عليه . نظرت إلى الأثاث الرث ، ونفخت دخان سيجارتى خلال فُرجة النافذة المفتوحة . عدت إلى الماضى ، وأدركت ألاّ شىء تغيّر كثيرًا منذ تزوجنا .

ابتدأ زواجنا فى تلك الأيام فى غرفة مؤثثة ، هى فى أيام القبح كانت رديئة نسبةً إلى غرفة الفندق هذه . وما إن انتقلنا إلى شقة مناسبة حتى اندلعت الحرب ما زلت أفكر فيها كما لو لم يحدث شىء : ثلاث غرف ومطبخ وحمام وغرفة لكليمنز على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس ـ وموريتز) وإن كان لايزال صغيرًا لا يميز الصور . بمرور الزمن نما وكبر ، فصار يدرك ويميزّ ، تلك الغرفة التى على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس وموتز) لم تعد موجودة ، ومازلت أرى فريدًا واقفاً هناك ، يداه فى جيبى بنطلون سترته الرمادية يحدق فى كوم الحجارة أمامه وذؤابة من دخان تتصاعد منها . بدا فريد لايرى شيئاً ، لا يشعر بشىء ، غير قادر على أن يفهم أننا لم نعد نمتلك أى شرشف ، أى قطعة أثاث ، أى شىء ـ نظر إلىّ وعلى وجهه تعبير رجل لم يعد يملك شيئاً . أبعد السيجارة من شفتيه ، وضعها بين شفتىَّ أخذتُ منها نفسًا عميقًا . وفى أول انفجرت بضحك هستيرى .

فتحت النافذة على سعتها ورميتُ عقب السيجارة فى ساحة المبنى .

أكوام نفايات ترتفع إلى جانب مستنقع اكتسى صفرةً بفعل رماد الفحم الحجرى ، سقطت سيجارتى فيه ، وسمعت هسيسها . قطار يرتج فى المحطة . سمعت صوت مذيع المحطة يرتفع بدون أن أفهم كلماته .

استيقظ فريد حين بدأت أجراس الكاتدرائية تقرع ، قَرْعُها جعل زجاج النافذة يتحرك ، يهتز ، وتتلقى هذا الاهتزاز ستارة معدنية فوق قاعدة النافذة، ورقص الستارة بدوره ينتج سقسقات جانبية .

نظر إلىّ فريد بدون أن يتحرك وبدون أن يقول كلمة ، تحسر . وعرفت أنه بدأ ببطء يبتعد عن النوم .

قلت : « فريد » .

قال : « نعم » .

وسحبنى إليه وقبّلنى .

ظل يدنينى إليه حتى تعانقنا . نظر أحدنا للآخر ، وإذ أخذ رأسى بين يديه مبعدًا إياه كأنما يتفحص وجهى ، ما كان منى إلاَّ أن أبتسم .

قلت : « لنذهب إلى القداس ، أم أنك كنت . . ؟ .

قال : « كلا منذ دقيقتين . وصلتُ إليه وقتَ التبربك تماماً .

ـ إذن دعنا نذهب .

كان راقدًا بدون أن يخلع حذائية على السرير . واضح أنه نام دون أن يسحب الغطاء عليه ، وكنت أراه بردانا . صبّ ماءً فى المغسلة ، فرك وجهه بيدين مبللتين ، غسله ، جفّف نفسه ، ورفع سترته من الكرسى .

نزلنا على السلم يدًا بيد . الرجال الثلاثه ما زالوا واقفين عند المائدة .

يتحدث بعضهم لبعض دون أن ينظروا إلينا . سلم فريد مفتاح الغرفة لصاحبة المنزل التى علّقته على لوحٍ وسألت :

« هل ستغادرون المكان لمدة طويلة ؟ »

قال فريد : « ساعة . »

حين وصلنا إلى الكاتدرائية كانت الصلاة قد انتهت ، وكنا تماماً فى وقت مسير موكب التقدمة إلى غلفة الكهنة : بدوا مثل شبوط أبيض يسبح ببطء فى ماء رمادى باهت . راهب مُتْعَب أدى الصلاة فى مذبح جانبى ، قالها متعجلاً ، ورفع كتفيه نافد الصبر وهو يتحرّك إلى الجهة اليسرى من المذبح ليأخذ الإنجيل . لم يكن مساعد الكاهن حاضرًا مع كتاب القدّاس . سحابات من البخور عبرت المذبح الرئيسى . ناس كثيرون يسيرون حول المجموعة التى تحضر القداس . كان أكثرهم رجلاً يحملون أعلاماً حمراء صغيرة فوق طيّات صدور ثيابهم . فى « التكريس » فزع البعض من رنين الجرس وتوقفوا . لكن أكثرهم واصلوا سيرهم ، متطلعين إلى الفسيفساء والنوافذ ، متجهين إلى المذابح .

نظرت إلى الساعة المعلقة عالياً على الجدار بجانب الأورغن ، وهى تعطى إشارات لطيفة كل خمس عشرة دقيقة . وإذ سرنا إلى الباب بعد انتهاء التبريك لا حظتُ أن القداس استغرق تسع عشرة دقيقة بالضبط . كان فريد ينتظرنى فى الرواق ، ذهبت إلى مذبح العذراء المباركة ، وتلوت «السلام لمريم » .

دعوت ألاّ أكون حاملاً ، مع أن خائفة من أن أصلى لذلك . كانت هناك شموع كثيرة تشتعل أمام العذراء وفى جانب حاملة شموع حديدية

كبيرة ، وضُعِتَ حزمة كاملة من شموع صُفر . علُقَت جوارها بطاقة مُوَقَّع عليها :

« مقدمة من الدوائيين الكاثوليك »

فرع اتحاد الدوائيين الألمان .

استدرتُ إلى فريد ، وخرجنا . الشمس مشرقة فى الخارج ، الساعة الخامسة وعشرون دقيقة . كنت جائعة . أخذت ذراع فريد ، وإذ نحن نسير نازلين بخطوات واسعة ، سمعته يحرّك القطع النقدية فى جيبه .

سألنى : « هل تحبين أن نأكل فى مطعم ؟ » .

قلت : « كلا ، فى محل أكلات خفيفة . أحب أن آكل فى محلات الأكلات الخفيفة » .

قال : « إذن فلنذهب » .

واستدرنا إلى زقاق بلوشر .

بمرور السنوات دِيسَتْ أكوام النفايات فصارت تلالاً كروية صغيرة نَمَتْ عليها الأعشاب غزيرةً كثيفة ، وامتدت شجيرات خضر ـ رمادية بلمعان محمرّ تعكسه أعشاب « السنفية » المتباعدة بأزهارها الأرجوانية . كان هنا نصب تذكارى للجنرال بلوشر . وهو تمثال برونزى ضخم شديد ينظر إلى السماء بغضب ـ بقى هذا التمثال مطروحاً هنا ، فى القناة حتى سُرِقَ .

وراء بوابة حديدية أكوام قمامة لم تترك غير ممرّ ضيّق شُق عبر الخرائب . وحين أوصلنى إلى شارع « مومسن » ، حيث لا تزال بضع بنايات قائمة ، بدأت أسمع من بعد ـ وعبر النفايات ـ موسيقى المعرض . أوقفتُ فريدًا ،

وحين توقفنا صرت أسمع تلك الموسيقى بوضوح أكثر : ذلك الضجيج المجنون لآلة « الكاليوب» الموسيقية .

قلت : « فريد ، هل يحدث شىء فى المدينة ؟ » .

قال : « نعم ، بسبب الدوائيين ، هل تريدين أن نذهب ؟ أنمضى إلى هناك ؟ »

- « أوه ، نعم » .

أجبته وأسرعنا ، اخترقنا الناس عبر شارع « فيلدا » وحين انعطفنا ثانية وجدنا أنفسنا فجأة وسط صخب وروائح المعرض . أصوات الأورغنات اليدوية ، رائحة الحم الحادة ممزوج برائحة الفطائر ثقيلة الزيت ، والمقلية كثيرًا . هسيس أصوات المتجولين العالى والمرح ملأت نفسى بالإثارة ، وشعرت بقلبى يخفق بشدة - تلك الروائح ، تلك الضوضاء ، كل ذلك الاضطراب ، ذلك كله يشكل الآن تآلفاً سريًّا .

قلت : « فريد ، أعْطِنى بعض النقود . »

اخرج قطع النقود مِنْ جيبه ، سحب القطع الورقية من بين القطع النقدية طواها ، ووضعها بين أوراقه النقدية الرثّة . أهال كل القطع النقدية الصغيرة على راحتى ، بينها قطع فضيّة غليظة ، حسبتها بدقة وفريد يراقبنى مبتسماً .

قلت : « ستة ماركات وثمانون ، هذا كثير يا فريد »

- « احتفظى بها أرجوك » .

ورأيت وجهه الهزيل ، الرمادى المهموم ، رأيت السيجارة ذات البياض

الثلجى بين شفتيه الشاحبتين ، وعلمت أنى أحبه حقاً . هنالك عدة أسباب ، لكنَّ واحدًا من هذه أعرفه ، إن الذهاب بصحبته إلى المعرض مُرِيح .

قلت : « إذن ، سأدفع ثمن الوجبة . »

فأجاب : « أى شىء تقولين ؟ . » .

أخذت ذراعه ، سحبته جانباً إلى كوخ اللحم ، وواجهته مرسوم عليها راقصون هنكاريون ، أولاد فلاحون بقبعات مستديرة ، أيديهم على مؤخراتهم ، ينقافزون حول الفتيات . أسندنا مرافقنا على المائدة ، فنهضت المرأة الجالسة على كرسى من النوع الذى يطوى ، إلى جانب قِدْر ينصاعد منه البخار ، وقدمَت إلينا مبتسمة .

كانت المرأة ممتلئة الجسد ، ذات شعر أسود ، يداها القويتان الجميلتان مزينتان بكثير من الخواتم الرخيصة ، وحول عنقها الأسمر المصفرّ شريط أسود من قطيفة عليه ميدالية .

قلت ، وفريد يدفع لها ماركين :

« اثنين من اللحم » .

تبادلنا الابتسام أنا وفريد ، فى حين مضت المرأة إلى الخلف ورفعت غطاء القدر .

قال فريد : « أنا اليوم تناولت اللحم» .

أجبته : « أوه ، آسفة »

« لا تبالى ، فأنا أحب اللحم » .

ووضع يده فوق ذراعى .

أوغلت المرأة مغرفتها عميقاً فى القدر ، ورفعتها مثقلةً باللحم ، ومن القدْر يتصاعد البخار الذى نَشرَ ضباباً على المرايا التى الحائط الخلفىّ .

أعطت كُلاًّ منا لفّة خبز ، ثم مسحت المرآة بقطعة قماش وقالت لى :

ـ « الآن يمكنك أن ترى كم جميلة أنت ! » .

نظرتُ فى المرآة غير المؤطرةً ورأيتنى أبدو جميلة حقًّا . بعيدًا وراء وجهى فرقة ، رأيت فرقة رماية مضبّبة ، فرساناً يلهبون ظهور جيادهم ، وقد صُدِمْتُ حين وقعت عينى على وجه فريد ورائى فى المرآة وهو لا يستطيع تناول شىء ساخن ، الساخن يؤذى لثّته ، أرى الطريقة التى يقلّب فيها الطعام فى فمه حتى يبرد وتعبير الانزعاج الهادىء نفاد الصبر ، كل ذلك أعطى وجهه نوعا من التخلّف الحضارى . إنه مشهد شيخوخة يفزعنى كلما بدا عليه . لكن المرآة تضبّبت مرةً أخرى والمرأة أدارت ببطء مغرفتها فى القدر.

وبدا لى أنها تعطى كمية أقل لك من أولئك الذين يقفون إلى جانبنا مِمَّا أعطتنا .

دفعنا صحوننا الفارغة ، شكرناها ، وغادرنا . آخذت بذراع فريد ثانية ، ومشينا على مهلٍ خلال الأزقة بين الأكشاك . قذفت علبة فارغة على دُمَى ذوات ابتسامات جامدة ، تهب عصيرها حين تأتى الضربة على رءوسها ، حين تقفز إلى وراء نحو كيس بنىٍّ ، حين تندفع آليًّا إلى الأمام مرة أخرى . بسعادة ارتضيتُ لنفسى أن يخدعنى صوت المنادى المدندن عند الباب ، فاشتريتُ منه تذكرة يانصيب ورحت أتابع عجلة الحظ ، عينى على الدمية

ـ الدب الأصفر الكبير ، والذى كنت آمل بكسبه ، الذى بقيت آمل بالحصول عليه منذ كنت طفلةً . مؤشِّر العجلة المهتز يشق طريقه بطيئاً خلال مسامير بالشريط ، توقف تماماً قبل الرقم الذى اخترت ، فلم أكسب الدب ، ولم أكسب شيئاً .

ألقيتُ نفسى على المقعد الضيق لحصان الفروسية المهتز ، ضغطت على قطعة ذات عشرين فينيكاً فى باطن الكف وتركت نفسى تنطلق فوق الحصان الدوّار ، وفوق السلاسل ترتفع الدائرة ببطء أعلى فأعلى دائرة حول آلة «الكاليوب» المخفية فى الجفان الخشبية لمحور اللعبة المركزى ، فأطلقت فجأة نغماتها المسعورة فى وجهى .

رأيت برج الكاتدرائية وراء الخرائب يطير من خلالى وأنا على الحصا ن ، يبعد عنى خضرة العشب الكَثيفة المُدلَهِمَّة ، رأيت أسطح الخيمة العليا وعليها بقع ماء المطر . وتضاعف أكثر ، أكثر دوران دوّامة فرقة الفرسان والتى كانت تسوط حصانى بعشرين فينيكاً . ألقيت نفسى فى حضن الشمس ، كلما لامسنى وهجها جلدنى شبه سوط . سمعت رنين السلسلة، صرخات النساء ، رأيت البخار ، دوامة غبار أرض المعرض تسللت فى تلك الرائحة الدهنية الزنخة ، حتى إذا هبطت من السلم الخشبى مرة أخرى غرقت بين ذراعى فريد وقلت :

« أوه ، فريد ! »

بعشرة فينيكات ، أمكننا أن نحظى برقصة على السطح الخشبى ، يحيط بنا فتيان دون العشرين من أعمارهم ، يحركون بحيوية أوراكهم ، ونحن كل منا أمسك بصاحبه قريباً منه ، ولكنا انغمرنا معاً ـ أنا وفريد ـ فى إيقاع

الرقص ، وجدت نفسى أنظر إلى الوجه البدين لعازف الترامبيت ، والذى كان نصف ياقته مخفياً تحت آلته الموسيقية ـ وكلما رفع رأسه غمز لى ، ونفخ نغمة حادة من « ترامبيته » ، الآلة التى بدت موجهةً إلىّ .

راقبت فريدً يلعب « الروليت» بعشرة فينيكات ، أحسست بالتوتر الصامت للرجال الواقفين من حولنا لحظة يعطى مدير اللعبة العجلة وخزةً فتبدأ الكرة بالوثوب . السرعة التى ثبّتوا فيها أوتادهم ، وإلقاء فريد قطعة النقد على الرقعة الصحيحة ، يكشفان عن مهارة ، عن فهم متبادل لم أتوقعه . والكرة تتدحرج ، رأيت مدير اللعبة يرفع رأسه وتجول عيناه الباردتان بازدراء على أرض العرض . لم يخفض وجهه الصغير والجميل الصلب حتى بدأ الأزيز يخمد ، فالتقط الأوتاد ، أزلقها فى جيبه ، ودعا اللاعبين لأن يضعوا أوتادهم ، راقب أصابع الرجال الواقفين حوله ، أعطى العجلة وخزة احتقار ، زمّ شفتيه ، ونظر إلى ما حوله بضجر .

تكوّمت النقود أمام فريد مرتين ، وأخيرًا جمع النقود من المنضدة واتخذ طريقه إلىّ .

جلسنا على سلالم الخيمة عرض ذات ستائر زُرْق . تابعنا الجموع الدائرة، ابتلعا غبارًا واستمعنا إلى موسيقى « الكاليوبات » المتنافرة النغمات ، وسمعنا صرخات « الفرسان » .

نظرت إلى الأرض المغطاة بالأقذار ، متناثرة عليها الأوراق وأعقاب السجائر والزهور الذابلة ، والتذاكر الممزّقة . وأنا واهنةً أرفع عينىّ رأيت أطفالنا . كان بليرمان يمسك كليمنز من يده ، الفتاة كانت تمسك يد كارلا، والرضيع فى الحاملة بين بليرمان وصديقته . كانت فى أفواه الأطفال

مصاصات صفر كبيرة ، رأيتهم يضحكون وينطلعون إلى ما حولهم ، رأيتهم يقفون عند فرقة الرماة ، اقترب بليرمان أكثر ، أخذ كليمنز مقبض الحاملة حينما رفع بلبرمان بندقية . كليمنز نظر إلى المشهد من فوق كتف بليرمان . بدا الأطفال فرحِين ، كانوا يضحكون حين علّق بليرمان وردة من ورق صفراء فى شعر فتاته . استداروا إلى اليمين ، رأيت بليرمان يعد بعض النقود فى راحة كليمنز ، رأيت شفتى ابنى تتحركان ، يعدّ لنفسه ، رأيته يرفع يده بابتسامة صغيرة ويشكر بليرمان .

ـ « دعنا نذهب » .

همستُ لفريد ، نهضت وسحبت ياقة سترته ،

ـ « أولادنا هنا » .

سألنى : « أين هم ؟ » .

ونظر أحدنا إلى الآخر.

« هم بيننا ، فى تلك الاثنتى عشرة بوصة من العراء ، بين عيوننا ، حبث الليلة الألف التى نطارحنا فيها الغرام . »

أبعد فريد سيجارته من فمه وسألنى بتردد :

« ما الذى سنفعله إذن ؟ » .

قلت : « لا أدرى » .

جَرّنى مبتعدًا داخل زقاق ما بين خيمة العرض ودوّارة حيوانات خشبية عاطلة مغطّاة جوانبها المحنيّة بالخيش . توقفنا ، ننظر بصمت إلى أوتاد الخيمة .

قال فريد : « تعالى ، ادخلى » .

وهو يرفع قطعة فاصلة من الخيمة ، جاعلاً منها فتحة بين صفحتين من الخيش ، تسلّل منها ، ثم ساعدنى لأدخل ، وجلسنا هناك فى الظلام ، فريد على بجعة من خسب كبيرة ، وأنا إلى جانبه على حصانٍ هزّاز . وجه فريد الناحب مقطوع نصفين بشريط من ضوء آتٍ من شقّ فى الخيش .

قال فريد : « ربما لن أتزوج أبدًا . » .

قلت له : « كلام فارغ ، لا تُسْمِعْنى ذلك . فهو ما يقوله كل الرجال » .

نظرت إليه ، وأضفت :

ـ « كم فى هذا من ترضيةٍ لى ـ لكن المرأة تنجح فى جعل الزواج ممكناً » .

ـ « نجحتِ أنتِ أكثر من معظم النساء » .

قال ذلك ورفع وجهه إلى رأس البجعة ووضع يده فوق ذراعى .

« خمس عشرة سنة منذ تزوجنا إلى الآن ، ونحن ... » .

قلت : « نعم ، زواج فخم » .

قال : « هائل ، هائل فعلاً » .

أبعد يده عن ذراعى ، وضع كلتا يديه على رأس البجعة كما أسند رأسه ونظر إلىّ بتعبٍ .

« إننى على يقين من أنك والصغار أكثر سعادة بدونى »

قلت : « ذلك ليس صحيحاً ، لو أنك فقط تعرف ... »

ـ « لو أعرف ماذا ؟ »

ـ « فريد ، كل يوم يسألنى الأطفال عنك عشر مرات ، وأنا كل ليلة تقريباً أبكى حين أخلد للنوم » .

ـ « أنتِ تبكين ؛ » .

قال ورفع وجهه مرة أخرى ، وراح ينظر إلىّ ، فأسِفْتُ إذ قلت له ذلك . « أقول ذلك ، لا لكى أخبرك ببكائى ، لكن لكى تعرف فقط كم أنت مخطىء »

سقط ضوء الشمس فجأة من خلال الشق فى الخيش ، وامتصه الفراغ الوسطى فى الخيمة كأنه مَرَّ خلال فلتر أخضر ، فكشف ضوؤه ، إذْ تسرّب أشكالاً دوارة ، خيولاً مكشرةً ، تنانين خضراء، بجعاً ، أمهارًا ، ورأيت عربة زفاف مبرقعة بقطيفة حمراء يسحبها حصانان أبيضان .

قلت لفريد : « تعالَ ، سنترتاح هناك أكثر » .

نزل من بجعته ، ساعدنى على تلك الحصان الهزّاز ، وجلسنا ، أَحَدُنَا إلى جانب الآخر على قطيفة العربة الناعمة . اختفت الشمس ثانية ، كنا محاطين بظلال الحيوانات الرمادية .

ـ « أنتِ تبكين ؟ » .

قال لى فريد ذلك ، ونظر إلىّ ، أوشك على وضع ذراعه حولى ، لكنه سحبها مرة ثانية .

ـ « هل تبكين لأنى هجرتك ؟ » .

قلت بصوت خافت : « بسبب ذلك ، لكن ليس بسبب ذلك وحده . تعلم أنى أكون أكثر سعادة حينما نكون معا . لكننى أيضاً أرى أنك لا تطيق

ذلك ـ كما أنك لا تكون هناك أحياناً . كنت خائفة منك ، أخاف من وجهك ، وأنت تضرب الأطفال ، أخاف من صوتك ، ولا أريدك أن تعود مثلما كنت ، ويعود كل شيء كما كان قبل أن تغادرنا . أفضل أن أرقد في فراشي وأبكي على أن أعرف أنك تضرب الأطفال ، لسبب واحد بسيط ، هو أننا لا نملك نقودًا . هذا هو سبب ضربك للأطفال ، أليس كذلك ؟ لأننا فقراء ؟ »

قال : نعم ، فقرنا جعلني مريضاً » .

« نعم ؟ « قُلت له : « هذا هو سبب قولي لك : الأفضل أن تظل بعيدًا ـ إلاَّ إذا تغيّرت الأمور كلياً ـ دعني أبكي . سنة أخرى وأصل أنا أيضاً إلى النقطة التي أنت فيها ، إلى ضرب الأطفال ، حيث سأكون مثل واحدة من تلكم النسوة البائسات اللواتي منظرهن وحده يفزعني مثل طفل ، أولئك الخشنات التاعسات اللواتي يجرجرهن رعبُ الحياة الذي لا يرحم في ممرات البنايات القذرة ، فهن إمَّا يضربن أطفالهن أو يتخمنهم بالسكريات ، وفي الليل يفرشن أنفسهن ليعانقهن سكارى مُحطَّمون ، يعودون إلى بيوتهم تفوح منهم رائحة السجق المقلي ، وقد يجلب أحدهم سيجارتين مدعوكتين ، يدخنانها معاً ، يدخنان وأحدهما بجانب الآخر في الظلام بعد انتهاء المضاجعة . أوه كم أحتقرهن ـ تلكم النسوة ـ سامحني الله على ذلك ـ أعطني يا فريد سيجارة أخرى » .

سحب العلبة بسرعة من جيبه وقدمها إليَّ ، أخذ منها واحدة لنفسه ، وحين اشتعل عود الثقاب ، رأيت وجهه التاعس في ذلك الأصيل المخضر حيث دوّارة الألعاب .

قال : « استمرى . أرجوك استمرى . . »

ـ « ربما أبكى لأنىٰ حامل » .

ـ « أنتِ حامل ؟»

« ربما تعرف كيف أكون حين أكون حاملاً . ما زلتُ غير مصدقة أنى حامل . لذا شعرت بالتعب من الخيول . أُصلى كل يوم وأدعو الله ألاّ أكون حاملاً . وإلاَّ ، هل تريد طفلاً آخر ؟ » .

بسرعة قال : « كلا ، كلا » .

قلت له : « لكن إن جاء فأنت أبوه ، أوه يا فريد ، ليس لطيفاً أن تسمع ذلك » .

وأسفت لأنى قلت له ذلك . فقد ظل يدخن ولم يقل شيئاً ، نظر إلىَّ ، وجلس متكئاً يدخن فى العربة . لم يقل غير :

« استمرى ، أرجوك استمرى ، أخبرينى بكل شىء » .

قلت : « أنا أبكى أيضاً بسبب أن الأطفال جد هادئين ، إنهم صامتون يافريد . معلوم أن عليهم الذهاب إلى المدرسة ، وهم يأخذون هذا الأمر بكل جد ـــ إنه أمر يخيفنى ، كذلك الطريقة الأمينة التى يؤدون بها واجباتهم ـ تلك تخيفنى أيضاً . الحمقى الصغار يقلقون على امتحاناتهم ، يستعملون الكلمات نفسها التى استعملتها أنا حين كنت فى سنهم . إنها مخيفة جدًّا يافريد كذلك الفرح الذى يعلو وجوههم حين يشموّن رائحة الروست فى القدْر الصغير يغلى فوق الموقد ، والطريقة الهادئة التى يحزمون بها حقائبهم المدرسية كل صباح ، وكيف يضعونها على ظهورهم ، وسندويتشاتهم فى

أكياس غدائهم . وإذ يخرجون إلى المدرسة ، أدبُّ أنا غالباً فى الممر ، يافريد، أقف عند النافذة أتابعهم بعينىَّ طالما استطعت أن أراهم : ظهورهم الهزيلة محنية قليلاً من ثقل الكتب والدفاتر . هنالك يذهبون يمشى أحدهم إلى جانب الآخر حتى المنعطف ، فيستدير كليمنز مفترقاً عنهم ، وأقدر أن أرى كارلا مدة أطول قليلاً وهى تتدحرج فى شارع «موتسارت» و الرمادى ، بمثل مشيتك ، يا فريد ، يداها فى جيبى سترتها ، ربما هى تفكر كثيرًا فى رسم الحياكة أو تأريخ وفاة شارلمان . أبكى لأن توقهم يذكرنى بتوق أطفال كنت أكرههم أيام كنت فى المدرسة ، أولئك الأطفال يشبهون كثيرًا الطفل يسوع فى صورة « العائلة المقدسة » . هم يلعبون إلى جانب منصة نجارة يوسف . مخلوقات بسيطة لطيفة مجعدة الشعر، فى الحادية عشرة أو العاشرة ، يسقطون قشارات الخشب الملتفة من بين أصابعهم ، قشارات الخشب تلك تشبه خصلات شعرهم » .

قال : « أطفالنا ، يشبهون الطفل يسوع فى صور العائلة المقدسة ؟ »

نظرت إليه وقلت : « كلا ، كلا ،لكن حين أراهم يسيرون فى الطريق تلك المشية ، فكأنهم يمتلكون بعضاً من ذلك التواضع الخالى من الأمل والحس والذى يجعلنى أذرف دموع الخوف والتحدى »

قال : « يا إلهى الطيب ـ ولكن هذا هراء ـ أظن أنكِ ببساطة تحسدينهم على طفولتهم » .

ـ « كلا ، كلا ، يا فريد ، أنا خائفة لأنى لا أستطيع حمايتهم من أى شىء لا من قسوة البشريةولا من قسوة السيدة فرانك ، هذه التى من أجل تسلمها الكامل لجسد المسيح كل صباح ، تندفع من مكتبها متى ما

استعمل أحد الأطفال المغاسل لتتثبت من سلامتها ، وبدأ بالتذمر فى الممر إذا ما قطرة ماء سقطت على ورق حائطها . أنا أخاف قطرات الماء ـ فكلما سمعت الأطفال يسحبون «السيفون» أتفجّر عرقاً ، لا أستطيع أن أقول لك ، فقد تعرف أنت ما يجعلنى حزينة جدًّا » .

ـ « ما يجعلك حزينة ، بكل بساطة ، هو أننا فقراء . ولا أستطيع فعل شىء يريحك . لا مفرّ . لا أعدك بأننا سنمتلك يوماً مالاً أكثر . أوه ، ستعجبين كم هو جميل العيش فى دار نظيفة ! أن نكون بلا أية هموم مالية ـ ستعجبين » .

قلت : « أنا فى الحقيقة أتذكر أن كل شىء كان نظيفاً فى بيت والدىّ ، وأن الإيجار كان يُدفع دائماً فى حينه . وبالنسبة للنقود ـ حسنا ، حتى نحن يا فريد ، أنت تذكر ... » .

« أنا تذكر » ، وتفجر منفعلاً : « ولكنى لا أحمل عواطف كثيرة للماضى . ذاكرتى مكونة من ثقوب ، ثقوب كبيرة ، يجمعها معاً نسيج رقيق ، رقيق جدًّا ، مثل خيوط ناعمة ، طبعاً أتذكر ، كانت لنا شقة يومًا مّا ، غرفة حمام خاصّة ، وعندنا نقود ندفع منها لأى شىء نريد ، ما الذى كنت أفعله تلك الأيام ؟ » .

قلت : « فريد . أنت لا تتذكر ما كنت تفعله تلك الأيام ؟ » .

قال : « ذلك صحيح ، أنا لا أتذكر ... » .

وطوقنى بذراعه .

« كنت تعمل فى مصنع ورق الجدران » .

قال : « طبعاً ، وثيابى تفوح منها رائحة الصمغ ، وكنتُ آتى بنماذج تالفة من ذلك الورق ، نماذج باطلة ، لكليمنز وكان يمزقها فى سريره المعدنى . أتذكر ، لكن ذلك لم يستمر طويلاً » .

أجبته : « سنتين ، حتى جاءت الحرب » .

قال : « طبعًا بعدها جاءت الحرب ، ربما كان أفضل لكِ لو تزوجت رجلاً مقتدرا ، واحدًا من أولئك الأشخاص المجدّين ، مع درجة محترمة من الثقافة » .

قلت له : « . . تَوَقَّفْ عن هذا . . » .

كنتما تجلسان معاً فى المساء ، تقلبان كتباً لطيفة ، لتيسر لك ما تودين ، كانت غرف نوم الأطفال مؤثثة حسب آخر الموديلات ، نفرتيتى على الحائط ، ومذبح آيزنهايم على العوارض الخشبية ، وعبَّاد شمس فان جوخ ، طَبْعَةً من الدرجة الأولى فوق سرير الأبوين ، طبعاً إلى جانب مادونا بيورون ، ومسجل فى محفظة حمراء ، قوى وبديع ، أصحيح ؟ أوه ، كم يزعجنى دائماً ذلك الهراء ، تلك البيوت الأنيقة لا أدرى لماذا تزعجنى » .

وفجأة سألنى : « ما الذى تريدينه فعلاً ؟ »

نظرت إليه وأحسست لأول مرة ، ومنذ زواجنا أنه كان غاضباً .

قلت له : « لا أدرى مالذى أريده ؟ »

ورميت سيجارتى على الأرض الخشبية إلى جانب العربة ساحقةً إياها .

« لا أدرى ماذا أريد ؟ لكنى لم أقل شيئاً عن نفرتيتى ، لا شىء عن مذبح آيزنهايم ، مع أنى أحمل شعورًا ضدهما . لم أقل شيئاً عن رجال

مقتدرين ، لأنى أكره الرجال المقتدرين ، فشعور الاقتدار فيهم يُنْتِنُ حتى أنفاسهم . لكننى فى الحقيقة أردت أن أعرف ما الذى تهتم به جدّيًّا ، لا أرى شيئاً ، أى شىء مِمَّا يأخذه الرجال الآخرون بجد ، اسأل إن كانت لك أشياء تهتم بها أكثر من سواك . فأنت بلا حرفة مثلاً ، وكيل أدوية مرةً ، مصور ، ثم عملت فى مكتبة ، مؤسف أن تُرى فى مكتبة لأنك لا تعرف حتى كيف تمسك الكتاب بصورة صحيحة ، ثم فى مصنع ورق الجدران ، وعامل شحن فى سفينة ، صحيح ؟ وأما كونك عامل بدالة ، فقد تعلمت ذلك فى أثناء الحرب » .

قال : « أوه ، كفِّى عن ذكر الحرب ، إنها تزعجنى» .

قلت : « حسناً ، كل حياتك ، كل حياتنا ، منذ كنت معك ، قضيناها على مقاعد مطاعم الأكلات الخفيفة ، فى أكواخ بيع اللحم فى حانات متواضعة ، فنادق الدرجة الخامسة ، فى ملاعب الأطفال ، وفى تلك الحفرة المغضنّة التى نسكن فيها منذ ثمانى سنوات ... » .

« أكمل : وفى الكنائس » .

قلت : « حسناً ، وفى الكنائس ، نعم » .

ـ ولا تنسى المقابر ! »

ـ « لستُ ناسية المقابر ، ولم أنسها حتى فى رحلاتنا ، هل أبديت شيئاً من الاهتمام فى الثقافة ؟ » .

ـ « الثقافة ، لو أخبرتنى ما هى تلك ، كَلاَّ أنا لا أهتم بها . أنا أهتم بالله ، بالمقابر ، بكِ ، بالمطاعم السريعة ، بملاعب الأطفال وفنادق الدرجة الخامسة » .

ـ « لا تنسَ الكحول » .

ـ « كلا ، لا أنسى الكحول . ألقى نفسى فى السينهات وعند مكنات البنبول » .

قلت : « وأطفالنا ؟» .

ـ « نعم ، الأطفال ، أنا أحبهم جدًّا جدًّا ، ربما أكثر مِمَّا تظنين ، أنا فعلاً أحبهم كثيرًا جدًّا ، لكنى الآن فى الرابعة والأربعين تقريباً ، ولا أستطيع أن أقول لك كم متعب فكرى بذلك » .

قال هذا ، ونظر إلىَّ فجأة وسألنى : « هل تشعرين بالبرد ؟ أنغادر المكان؟ » .

قلت : « كلا ، كلا ، استمر أرجوك ، استمر . » .

قال : « أوه ما جدوى ذلك ؟ لنتوقف . لماذا الإزعاج ، دعينا بعيدًا عن الخصام ، أنت تعرفيننى ، وتعرفين أنى مفاوض ردىء . وفى سنّى . بكون قد فات أوان التغير . لا أحد يتغير أبدًا . الشيء الوحيد الذى يقع موقع الاستحسان منى هو أنى أحبك » .

فقلت : « نعم ، وليس كثيرًا عليك أن تكتب لبيتك عن ذلك » .

سألنى : « هل نمضى الآن ؟ » .

قلت : كلا ، دعنا نمكث هنا قليلاً ، أم أنت تشعر بالبرد ؟ » .

قال : « كلا . ولكنى أريد أن أرجع للفندق معك » .

قلت : « خلال دقيقة واحدة . لكن هناك أشياء قليلة أخرى يجب أن تخبرنى عنها . أم أنك لا تريد أن ... »

أجاب : « استمرى ، اسألى » .

أملتُ رأسى على صدره ، لم أقل شيئاً ، وبقينا نسمع أصوات «الكاليوب» صرخات راكبى الخيول الخشبية ، والصيحات الخشنة للمشرفين على الألعاب .

سألته : « فريد ، هل تأكل بصورة مُرْضِيةَ ؟ افتح فمك قليلاً » .

أذرتُ رأسى فتح هو فمه ، رأيت اللثّة الحمراء الملتهبة ، لمست أسنانه ، وأحسست كم هى رخوة

قلت : « منابت الأسنان ، خلال سنة يتحتم عليك وضع طقم صناعى» .

سألنى بقلق : « هل تعتقدين ذلك فعلاً ؟ » .

ربّت على شَعرى ، وأضاف :

ـ « نسينا الأطفال » .

وصمتنا مرة أخرى ، كنا نصغى إلى الضجيج الآتى من الخارج : وقلت :

ـ « سيكونون بخير ، لستُ قلقة على الصغار ، إنهم يتجولون مع هذين الشابين ، لن يحدث لهم شىء » .

همهمت وأنا أُدنى رأسى ليكون على صدره : « فريد ، أين تسكن بالضبط ؟ » .

ـ « فى المُجمّعات فى شارع ايشخر » .

« المُجمّعات ؟ لا أعرفها » .

سألنى : « ألا تعرفين المُجمّعات ؟ والناس الذين يعيشون فى الطابق الأسفل ، فى بناية الأب ، الناس الذين يمتلكون المخزن الدائم ؟ » .

ـ « آه تلك ، ذو الخصل الشقر ولا يدخّن ، هنالك تقيم ؟» .

« فى الشهر الماضى ، اعترضت طريقه فى بار ، وأوصلنى . كنت مخمورًا ، فأوصلنى إلى بيته ومنذ ذلك الوقت بقيت معهم » .

ـ «أعندهم غرفة لك ؟ »

ـ لم يجب . بدأت خيمة العرض المجاورة لنا تُفْتَحُ الآن لبدء العمل . شخص بدأ يدق مثلثاً ، وصوت خشن فى مكّبر الصوت :

« تقدموا ! تقدموا ! شىء للأولاد ! »

سألته : « فريد ، ألم تسمعنى ؟ » .

ـ « سمعتك . المبانى فيها كثير من الغرف . ولهم فيها ثلاث عشرة غرفة . »

ـ « ثلاث عشرة غرفة ؟ » .

ـ « نعم ، « بلوك » العجوز يعمل مراقباً هناك ، والدار خالية لثلاثة أشهر، المبنى يعود لرجل إنجليزى يدعى « ستربر » على ما أظن . إنه جنرال أو عضو فى عصابة ، أو كلاهما ، وربما هو شىء آخر ، هذه كل معرفتى عنه ، هو بعيد منذ ثلاثة أشهر ، آل بلوك يهتمون بالدار ، يعتنون بالثيّل لكى يبدو فى أحسن حالٍ فى الشتاء . فى كل يوم يمضى بلوك العجوز فى الحديقة الكبيرة مع مجموعة من حوادل التسوية وماكينات الثيّل ، وكل ثلاثة أيام تصل بآلات من الأسمدة الصناعية . المبنى مكان باذخ المحتويات ،

أخبرك : عدد الحمامات وأشياء ، أربعة ، على ما أعتقد ، وأحياناً يسمحون لى بأن أتمتع الحمّام فى أحدها . وهنالك مكتبة تحتوى كتباً كثيرة ، كميات من الكتب ، إنها كتب جيدة ، كتب فخمة ، وغرفة رسم ، ثم هنالك غرفة للخلوة ، غرفة طعام ، غرفة للكلب ، غرفتا نوم فى الطابق الأعلى ، واحدة للنّهاب أو أى شىء آخر هو واحدة لزوجته ، وثلاث للضيوف .

قلت له : « توقف يا فريد ، توقف أرجوك . »

قال : « أوه ، كلا ، لن أتوقّف ، لم أخبرك عنها من قبل ، حبيبتى ، لأننى لا أريد إثارتك ، أنا فعلاً ، لا أريد ذلك . لكن الأفضل لك الآن تسمعيه منى . علىَّ أن أتكلم عن الدار ، حلمتُ بها ، سكرتُ لكى أنساها ، لكن حتى وأنا سكران لا أستطيع نسيانها . كم غرفة أخبرتك فيها؟ ثمانى أو تسع غرف ، لا أتذكر . وهنالك ثلاث عشرة غرفة ، لو تَرَيْنَ فقط غرفة الكلب ، إنها أكبر قليلاً من غرفتنا ، أكبر بقليل ، لا أريد الباطل ، ربما هى أوسع بعشر أقدام مربعة ، ليس أكثر أبداً ، فلنكن منصفين ، ليس أفضل من أن يكون الإنسان منصفاً . سنخط كلمة «إنصاف » على لافتتنا الرقيقة ، أليس كذلك يا عزيزة قلبى ؟ » .

ـ « أوه يافريد ، هل تقصد إثارتى ؟ »

ـ « أنا أثيرك ؟ إننى أحدثك عن الدار ، وهذا فعلاً ما قلتُ . بيت الكلب ، واسع تسعة هذه البوفيات فى بيوت صفوة المثقفين ، ومثلما هناك غرف حمام كاملة ، هنالك دشّات معزولة أيضاً ، لم أحصها : أريد أن أكون منصفاً ، أريد أن يأخذنى السكر وأنا على حق ، فأنا لا أحسب حجيرة الدش غرفة . إن ذلك ليس عدلاً ، ونحن نريد تحقيق العدالة إلى

جانب الحق فى شعارنا المتواضع . ليس هذا هو الأسوأ يا عزيزتى ـ لكن القلب خال ـ أوه كم هو مدهش ذلك الثيّل الممتد وراء تلك الفِلَلِ العظيمة، فقط لو يسمحون لطفلٍ بأن يلعب عليه ، أو حتى لكلب . يجب أن نزرع ثيلاً منبسطاً لكلابنا يا حبيبتى . لكن هذه الدار خالية . هذا الثيل لم يُسْتَعمل ، إذا سامحونى على استخدام هذه الكلمة فى هذا المجال . الأَسِرَّة خالية ، وفى أعلى البيت ثلاث غرف أخرى ، واحدة لمدبرة المنزل واحدة للطباخ واحدة للخادم ، الرجل ، والسيدة الطيّبة تشكو دائمةً من أن الفتاة الخادمة بحاجة إلى غرفة ، وأنها الآن تنام فى غرفة الضيوف . يجب أن تتذكرى هذا يا حبيبتى حينما نبنى دارنا ونعلّق عليها شعارنا فى العدالة الحق . »

قلت : « فريد لا أستطيع احتمال المزيد » .

« نعم ، تستطيعين ، لقد أنجبت خمسة أطفال ، وتستطيعين ، يجب أن أنهى كلامى . لا أستطيع التوقّف الآ ، يمكنك المغادرة إذا شئت ، ومع أنى لا أريد أن أظل معك ، الليلة ، لك إذا لم ترغبى بالإصغاء إلىَّ فيمكنك أن تغادرى المكان إنى أعيش منذ شهر فى هذه الدار ، وَعلىَّ ، ببساطة ، أن أحدثك عنها ، أحدثك أنت ، الشخص الذى يسرنى أن أبعده عن مثل هذا الحديث ، أردت أن أبعدكِ عنه يا عزيزة قلبى ، لكنك سألتنى ، ويجب الآن أن تسمعى كل الجواب .

السيدة الطيبة قامت فعلاً بنوع من محاولات الانتحار بسبب هذه الغرفة التى تحتاج إليها الخادمة . عليكِ أن تُقدرى مَدَى الحساسيّة التى وصلوا إليها ، وأى شخص حسّاس هى ، وأنواع المتاعب التى تعانيها ، لكنهم ارتحلوا الآن ، رحلوا لثلاثة أشهر ، هم عادة يمضون تسعة أشهر من كل

سنة بعيدًا عن بيتهم ، السلاّب العجوز ، أو أى إنسان يعيش هناك ، حدث أن كان أحد المهتمين الحقيقيين بـ دانتى من القلة الذين تبقّوا لنا ، أحد القلة الذين يمكن أن نأخذهم مأخذ الجد ، تماماً مثل راعى أبرشيتنا . هى حقيقة ، آمل باعتبارك مسيحيةً مثقّفة أن تكونى على علم بها . تسعة أشهر فى السنة ، الدار خالية . خلال هذا الزمن يظل العجوز « بلوك » حارساً على الثيّل ، وهو الذى يرعاه ، مادام ليس فى الدار ما هو أكثر روعة من الثيل المرتّب . أرضية غرفة الكلب يجب ألا تكون مشمّعة ، وألاّ يسمح بدخول أطفال فى الدار » .

صوت خشن فى الغرفة المجاورة صاح :

ـ « اصعدوا ، هيا أيها القطيع اصعدوا ، لا شىء للأولاد ، مانويلا ، أحلى شىء صغير هذا الجانب من السماء ! » .

همست : « فريد لماذا لا يسمح للأطفال بدخول الدار ؟ » .

« لا يسمح للأطفال بدخول الدار ، لأن الزوجة لا تحبهم ، إنها تنفر من الأطفال ، وهى لديها حساسية لوجود أى منهم فيها ، تشمّ رائحتهم حتى بعد تسعة أشهر . سبق لبلوك وهو المحارب القديم المعوّق أن ترك مرة طفلين يلعبان على الثيّل . تركهما الرجل فى السرداب ، وحين عادت الزوجة اكتشفت ذلك ، فاشتعلت غضباً . هذا هو سبب حذر « بلوك » الشديد . سألته مرةً أن كان ممكناً أن يزورنى أطفالى يوماً : فصار لونه أبيض مثل الورقة وقال : أنا مسموح لى أن أسكن معه على افتراض أنى أساعده على الاهتمام بالثيل ، ولأنى أعمل على جعل جهاز التدفئة فى هيئة جيدة . لى حجرة صغيرة فى الطابق الأرضى بعيدة عن الصالة ، هى فى الحقيقة غرفة حفظ

القبّعات والمعاطف . حينما أستيقظ فى الصباح ، تقع عيناى على لوحة ألمانية قديمة ، بألوان ناعمة قديمة : نزُل ، أو ما يشبه ذلك .

شعرت برغبة فى سرقة واحدة من هذه الصور ـ هناك الكثير منها فى المكتبة ـ لكنهم يراقبونها مراقبة دقيقة ، كما أنه ليس إنصافاً بالنسبة لبلوك . . »

« مانويلا ستغنى عن الحب ! » ، صاح صوت من الغرفة المجاورة :

ـ « حتى بلوك يعتقد بأن الزوجة امرأة سحاقية » .

ـ « أوه ، يافريد ، ألا تكفّ ، هل نذهب إلى الفندق ؟ » .

ـ « دقيقة أخرى فقط ، عليك أن تستمعى لى دقيقة أخرى ، بعدها سنمضى وستعرفين أين أعيش ، وكيف أعيش . أحياناً يُفَاجِئُنَا راعى الأبرشية فى الأماسى إنه الشخص الوحيد المسموح له بدخول الدار . كل أدب دانتى ملك يده . بلوك لديه أوامر بضمان راحته وتوفير التدفئة له ، وإسدال الستائر ، وقد رأيته أكثر من مرةٍ ، راعى الأبرشية هذا ، وفى وجهه متعة ناعمة ، وفى يده كتاب ، وإبريق شاى إلى جانبه ، مع دفتر ملاحظات وقلم . سائقه يجلس منتظراً فى الطابق الأسفل ، تحت معنا فى السرداب ، يدخن غليوناً ، ويخرج بين وقت وآخر يتفقّد السيارة . حين يتهيأ الراعى للرحيل يقرع الجرس ، فيقفز السائق على قدميه ، ويخرج بلوك أيضاً ، يسمح لنفسه بدعوته « رجلى الطيّب » ، فينفحه هذا بشىء . هذا كل ما عندى . نستطيع الآن أن نمضى إذا شئتِ . هل تريدين الذهاب؟» .

أشرتُ له برأسى غير قادرة على الكلام : غلبتنى دموعى . كنت مرهقة

جدًّا ، ولا تزال الشمس مشرقة فى الخارج ، بدا كل شىء قاله لى فريد زائفاً لأنى أحسست بالكراهية فى صوته . وفى الغرفة المجاورة صاح الصوت فى مكبرة الصوت :

ـ « أيها السادة ، فى الوقت المحدد لتروا مانويلا ، لتسمعوها ، الصغيرة العزيزة التى ستفطّر قلوبكم ! » .

سمعنا شخصاً يتسلّق إلى أرض الألعاب من الجهة الأخرى . نظر لى فريد : فُتِحَ باب فى العمود الوسطى وأُطبِقَتْ بقوة ، اشتعل ضوء ، وابتدأت « الكاليوب » عبر مكبرات الصوت فى أرض الألعاب . جرى الضوء إلى الداخل ، وكانت هناك يد تلفّ ستارة الخيش ، وفى العمود الأوسط فتحت نافذة ، نظر إلينا رجل شاحب طويل الوجه ، وقال :

ـ « هل تريدان ركوباً أيها الرعاع ؟ الركوب الأول مجاناً طبعاً » .

خلع قبعته ، فانهال شعر أشقر على جبهته ، حك رأسه ، وأعاد وضع قبعته ، ونظر إلىّ بهدوء . كان وجهه حزيناً وإنْ كان يبتسم ، ثم نظر إلى فريد وقال :

« كلا ، كلا ، لا أظن زوجتك تحبها » .

قال فريد : « حقًّا ؟ » .

ـ « كلا ، لن تحبها » .

حاول أن يبتسم لكنه لم يفلح ، وهز كتفيه . نظر فريد إلىّ . أغلق الرجل النافذة ، دار حول « الكاليوب » باتجاهنا ، ووقف إلى جانبنا : كان طويلاً كما أن سترته قصيرة جدًّا ، وذراعاه شديدا البياض . نظر إلىّ نظرة فاحصة ، وقال :

ـ « إننى متأكد ، إن زوجتك لا تحبها . لكنى يمكن أن أنتظر إنْ شئتما أن ترتاحا مدة قصيرة أخرى » .

قلت : « أوه ، كلا ، لقد عزمنا على الرحيل » .

فى أثناء ذلك بدأت قطع الخيش تُطْوَى وكان بضعة أطفال يتسلقون ليركبوا الخيول ، وليصعدوا فوق البجع . نهضنا وخطونا نازلين . رفع الرجل قبعته ، ولوّح لنا بيده وصاح :

« حظًّا سعيدًا ، إذن حظًّا سعيْدًا ! » .

رددت عليه : « شكرًا » .

لم يقل فريد كلمة . سرنا ببطء عبر أرض الألعاب ، بدون أن ننظر إلى الوراء . قرّب فريد ذراعى إليه أكثر ، وقادنى إلى شارع مومسن . سرنا على مهل فى أمكنة ملأى بكسر الحجارة ، واجتزنا الكاتدرائية باتجاه الفندق . لا يزال الهدوء يعم الشوارع حول المحطة ، ولا تزال الشمس مشرقة ، ضوؤُها يكشف الغبار الذى رقد فوق الحشائش النابتة بين الأنقاض .

وارتفع إيقاع خيول الألعاب فى داخلى ، وأخذت أشعر بالوهن . همستُ :

« فريد ، يجب أن أنام أو أجلس .

رأيت قلقَهُ ، أحاطنى بذراعه ، وقادنى داخل بناية مهّدمة ، جدرانها مسودّة من حريق ، جدران عالية أحاطت بنا « مختبر أشعة إكس إلى اليسار» عبارة تشير إلى مكا مًّا . قادنى فريد خلال بابٍ مفتوح أجلسنى على بقايا جدار . رحت أنظر إليه بوَهَنٍ وهو يخلع سترته . ثم أرقدنى وطوى سترته ليريح رأسى عليها .

أحسست بجسدى على شيء ناعم وبارد ، تلمّست طريقى إلى طرف المبنى ، تلمست القرميد ، وهمست :

« يجب ألاّ أمضى إلى الألعاب ، لكنى أحبها كثيرًا ، أحب الركوب عليها» .

« هل آتى لكِ بشيء ؟ » سألنى فريد برقة وأكمل : أُحْضِرُ لكِ بعض القهوة ، لسنا بعيدين عن المحطة »

قلت : « كلا ، حسبك أن تظل معى . أنا متأكدة من أنى سأتمكن من المشى إلى الفندق خلال دقائق . حسبك أن تظل معى ، يافريد » .

ـ « أجل » .

قال فريد ذلك ووضع يده على جبينى .

نظرتُ إلى الحائط الرمادى المخضرّ ، الملطخ بالطين الأحمر ، حيث يقبع تمثال محطّم ، ولوحة لم أستطع قراءتها . كنت لحظتها أستدير أولاً ببطء ، فى دائرة وقدماى هما المركز الثابت لدائرة يرسمها جسدى ، هو الآن أسرع أسرع . هى حالة تشبه ما فى السيرك قليلاً ، حيث الفتاة الجميلة يحملها من قدميها ويدوّرها مُجالدٌ قوى .

فى البداية كنت أميز الجدارّ المخضرّ ذا اللطخ الحمراء التى خلّفها التمثال عليه ، وفى الجهة الأخرى كان الضوء الأبيض موقدًا فى النافذة المفتوحة ، كان يعكس شظايا بيضاً وخُضْرًا أمام عينى ، لكن خطوط حدوده غمضت ، والألوان تداخلت فى بعضها ، والمزيج الشاحب من الأصفر والأبيض دار أمامى ، أو أنا أمامه ، لا أدرى أى الحالين ، حتى تسارعت الألوان فكونّت ومضاً لا لون له تقريباً . وإلى أن تباطأت الحركة .

فأدركت أنى لم أكن أتحرك ، وأن الحركة فى رأسى وحده ، رأسى يدور ، يهتز، وأحياناً يبدو واقعاً إلى جانب جسدى بدون أن أكون متصلةً به ، ثم هو عند قدمى ، واستمر ذلك لبضع دقائق ، انتَمى بعدها إلىَّ واتصل بأعلى رقبتى .

بدأ رأسى يتدحرج حول جسدى ، لكن ذلك لم يك حقيقيًا ، تلمّست حنكى بيدى ، لمسته الكرة العظيمة ، حتى فى اللحظات التى بدا فيها رأسى مطرحا عند قدمى ، كنت أشعر بحكى . لعل عينىَّ هما اللتان تتحركان ، لا أدرى ، الشيء الحقيقى الوحيد هو الدوار ، حموضة لاذعة صعدت إلى بلعومى ، ثم انسحبت تصعد ببطء مرة ثانية . أطبقت عينىَّ ، ولا جدوى من ذلك . لا رأسى وحده استدار ، بل أحسست بصدرى وساقىَّ يرتبطان بتلك الدورات الحُمْقِ ، وشكّلت جميعاً دوائر بالية مجنونة جعلت الغثيان أكثر شدة .

لكنى حينما أبقيت عينىَّ مفتوحتين ، أستطيع القول : إن ذلك القسم من الجدار ظل فى مكانه ، وكما هو : قطعة من جدار مصبوغة بالأخضر ، حدودها دكناء اللون فى الأعلى . وبعض كلمات مّا استطعتُ تمييزها مكتوبة مصبوغةبالأخضر ، دكناء اللون فى الأعلى .بعض كلمات مّا استطعتُ تمييزها مكتوبة ومصبوغة بالنبى القاتم فوق الأخضر الخفيف . تلتمُّ الحروف أحياناً كأنها حروف ضوئية على لوحة فحص البصر ، بعدها تنتفخ سجقاً بنيًا قاتماً ، تنتشر إلى الخارج بسرعة شديدة ، حتى لا يمكن بعد ذلك إدراك شكلها أو معناها ، تنفجر من بعد لتصبح فقاعة بنية على الجدار ، لا تخضع لأية قراءة ، و من ثم وبعد دقيقة ـ تلتمّ مرة ثانية حتى تصبح هباءاتٍ طائرةً صغيرةً ، لكنها لا ترتعش .

إنه الدوار ، ذلك هو المحرّك الذى كان يدوّرنى ، هو محور خيول الألعاب الدوّارة . وكانت انتباهةً صَادِمَة ، أدركت فيها أنى كنت نائمة متمددةً عى الأرض تماماً ، وعلى البقعة السابقة التى استرحت عليها دون أن أتحرّك بوصةً واحدة عنها . أدركت هذا حين توقف الدواء لحظة . كل شىء كان هادئاً . . كل شىء كان فى مكانه الملائم مرة أخرى ، رأيت صدرى ، الجلد البنى القذر لأحذيتى ، ووقعت عيناى على كتابة الحائط ، والتى استطعت الآن أن أقرأها :

« طبيبك سيعينك إنْ أعانه الله » .

أطبقت عينى ، بقيت كلمة « الله» معى ، فى البداية كانت ثلاثة حروف كبيرة ، بنيّة قاتمة وراء أجفانى المطبقة ، ثم لم أعد أرى الكتابة ، وبقيت معى بشكل كلمة ، غطست فىّ ، بدت تسقط أعمق وأعمق ، وأكثر عمقاً، دون أن تصل إلى القاع ، وفجأة صعدت إلى أُعلى ، صعدت معى إلى السطح ، ليست كتابة ، لكنها فقط كلمة« الله » .

بدا أن الله وحده هو الذى بقى معى فى هذا الدوار الذى غشى قلبى ، وملأ أعصابى ، كان يدور معى مثل الدُّمَى . . غمرنى عَرَقٌ بارد ورعب مدمّر كانت هنالك لحظات فكرت فيها فى فريد ، والأطفال ، رأيت وجه أمى ، والرضيعين ، مثلما أراهم فى المرآة ، لكنهم جميعاً انزاحوا بعيدًا فوق هذا المد من الغثيان ـ ملأتنى لا مبالاة بهم ، بقيت لا شىء معى غير كلمة « الله» .

بكيت ، لم أعد أرى شيئاً ، لم أفكر فى بشىء غير تلك الكلمة المفردة .

دموع ساخنة غزيرة تفجرت من عينى على وجهى . ومن مجرى الدموع

على حنكى وعنقى ، والتى ما أحسبست بها ، أستطيع القول أنى كنت نائمة على جنبى . . مرةً أخرى بدأت أدور ، أسرع من قبل ، ثم اطَّرَحْتُ ساكنة تماماً ، وانحنيتُ فوق حافة الجدار المهدّم وتقيأت فى الحشائش الخضر المغبّرة .

لمس فريد جبهتى كما اعتاد أن يفعل . سألنى بحنوّ :

ـ « هل تشعرين بتحسن الآن ؟ » .

ـ « نعم ، أشعر بأنى أحسن » .

أجبته ومسح حانياً فمى بمنديله .

ـ « فقط أشعر بأنى متعبة جدًّا » .

قال : « يمكنك أن تنامى الآن ، إنها بضع خطوات من الفندق .

قلت : « نعم ، أنام » .

خالطت شحوبَ وجهها عتمة جعلت جلدها يبدو قريباً من السُمْرة ، كما أن بياض عينيها اكْتَسَى بلون سيىء . سكبت بعض الليمون ، شربته كله ، تأخذت يدى وضغطتها على جبينها .

سألتها : « هل أطلب طبيباً ؟ »

قالت : « كلا ، أنا بخير بالآن . إنه الجنين . كان يقاوم مجريات منطقنا، الفقر بانتظاره » . فأكملت : « المقاومة ، إنه زبون مستقبل للدوائيين ، يصير أبرشيًّا مدلّلا . لكن سأدلّله » .

قالت : « ربما يصير راعى أبرشية ، وليس أبرشيًّا عاديًّا ، قد يصير دارساً لذاتى » .

« أوه « كيت » لا تحاولى أن تكونى فكِهَة ، كيف تعلمين ما سَيَؤُول إليه أطفالنا ؟ قد تكون لهم قلوب من حجر ، قد يبنون مقصورات لكلابهم ، ويمقتون الأطفال . لعل المرأة التى تمقت الأطفال كانت من قبل واحدة بين خمس عشرة كن يعشن فى مكان أضيق مما لكلبها الآن ، لعلها . . . » .

لم تتكلم « كيت » صمتت ، قَرْعٌ متكرر بدأ فى الخارج ، انفجارات وضربات تشبه الانفجارات . هرعت إلى النافذة وفتحتها بقوة . كانت الحرب كلها فى ذلك الضجيج : رعد الطائرات ، دوى الانفجارات ، والسماء انقلبت رمادية قاتمة تحجبها مظلات فى مثل بياض الثلج هبطت ببطء تحمل أعلاماً حمرًا خفاقة ، تحمل هذه الكلمات :

« مطاط كريس - يحمى ويمنع من ! » .

اجتازت أبراج الكاتدرائية المستدقة فهبطت من فوق سطح المحطة ، نازلة تطفو فى الشوارع هى والأعلام ، وكنت أسمع هنا وهناك الصيحات الاحتفالية للأطفال الحاملين فى أيديهم أعلاماً ومظلات . . حتى هبطت .

سألتْ كيت : « ما الذى يجرى ؟ » .

- « أوه ، لا شىء ، بعض وسائل الإعلان » .

لكن جاء الآن سرب طائرات هدر فوق الرءوس بلمعان مخيف ، وطار منخفضاً فوق الأسطح بأجنحة رمادية مائلة ، وضجيج المحركات يتوجه نحو قلوبنا حتى تطبع عليها علامة الطائرات . رأيت « كيت » ترتجف ، ركضت إلى سريرها ، رفعت يدها :

- « أوه يا إلهىٰ ، ما هذا ؟ » .

سمعنا الطائرات تدور فوق المدينة ، وابتعدت منتظمة مرة أخرى ،

تلاشى أزيزها باتجاهٍ أفقى غير مرئى ، وغطتْ كل سماء المدينة بطيور حمر تغطس ببطء باتجاه الأرض ، غروب ممزّق ، وها هى ذى طيور مطاطية كبيرة حمراء توزعت فى السماء مثل غروب ممزّق . لم نستطع تمييزها حتى وصلت إلى مستوى البنايات : كانت لقالق مكسورة الأعناق ، هبطت وأجنحتها تخفق وسيقانها هاطلة منها بصورة مخيفة كأنها مجموعة من المشنوقين سنزلون من السماء : غيوم مطاطية صغيرة حمراء نابضة ، صامتة وبشعة أبحرت نازلة خلال سماء المساء الرمادى . ومن الشوارع انطلقت أصوات أطفالٍ مبتهجين بها ، ضغطت « كيت » على يدى ، مِلْتُ عليها وقَبلتها .

قالت بصوت خفيض : « فريد ، تحمّلتُ ديوناً ! » .

قلت : « ومن يبالى ؟ أنا استدنت كذلك » .

كثيرًا ؟ » .

« نعم ، كثيرًا ، لم تبق يمكن أن تقرضنى شيئاً . ليس أصعب من أن يعطيك أحد ماركاً فى مدينة بها ثلاثمائة إنسان التفكير بهذا وحده يُنْضِحُنى عرقاً . »

«ولكنك تدرس الآن ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم ، لكنى أدخّن كثيرًا » .

ـ « هل عاودت الشرب ؟ » .

ـ « نعم ، ولكن ليس كثيرًا يا حبيبتى . الحقيقة أنى منذ غادرْتك آخر مرة شربت مرتين ، هل هذا كثير ؟ » .

أجبته : « ليس كثيرًا ، أفهم سبب شربك ، لكنك قد تحاول ألاَّ تشرب بعد مطلقاً » .

« صعب هذا خلال الحرب ، خلال الحرب أشرب من الضجر . أنت لا تتصورين حالة السكر على ضجر ، بعده تنامين على السرير ، كل شيء يدور أمام عينيك ، حاولى أن تشربى ثلاثة « بيلات » من ماء فاتر ، ستجدين نفسك أدمنت على الماء ، كذلك بالنسبة لغرفة النوم ، أنت لا تعلمين كم كانت الحرب مضجرة ، أحياناً أفكر فيك ، وفى الصغار ، أتصل بكِ عن طريق الهاتف قدر ما أستطيع ، فقط لكى أسمع صوتك . كان مرًّا أن أسمعك ، لكن هذه المرارة أفضل من أن أكون سكرانًا على ضجر » .

« إنها لا تستحق جهد الكلام يا حبيبتى ، تصوّرى فقط التلهّف طول النهار فى أجهزة الهاتف ، ودائماً تقريباً ، أصوات الضباط الكبار ، أنت لا تتصورين كم هم مضحكون أولاء الضباط الكبار عبر الهاتف ، ألفاظهم محدودة جدًّا ، يمكن أن أقول مائة وعشرون إلى مائة وأربعين كلمة ، ليس هذا كافياً لست سنوات من الحرب . يوماً بعد يوم ثمانى ساعات على الهاتف : تقرير ـ حدث ـ تقرير . . إلى آخر رجل انتشار الجنود إلى H Q ـ قاوم ـ الفوهرر ـ لا تضعف . . ثم : قليلاً من الأمومة ـ نساء . تصورى الثكنات . .

كنت موظف بدالة لثكنات عسكرية لمدة ثلاث سنوات تقريباً ، سنوات كنت أتقيأ فيها ضجرًا . وإذا أردت أن أخرج لأسكر ، فحيثما ذهبت وجدت الستائر واحدة اللون . لا أستطيع تحمّل منظر الستائر تعرفين عنى هذا » .

قالت : «أعرف » .

« كان هناك عريف واحد أعرفه، يقرأ ريلكه لابنته فى الهاتف ، أوشك أن أموت من هذا ، وإن كان فيه قليل من التغيير ، بعضهم كان يغنى ، وأكثر من هذا كان يُعَلِّمُ بعضهم البعض الآخر أغنيات فى الهاتف ، لكن معظهم كانوا يرسلون موتاً فى الهاتف . صوت بعضهم يتلوى خلال الأسلاك ، يزعقون بأصواتهم الرفيعة فى السماعة فى أذن الشخص الآخر الذى يريد أن يتأكد أكثر أن ناساً ماتوا . وإذا مات قِلَّة ، ففى رأى الضباط الكبار أن الحدث قد أُنجِزَ بشكل سيىء . ليس من غير سبب أن تُقاس عظمة المعارك بعدد الموتى ، لم يكن الموتى ضجرين يا حبيبتى ، وليست المقابر » .

نمت إلى جانبها على السرير ، سحبت الغطاء . فى الطابق الأسفل كان الموسيقيون يضبطون آلاتهم ، ومن البار يأتى صوت رجل يغنى ، صوت ناحب وجميل ، وبعده صرخة وحشية من امرأة تخترق غناء الرجل : لم نعد قادرين على تمييز الكلمات ، لكنها كانت تجاوباً مع جمال إيقاعى .

كانت القطارات تقعقع فى المحطة ، وصوت المذيع يصل إلينا من خلال الأصيل المتسرب مثل تذمرات خفيفة لصديق .

ـ « أنت تشعرين بميل إلى الرقص الآن ، أليس كذلك ؟ »

ـ « أوه ، كلا ، لطيف جدًّا أن أنام مرة بهدوء . أتمنى ذلك لو أنك اتصلت بالسيدة « رودر » لنرى إنْ كان كل شىء على ما يرام ، وأنا أحب أن آكل شيئاً يا فريد ، لكن أخبرنى أولاً بشىء آخر . لو أنك تشرح لى لماذا تزوجتنى؟ » .

قلت : « بسبب الإفطار ، طيلة حياتى أبحث عن شخص أتناول

الإفطار معه ، هكذا كان اختيارى ـ هذا ما يسمى ، أليس كذلك ؟ ـ ووقع الاختيارُ عليكِ ، كنت شريكة إفطار رائعة ، ولم أشعر بالضجر معك قط . ولا أنت معى كما آمل . . » .

قالت : « كلا ، لم أشعر بالضجر معك قط » .

« لكنك الآن تبكين فى الليل حينما تكونين وحيدة ، أيكون أفضل إن عدت والأمور على ما هى عليه ؟ » .

نظرت إلىَّ بدون أن تجيب ، قبلتُ يديها ، وعنقها . . لكنها استدارت وراحت تنظر بصمت إلى ورق الجدار . .

توقّف الغناء فى البار ، لكن فرقة الموسيقى تعزف فى هذا الوقت ، وكنا نسمع أصوات ناسٍ يرقصون فى قاعة الطابق الأسفل . أشعلت سيجارة . «كيت » لا تزال تنظر إلى الحائط ، لا تقول شيئاً . قلت لها بهدوء :

« يجب أن تتفهّمى أنى بكل وضوح لا أستطيع تركك وحيدة إنْ كنتِ حاملاً فعلاً . لكنى لا أدرى إنْ كنتُ أجد القوة لأكون محتَمَلاً ، كما ينبغى أن أكون ، لكنى أحبك ، آمل بألاّ يراودك شك فى ذلك » .

قالت : بدون أن تلتفت : « لا أشك فى هذا ، أنا حقيقة لا أشك . . » .

أردت أن أعانقها ، أمسكتها من كتفيها وأدرتها إلىَّ ، لكنى فجأة علمت أنى يجب ألاَّ أفعل ذلك ، قلت :

« إن حدث شىء مثل هذا مرة أخرى فيجب ألا تكونى وحيدة ، أليس كذلك؟ » .

ـ « إنى أكره السُباب الذى يُوَجَّهُ إلىَّ حين يرانى الآخرون فى الشقة حاملاً ، حين كنت أتوقع الطفل ، يا فريد ، أنت تذكر . . . » .

ـ « أذكر ، كان ذلك مزعجاً ، كان الوقت صيفاً ، ولم يكن لدىَّ سنت واحد ، ولا حتى ما يكفى لأن أشترى لك قنينة صودا » .

قالت : «وقد كنت نوامة جدًّا ، استمتعت حقيقة بدور البغىِّ ، كنت ميالةمثلهن للبصق على الأرض أمام الناس » .

ـ « أفعلتِها حقيقةً ؟ » .

ـ « ذلك صحيح ، بصقتُ على الأرض عند قدمى السيدة فرانك عندما سألتنى إلى أى حدٍّ مضيت ، إنه لبديع أن يسألك أحد : إلى أى حدٍّ مضيت» .

ـ « هذا هو سبب عدم حصولنا على الشقة » :

ـ « لا ، لم نحصل على الشقة لأنك تسكر » .

ـ « أحقاً تعتقدين فى ذلك ؟ » .

ـ «تماماً يا فريد ، المرأة الحامل تُسامَحُ على كثير من الأشياء ، أوه كنت سيئة المزاج » .

« سيكون خيرًا إذا استطعت أن تديرى وجهك إلىَّ ، فأنا نادرًا ما أراكِ» .

ـ « أوه ، لا تفعل ، جميل أن أنام هنا بهذه الصورة . وأنا ما زلت أفكر أى جوابٍ أقدمه لك » .

قلتلها : « خُذِى فرصتك ، سأحاول الحصول على شىء نأكله ، وأقوم بذلك النداء ، هل تريدين شيئاً تشربينه ؟ » .

« نعم أريد شيئاً من البيرة يا فريد ، وأعطنى سيجارتك » .

مدت يدها من فوق كتفها ، أعطيتها سِجارتى ونهضت ، كانت لا تزال مضطجعة ووجهها إلى الحائط وهى تدخّن ، أنا غادرت الغرفة .

كان الممرّ ضاجًّا ، وكنت أسمعهم يصرخون فى الأسفل ، فى القاعة ، وهم يرقصون . تريّثتُ ، تمشّيت أسفل السلالم فى وقت عزف الموسيقى ، الضوء الوحيد هناك كان يأتى من مصباح صغير عار ، كانت الدنيا مظلمة فى الخارج ، وقليل من الأشخاص يجلسون إلى موائدهم فى البار وراء البار جلست امرأة مختلفة ، كانت أكبر سنًّا من صاحبة المحل ، أبعدت أقداحها حين وصلت ، وأنزلت صحيفتها على بقعة البيرة ، انتقعت الصحيفة واسودّت ، وغمزت المرأة لى .

سألتها : « هل يمكن أن نحصل على شىء نأكله ؟ للغرفة رقم أحد عشر ؟ »

ـ « تعنى أن يُرْسَل إلى أعلى ؟ » .

أشرت برأسى : « نعم » .

ـ « لا يمكن ذلك ، نحن لا نقدم خدمات إلى الغرف . إنها عادة سيئة أن يأكلالمرء فى غرفته » .

قلت : « أوه ، لم أعرف هذا ، لكن زوجتى مريضة » .

« مريضة ؟ هذا كل ما نحتاج إليه ، آمل ألاَّ يكون شيئاً خطيرًا ، لا شيئًا معديًا ؟ » .

قلت : « لا ، إن زوجتى تشعر بأنها مريضة » .

رفعت الصحيفة من بقعة البيرة ونفضتها ، وبهدوء وضعتها على المدفئة ، ثم التفتت إلىَّ بهزة كتف وقالت :

ـ « حَسَن ، ما تريد ؟ لا شيء ساخنًا الآن . . انتظرْ ساعة أخرى » .

تناولت صحناً من رفِّ الصحون وراءها ومضت إلى الحافظة الزجاجية حيث الطعام البارد ، تبعتها ، اخترتُ قِطْعَتَىْ لحم ، وطلبت خبزًا .

ـ « خبز ؟ ولماذا الخبز ؟ لِمَ لَمْ تطلب بعض السلَطة؟ بعض سلَطة البطاطا ؟ » .

ـ « نحن نفضل أن نأخذ خبزًا ، ربما هو أفضل لزوجتى » .

قالت : « النساء المريضات لا ينبغى أَخْذُهن إلى الفنادق » .

وذهبت إلى مصعد الطعام وصاحت فى ممر أسطوانى :

ـ « خبز . . بضع قطعٍ من الخبز » .

وردَّ صوت مخنوق مستاء : « خبز !! » .

استدارت المرأة : « سيستغرق دقيقة » .

ـ « أود استعمال الهاتف » .

ـ « لتطلب طبيباً ؟ »

ـ « كلا » .

ودفعت الهاتف لى عبر المائدة .

قبل تدوير الأرقام ، قلت :

ـ « اثنان بيرة من فضلك ، وشنابز الآن » .

دورت رقم السيدة رودر ، سمعت الهاتف يدق ، وانتظرت ، دفعت

المرأة الشنابز عبر المائدة ، حملت قدح بيرة فارغاً إلى الحنفية ، وجاء صوت السيدة رودر فى الهاتف :

ـ « هلو ـ من يتكلم ؟ »

قلت : « بوكنر » .

ـ « أوه ، هو أنت ؟ » .

قلت : « هل تسمحين ، قط . . . » .

ـ « كل شئ على ما يرام ، كنت فوق . . . الأطفال سعداء جدًّا ، كانوا فى المعرض مع الشابين ، حتى إنهم حصلوا على بالونات وعادوا تَوًّا . . إنهم يلعبون مع لقالق حمر مدهشة ، من مطاط حقيقى ، بالحجم الطبيعى » .

ـ « هل عاد فرانك وصاحبته ؟ » .

ـ « كلا ، سيعودان فيما بعد ، ربما صباح غد » .

ـ « إذن كل شىء حقيقة على ما يرام . » قالت : « حقيقةً لا تقلق ، تحية لزوجتك كيف وجدت قلم الحمرة الجديدة ؟ » .

قلت : « عظيم ، شكرًا جزيلاً لكِ » .

ـ « عفوًا ، مع السلامة » .

قلت : « مع السلامة » .

نهضت . أنهيت الشنابز ، وراقبت كأس البيرة الثانى يمتلىء ببطء ، مصعد الطعام يتحرك أمامى ليوصل صحناً بأربع قطع خبز أبيض ، حملتُ كأسَى البيرة وصعدت بهما ، وضعتهما على كرسى بجانب سرير « كيت » . كانت لا تزال مضطجعة هناك ، تحدق فى ورق الحائط ، قلت :

« كل شيء على ما يرام فى البيت ، الأولاد يلعبون مع تلك اللقالق » .

لكن « كيت » حركت رأسها بعسرٍ ، ولم تجب حين أتيت بطبق الطعام ، كانت لا تزال مضطجعة هنا وتحدث فى ورق الحائط ، لكن إحدى الكأسين أُفرِغت لنصفها . » قالت :

ـ « أنا جد ظامئة » .

قلت : « استمرى ، اشربى » .

وجلستُ إلى جانبها على السرير . أخرجت منشقتين نظيفتين من حقيبتها ، فرشتها على الكرسى ، وأكلنا اللحم والخبز على المنشفتين النظيفتين ، وشربنا بيرتنا :

« لو تيسّر لى . . لو تيسّر لى أن آكل أكثر يا فريد . . » ونظرت إلىّ وابتسمت . « أنا لا أدرى الآن إن كنت آكل كثيرًا بسبب الحمل أو لأنى جائعة فعلاً » .

قلت لها : « استمرى ، كلى ، أى شيء آخر تريدين ؟ » .

قالت : « قطعة لحم أخرى ، فلفلة وكأس بيرة آخر . ويمكنك أخذ القدح » .

وأفرغت الكأس وناولتنى إياه . نزلت إلى البار ، وكانت المرأة وراء المنضته تملأ قدحاً ، تناولت شنابز آخر . نظرت إلىّ المرأة بحنو أكثر من السابق . وضعت قطعة لحم وفلفلة على الصحن ، ودفعته إلىّ عبر للمنضدة الرطبة.

الظلمة الآن شديدة فى الخارج ، والبار خالٍ تقريباً ، والراقصون فى الردهة صاخبون ، بعد أن دفعت المبلغ بقى معى ماركان فقط .

ـ « هل ستغادرون المكان غدًا مبكرين ؟ » .

قلت : « نعم » :

ـ « إذن من الأفضل أن تدفع أجرة الغرفة الآن » .

ـ « أنا قد دفعت توًّا » .

ـ « أوه ، حَسَن ، لكن من فضلك تأكد من جلب الأقداح والصحون قبل أن تغادرنا ، فقد عرفنا المتاعب التى سوف تجلبها إلى هنا ، أليس كذلك؟ » .

قلت : « طبعاً » .

كانت « كيت » تضطجع على ظهرها ، وتدخن :

ـ « هائلة الحياة هنا » . قالت وأنا أجلس إلى جانبها : « فكرة مدهشة أن تذهب إلى فندق مرة ثانية ، لم نأت إلى فندق منذ زمن طويل ، هل هو مُكْلِف ؟» .

ـ « ثمانية ماركات ! » .

ـ «أما زلت تملك هذا المبلغ ؟ » .

ـ « لقد دفعته ، وبقى لى ماركان » .

أخذت حقيبتها ، نفضت محتوياتها على السرير ، ومن بين فرشة الأسنان. وحافظة الصابونة وقلم الحمرة اصطدنا ما تبقّى من النقود التى أعطيتها لها فى أرض الملاعب . كانت أربعة ماركات .

قلت : « هذا جيد وكافٍ لأن نذهب وننال إفطارًا » .

قالت : « أعرف مكاناً لطيفاً يمكننا تناول الإفطار فيه إنه وراء النفق تماماً، إلى يميننا ونحن ذاهبان من هنا » . نظرتُ إليها واستأنفت : « هو مكان لطيف ، هناك فتاة فاتنة ورجل عجوز قهوتهم جيدة ، المكان الذى أنا مدينة له » .

سألتها : « هل الولد الأبله هناك أيضاً ؟ » .

أبعدت سيجارتها من شفتيها ونظرت إلىّ :

ـ « هل تذهب غالباً إلى هناك ؟ » .

ـ « كلا ، كنت هناك لأول مرة هذا الصباح ، أنذهب إليه صباح غد؟ » قالت : « نعم » .

استدارت إلى الجهة الأخرى باتجاه النافذة ونامت وظهرها إلىّ . أردتُ أن أقدم لها الصحن والبيرة، لكنها قالت :

ـ « لا تبالِ، سآكلها فيما بعد » .

بقيت جالساً إلى جانبها ، وإن كانت قد استدارت مبتعدة ، وارتشفت بيرتى . كان الهدوء يسود المحطة . خلال النافذة كنت أرى أعلى البنايات العالية الطويلة وراء المحطة . قنينة البراندى الهائلة واضحة فى الأضواء المعلّقة أبدًا فى المساء هناك . يمكن المرء أن يرى رجلها يشرب فى جوف القنينة . وفى أعلى البناية تلك الرسائل التى تتغير دائماً حروف مضاءة تتدحرج إلى الخارج ، ببطء قرأت :

استعمل عقلك ـ يتلاشى الخط ـ لا تبقَ فى الفراش .

تخرج الحروف متدحرجة فى الليل المظلم ، بعدها لا شىء بضع دقائق ،

ملأتنى رغبة فى معرفة ـ

عندما تعلّق فوق

إنها هناك ثانية ، تسقط عائدة فى الفراغ ، ومرة أخرى لا شىء لبضع ثوان ، ثم فجأة تضاء الحروف جميعها مرة واحدة :

تناول دولورن

ثم فى أصفر حاد :

يمكنك الاعتماد على دوائيك !

قالت « كيت » فجأة : « فريد ، أعتقد بأننا إذا ناقشنا ما تريد أن تعرفه ، لا أمل لك . لهذا لا أفضل مناقشته . يجب أن تعرف ما يجب عليك فعله ، وحتى إذا كنتُ حاملاً ، فلا أريدك أن تعود إلى البيت لتظل تصرخ هناك ولتضرب الأطفال وأنت تعلم أنهم أبرياء . لا أريد ذلك . لن أشتاق لصياح بعضنا على بعض » .

كانت لا تزال مضطجعة وظهرها إلىّ ، وكلانا يحدق بالحروف المضاءة فى أعلى البناية ، والتى تتغير الآن أسرع وأسرع ، أكثر وأكثر حدّة ، وفى ألوان قوس قزح مرسلة فى الظلام كلمات بألوان قزحية :

يمكنك الاعتماد على دوائيّك !

ـ « هل تسمعنى؟ »

قلت : « نعم ، سمعتُكِ . لماذا لا تستطيعين المجىء إلىّ بعدُ ؟ » .

ـ « لأنى لست بغيًّا . لا أحمل شيئاً ضد البغايا يافريد ، لكنى لست واحدة منهن . مرعب أن آتى إليكَ لأنام معك فى مكان ما ، فى ممر بناية

مدمّرة ، أو فى حقل ، ثم أركبُ الترام إلى البيت ، دائماً يتملكنى الرعب فى الترام ، الخوف من أن تكون قد نسيت أن تضع فى يدى خمسة أو عشرة ماركات ، لا أدرى كم يُدْفَع لأولئك النسوة بعد نومهن مع رجل » :

ـ «يأخذن أقل من هذا بكثير حسبما أعتقد » .

أنهيت بيرتى ، التفتُّ إلى الحائط ، تطلعتُ لزخرفة أشكال القلوب على ورق الحائط الأخضر وأكملت :

ـ « أظن أن هذا يعنى أن نفترق » .

قالت : « نعم أظن أن ذلك أفضل . ليست لى أية نيّة لإحراجك ، فريد أنت تعرفنى ـ لكن أظن من الأفضل لنا أن نفترق . الأطفال لا يفهمون حتى الآن ، هم يصدقوننى حين أقول لهم إنك مريض ، لكن كلمة مريض بالنسبة لهم تعنى شيئاً مختلفاً ، إضافة إلى ذلك ، كل ذلك التقريع فى البناية يؤثر فيهم . الأطفال يكبرون يافريد . هنالك الكثير من الناس يظنون أنك تزوجت امرأة أخرى ، لمْ تتزوج ، أليس كذلك يافريد ؟ » .

كنا لا نزال مضطجعين ظهرًا لظهر ، وكانت تخاطبنى كما تتحدث لشخص ثالث . قلت :

ـ « كلا ، لم أتخذ لى زوجة أخرى ، أنتِ تعرفين ذلك » .

قالت : « لا يستطيع المرء أن يكون متأكدًا ، لى شكوكى أحياناً لأنى لا أدرى أين تعيش » .

ـ « لم أتخذ زوجة أخرى ، لم أكذب عليكِ ، تعرفين ذلك » .

بدت مستجيبةً ، قالت :

ـ « كلا ، لا أظن أنك يوماً كذبت عليّ . لا أتذكر مثل ذلك فى أى حال .

ـ « هكذا إذن تعرفين » .

أخذت رشفةً من بيرتها من الكأس التى على الكرسى بجانبى وقالت :

ـ « فكّر فى هذا . لك حياة لطيفة سهلة ، تسكر حين تحب . . أنت تمضى وتتمشى فى المقابر ، وليس عليك غير أن تتصل بى وأنا آتى لك حين ترغب فىّ ـ وفى الليل تنام فى بيت هذا المتخصص فى دانتى » .

ـ « أنا لا أنام كثيرًا فى المجمعات السكنية ، أنا عادة أجد بقعة فى مكان آخر : أنا لا أحتمل تلك الدار . إنها ضخمة جدًّا وفارغة وجميلة وراقية . لا أحب الدور الراقية جدًّا » .

استدرت ، صعّدت نظرى من فوق ظهرها إلى الشعار المضاء فى أعلى البناية ، لا يزال كما هو :

يمكنك الاعتماد على دوائيّك !

ظلت الكلمات نفسها تتوهج طول الليل ، تزداد توهجاً وبألوان قوس قزح . نمنا هناك وقتاً طويلاً ، ندخن ولا نقول شيئاً . نهضت بعد ذلك وسحبت الستائر ، لكننا كنا نستطيع رؤية الكلمات حتى بعد إسدال الستائر . تعجبت من « كيت » ، لم تتكلم معى بمثل ذلك من قبل . تركت يدى تستريح على كتفها ولم أقل شيئاً . استمرّت فى نومها مدبرة عنى ، فتحت حقيبتها ، سمعت « تكّة » ولاعتها ، ورأيت الدخان يتصاعد نحو السقف من حيث تنام .

سألتها : « هل أطفىء الضوء ؟» .

ـ « نعم ، ذلك أفضل » .

نهضت ، أطفأت الضوء ، وتمددت إلى جانبها . إنقلبت على ظهرها ، وانتابتنى هِزَّةٌ حين اقتربت لكتفها والتمت يدى فوق وجهها . كان وجهها مبللاً بالدموع ، لم أجد شيئاً أقوله . أبعدت يدى عنها ، بحثت تحت الغطاء عن كفها الصغير وشددت عليه . سررت إذ تركتنى أفعل ذلك .

قالت فى الظلام : « اللعنة على الموضوع كله ، كل رجل ينبغى أن يعرف ما يفعله حين يتزوج » .

قلت : « سأفعل كل ما أستطيع ، والحقيقة ، كل ما استطعت هو أن أحصل لنا على شقة » .

« لا تكن سخيفاً » قالت وكأنها تضحك : « ليس هو موضوع الشقة . هل تعتقد فعلاً بأنها هى المشكلة ؟ » .

رفعت نفسى محاولاً النظر فى وجهها ، تركت يدها ، رأيت وجهها الشاحب دون وجهى ، رأيت طريق ارتحالها إلى البيت ، والذى أنزل إليه غالباً . وحين توهّجت الحروف مرة أخرى فى أعلى البناية ، رأيت وجهها بوضوح غارقاً فى الخضرة : كانت فى الحقيقة تبتسم . عدت إلى النوم على ظهرى ، فأخذت هى يدى وشدّت عليها بقوّة .

ـ « هل أنتِ حقيقةً لا ترين أن تلك هى المشكلة ؟ » .

قالت بشىءمن الحزم : « كلا ، كلا ، كلا كن الآن أميناً يا فريد . إذا جئت لك وقلت إنى وجدت شقة ، فهل ستُحْبَط أم سيسرك ذلك ؟ » .

قلت فورًا : « سأكون مسروراً ! » .

« كلا ، ستكون مسرورًا لأنى أستطيع عندئذ أعود لكم جميعاً . أوه كيف يمكنك حتى التفكير ... » .

كانت الدنيا مظلمة فى ذلك الوقت ، كنا نائمين ظَهرًا لظهرْ مرة أخرى ، وأنا ألتقت بين وقت وأخر لا أرى هل استدارت « كيت » ، لكنها ظلت تحدق فى النافذة نصف ساعة دون أن تقول شيئاً . وحين التفتُّ رأيت الكلمات تتوهج فى أعلى البناية .

يمكن الاعتماد على دوائيّك !

يمكن الاعتماد ...

جاءنا من المحطة التهدج المبهج للمذيع ، ومن الباب فى الأسفل جاء صخب الراقصين ، ولم تقل « كيت » شيئاً . وجدتُ عسيرًا على الكلام مرة ثانية ، لكنى خرجت عن صمتى بـ « أخيرًا ألا تريدين شيئاً تأكلينه ؟ » قالت : « أجل لو أوصلت لى الصحن من فضلك ، وأوقدت الضوء» .

نهضت ، أوقدت الضوء وعاودت النوم وظهرى إليها . سمعتها تأكل الفلفلة وقطعة اللحم . أوصلت لها أيضاً قدح البيرة ، فقالت :

ـ « شكرًا » .

وسمعتها تشرب . انقلبتُ على ظهرى ووضعت يدى على كتفها .

« إنه أمر لا أحتمله يافريد » ، قالت لى بهدوء وفرحت لأنها تكلمنى : «أنا أفهمك جيدًا ، ربما فهماً جيدًا جدًّا . أعرف مشاعرك ، وأعرف كم بديعة هى إذ تزخر بالبذاءة أحياناً . أعرف أنه الشعور ، وربما الأفضل لك

أن تكون لك زوجة لا تفهم ذلك أبدًا . لكنك تنسى الأطفال ، هم هناك ، هم أحياء ، أنا لا أحتمل الأمر بسببهم . أنت تعرف كيف كان الحال حين بدأنا ، كلانا ، نشرب أنت الذى رجوتنى أن أتوقف . . » .

ـ « لقد كان فعلاً أمرًا مزعجاً حين مضينا إلى البيت وشم الأطفال . الرائحة . لكنها غلطتى أنا ، كنت تشربين أيضاً » .

ـ « لست معنية بتحديد من المذنب فى هذا » .

أنزلت الصحن وارتشفت شيئاً من البيرة ،

ـ « لا أعرف ، لا أعرف أبدًا يافريد إنْ كانت هى غلطتك أم لا . لا أريد إدانتك يا فريد ، لكنى أحسدك » .

ـ « تحسدينني ؟ » .

ـ « نعم أحسدك ، لأنك لست حاملاً . يمكنك أن تمضى فى نزهات ، وتقضى ساعات فى المقابر ، وتسكر باكتئابك عندما لا تملك مالاً لتشرب . أنت تسكر بحزنك حين لا تكون معنا . أعرف انك تحب الأطفال وتحبنى أيضاً ، أنت تحبنا كثيرًا جدًّا ، لكن لم يخطر لك أن حالاً لا تحتمله وتبتعد عنه ببطء يسبّب موتنا . لأنك لست معنا . لا يخطر لك أن الصلاة هى الشيء الوحيد الذى يمكن أن يعيننا . أنت لا تصلى ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « نادرًا جدًّا ، لا أستطيع » .

« كل واحد يرى ذلك يا فريد ـ أنت تشيخ ، أنت تبدو شيخاً حقيقة ، مثل أعزب عجوز بائس . أن تنام بين حين وآخر مع زوجتك لا يعنى أنك متزوج بها . أخبرتنى مرة خلال الحرب أنك تفضل العيش فى زنزانة حقيرة

على أن تكون جنديًّا . لم تكن شابًّا صغيرًا حين كتبت ذلك ـ كنت فى السادسة والثلاثين . أحياناً أحس بأن الحرب تركت فيك خللاً ، صرت بعدها مختلفاً » .

كنت متعباً جدًّا ، وكل ما قلته أحزننى لأننى أعرف أنها على حق . أردت أن أسألها إنْ كانت لا تزال تحبنى ، لكنى خشيت أن يكون سؤالى مضحكاً . إعتدت أن أقول لها كل شىء كما يخطر لى ، لكنى الآن لم أسألها إن كانت لا تزال تحبنى .

قلت بإعياء : « ربما تركت فىَّ الحرب نَدْباً . فأنا دائماً تقريباً أفكر فى الموت ، كيت ، إنها تدفعنى للجنون . فى الحرب عدد كبير جدًّا من الموتى، عدد لم أر مثله من قبل . كنت أسمع فقط ، كنت أسمع أصوات غير مهتمة تقرأ أرقاماً فى الهاتف ، وتلك الأرقام هى أعداد الموتى حاولت تصوّرهم ذلك جيل كامل . مرةً قضيت ثلاثة أسابيع فيما يسمّى الجبهة . رأيت كيف يكون الموتى . أحياناً الخروج خلال الليل لإصلاح الخط ، وفى الظلام أتعثر بالموتى ، الظلام شديد ، لم استطع رؤية شىء . . أى شىء . سواد تام ، على نقطة العيب فيه . أصلحت الأسلاك ، ربطت جهاز الفحص ، تقرفصت هناك فى الظلام . وأنبطح حين ينبثق وهج أو تُطْلَقُ قذيفة ، وتكلمت فى الظلام مع آخر يجلس فى موضع على بُعد ثلاثين أو أربعين ياردة ـ لكن ما أخبرك عنه كان بعيدًا .

قالت بلطف : « ليس الله عنا ببعيد » .

قلت : كنت أتحدث بصوت يختبر الخط ، إنْ كان قد عاد يعمل ثانية . ثم كان علىَّ أن أزحف ببطء عائدًا ، أمسك الكابل بيدى ، تعثرت مرة

أخرى فى ذلك الظلام فوق الموتى ، وأحياناً أظل مطروحاً إلى جانبهم . مرة قضيت الليل بطوله . ظن الآخرون أنى أحد الموتى . بحثوا عنى ، حتى تخلوا عنى أخيرًا .

لكنى بقيت مطروحاً طولَ الليل بجانب الموتى الذين لم أستطع رؤيتهم ، كنت أحس بهم ـ بقيت بجانبهم ، لا أدرى لماذا ـ والوقت لا يمر لصالحى . وحين وجدونى ظنوا أنى كنت مخمورًا . وأحسست بالضجر حينما وجبت علىَّ العودة للعيش ـ أنت لا تصدقين كم كان الناس بعدها يُضْجِرُوننى . الموتى هم الرائعون » .

قالت ، دون أن تترك يدى :

ـ « أنت مزعج يافريد ، أعطنى سيجارة » .

بحثت عن سجائر فى جيبى ، أعطيتها واحدة أشعلت كبريتاً . وانحنيت عليها لأرى وجهها . بدت لى أكثر شباباً ، وأنها تشعر بتحسن ، ولم يعد جلدها أصفر .

سألتها : « ألا تشعرين بعد بأنك مريضة ؟ »

قالت : « كلا ، أبدًا أنا بخير . لكنى خائفة منك ، أنا فعلاً خائفة » .

ـ « لا تخافى منى . ليست هى الحرب التى أتعبتنى ، فسيكون الشىء نفسه تماماً ـ أننى ببساطة أضجر ـ يجب أن تسمعى ما يمر فى أذنى طيلة النهار : أكثره هواء ساخن »

قالت : « يجب أن تصلى ، فعلاً يجب أن ... إنها الشىء الوحيد الذى لا يُضْجِرِ » .

قلت : صَلِّ أنتِ من أجلى ، كنت قادرًا على الصلاة ، فقدت القدرة الآن » .

- « تحتاج إلى مرانٍ . يجب أن تثابر . ابدأ وابدأ مرة أخرى . السكر ليس جيدًا » .

- « حين أكون سكراناً أستطيع أحياناً أن أصلى جيدًا » .

- « لاخيرة فى ذلك يا فريد ، الصلاة للصاحى . إنها مثل الوقوف أمام واحد من ذلك النوع من المصاعد المتحركة وأنت تخشى أن تقفز عليك يجب أن تُبقى نفسك مشدودة القوى ، وفجأة تكون فى المصعد وهو يحملك إلى أعلى . « أحياناً أشعر بها واضحة جدًّا يا فريد ، حينما أضطجع يقظانة فى الليل وأبكى ، وحين يكون أخيرًا قد صَمَتَ كل شىء . أشعر غالباً بأنى ماضية خلال ذلك . بعدها لا أعنى بأى شىء آخر . لا الغرفة ولا القذارة، ولا حتى التعاسة ، وحتى بعدك عنا لا يعود يهمنى . بعد كل شىء يافريد، ليس من أجل تلك الثلاثين سنة الأخرى الطويلة أو الأربعين ، والتى مثلها هى طويلة جدًّا ، فإن فيها ما يجعلنا نتحمل مشقاتها معاً إلى نهايتها . وأشعر بأن علينا تحملها معاً . لكن يا فريد أنت تصغّر نفسك » ، أنت حالم واصطناع الأحلام خطر .

كنت فهمت الأم لو أنك تركتنا من أجل امرأة أخرى ، سيكون ذلك مزعجاً لى أكثر بكثير مما هو الآن ، لكنى سأفهمه . وإن كان بسبب تلك الفتاة التى فى كوخ الأكلات الخفيفة يافريد لاستطعتُ فهمه أيضاً .

قلت : « أرجوك ، لا تتحدثى عن ذلك » .

أكملت : « لكن ابتعدت فى أحلامك . هذا ليس جيدًا ، أنت تحب رؤيتها ، أليس كذلك ؟ الفتاة التى فى الكوخ ؟ »

ـ «نعم ، أحب أن أراها . أحب كثيرًا أن أراها . سأذهب كثيرًا إلى هناك وأراها ، لكنى لا أحلم أبدًا بهجرك من أجلها ، إنها تقيّة جدًّا » .

ـ « تقيّة ؟ كيف عرفت ذلك ؟ » .

ـ « لأنى رأيتها فى الكنيسة . إنى رأيتها هناك تركع فقط وتتلقى البركة ، لم أبق فى الكنيسة أكثر من ثلاث دقائق ، كانت تركع هناك مع الأبله ، وقد باركهما القس معاً . فرأيت كم ورعة هى ، رأيت ورعها فى حركاتها ، تبعتها لأنها لا مست قلبى » .

ـ « ما الذى فعلته ؟ »

ـ « لامست قلبى » .

ـ « هل أنا أيضاً لامست قلبك ؟ » .

ـ « أنتِ لم تلامسى قلبى ، أنت قلبت قلبى عالياً سافلا ، هذا ما يُعبّر عنه حسبما أعتقد بـ « أحبك كثيرًا » .

ـ « هل من نساء أُخريات لا مَسْنَ قلبك ؟ »

قلت : « نعم ، قليلات جدًّا . قليلات أولئك اللائى لامَسْنَ قلبى . وفى الحقيقة أنا لا أريد وصف الأمر بهذا المعنى ، لكنى لا أعرف تعبيرً أفضل . . لامَسْنَنِى بلطف ، هو ما يجب أن أقوله . فى برلين رأيت امرأة لامست قلبى . كنت واقفاً عند نافذة القطار . فجأة دخل قطار من الرصيف الثانى . توقفتُ نافذة فيه قبالة نافذتى ، وكانت النافذة مفتوحة ـ

كانت مضَبَّبة ـ وصرت أتطلّع فى ووجه امرأةٍ لامست قلبى فى الحال . كانت شديدة السُمرة طويلة ، وابتسمتُ لها . ثم بدأ قطارى يتحرك ، انحنيت إلى الخارج ، لوّحت لها طويلاً قدر ما استطعت رؤيتها . لم أرها مرةً أخرى ، ولم أرد أن أراها مرة أخرى » .

ـ « لكنها لامَسَتْ قلبك . أخبرنى بكل قصص الملامسات هذه يا فريد . هل لوّحت لك أيضاً مُلامِسةُ القلوب ؟ »

قلت : « نعم ، لوّحت لى . لأفكر قليلاً ، أنا متأكدة من أنى سأتذكّر الأخريات . لى ذاكرة جيدة للوجوه » .

قالت : « استمر يافريد ، تذكّر » .

قلت : « غالباً ما يحدث لى هذا مع الأطفال ، مع الرجال الشيوخ ، والنساء العجائز أيضاً ، للسبب نفسه » .

ـ « وأنا قلبتُ قلبك عالياً وسافلاً فحسب ؟ » .

ـ « أنتِ لامسته أيضاً . أوه يا حبيبتى . لا تضطرينى على ترديد هذه الكلمة . حين أفكر فيك ، فكثيرًا ما يحدث هذا : أراك تنزلين على السلم ، تتجولين وحدك خلال المدينة ، أراك تتسوقين ، تُطعمين الطفل . إذن ، هذه هى حالى معك » .

ـ « لكن الفتاة فى الكوخ قريبةُ جدًّا » .

ـ « ربما اختلف الأمر إذا رأيتها مرة أخرى » .

قالت : « ربما ، هل تريد أن تنهى بيرتى ؟ .

قلت : « نعم » .

وأوصلَتْ كأسها إلَيَّ فأنهيتها ، ثم نهضت ، رفعت الأقداح والصحون الفارغة ونزلت بها . رجلان شابان كانا يقفان عند المنضدة ، كشَّرا في وجهي وأنا أضع الأقداح والصحون الفارغة على المنضدة .

مرة أخرى كانت هناك صاحبة المحل ذات الوجه الأبيض عديم المسام . أشارت برأسها إلَيَّ ، وصعدت حالاً إلى الطابق العلوى . حين دخلت الغرفة نظرت إلَيَّ كيت وابتسمت . أطفأت النور ، خلعت ملابسى فى الظلام ودخلت الفراش . قلت :

ـ « إنها فقط العاشرة » .

قالت : « بديع ، نستطيع أن ننام تسع ساعات تقريباً » .

ـ « كم سيبقى الرجل الشاب مع الأطفال ؟ » .

ـ « إلى ماقبل الثامنه » .

قلت : « لكننا لا نريد أن نسرع بعد الإفطار » .

ـ « ألا يوقظنا أحد » .

ـ « كلا ، سأستيقظ أنا فى الوقت » .

قالت : « أنا متعبة يافريد ، لكن أخبرنى أكثر . ألا تعرف مزيدًا من قصص الملامسة ؟ » .

قلت : « قد أفكّر فى قليل منها » .

قالت : « استمر ، أنت رفيق لطيف ، لكنَّ هناك أوقاتاً أود أن أضربك فيها . أنا أحبك » .

ـ « إننى مسرور لأنكِ قلتِ هذا . أحسست بأن عليَّ أن أسألك . . » .

ـ « اعتدنا أن يسأل أحدنا الآخر كل ثلاث دقائق » .

ـ « لسنوات » .

قالتْ « لسنوات ، استمر ، أخبرنى » .

وأخذت يدى متشبّثة بها .

سألتها : « أعن نساء ؟ » .

قالت : « كلا ، أفضل أن أسمع عن رجال أو أطفال ، أو عن نساء كبيرات السن . لا أدرى إنْ كنت متأكدة من أمر الشابات » .

ـ « لا شيء تخشين منه » .

قلت هذا وانحنيت عليها ، قبّلتُ فمها ، حين اضطجعت ثانية ذهب بصرى إلى الخارج ، ورأيت شعارًا مضاءً :

يمكن الاعتماد على دوائيّك !

قالت : استمر» .

قلت : « فى إيطاليا . كثير من الناس لامسوا قلبى . رجال ونساء ، شباب وشيب . أطفال أيضاً . وحتى نساء ثريَّات ، ورجال أثرياء أيضاً »

ـ « قبل دقيقة مضت ، قلت إن الناس مُضجِرون » .

ـ « أشعر بأنى مختلف جدًّا ، أنا أفْضَلُ كثيرًا منذ عرفتُ أنكِ لا تزالين تحبيننى . لقد قلتِ لى أشياء مزعجة » .

ـ « لن أسحب منها كلمة ، نحن الآن نلعب قليلاً يا فريد . لا تنس أننا

نلعب . قريباً سنعود إلى الجد ـ ولن أسحب منها كلمة ـ وحقيقة أنى أحبك لا تعنى شيئاً ، فأنت تحب الأطفال أيضاً ، لكن لا تهتم حتى بـ كيف يحيون» .

قلت : أوه ، أعرف ، لقد كشفت عن نفسك تماماً . لكن حدّدى الآن اختيارك أيًّا تحبين ، رجلاً ، أو امرأة ، أو طفلاً ، وأى بلد ؟

قالت : « هولندا ، ألمانيا »

قلت : « أوه ، هذا يعنى أنك تتوقعين منى أن أجد لك ألمانيًّا ليلامس قلبك؟ أنت وَضِيعة ، فأنا خلال الحرب مرة واحدة فقط رأيت ألمانيًّا لامس قلبى ،و كان ثريًّا فى ذلك الوقت . لكنه لم يعد غنياً ـ كان ذلك ونحن نُساق عبر روتردام ، كانت تلك أول مدينة مدمّرة أراها ؛ لطيف أنى وصلت الآن مرحلة أن مدينة غير مدمّرة تحبطنى ـ فى ذلك الوقت كنت مشوَّشاً تماماً . رأيت الناس ، رأيت الخرائب ... » .

أحسست الآن أن قبضتها على يدى قد تراخت ، انحنيت عليها . رأيت أنها نائمة : فى النوم يبدو وجهها متغطرساً ، مهموماً جدًّا، شفتاها منفرجتان قليلاً فى مظهر المعاناة .

اضْطجعتُ ثانية، دخّنت سيجارة أخرى وبقيت مضطجعاً يقظانَ فى الظلام وقتاً طويلاً ، أفكر فى الأمر كله . حتى أنى حاولت أن أصلّى ، لكن لم أستطع ، وللحظة فكرت فى النزول مرة أخرى إلى الطابق الأرضى فقد أحظى برقصة على الأقل مع تلك الفتاة من مصنع الشيكولاته ، لأشرب شنابز آخر ، لألعب بالمكنات قليلاً ـ مؤكد أنها الآن مجاناً ـ لكنى بقيت فى النهاية حيث كنت . كل مرة أرى الشعار فى أعلى البناية يتوهج ، فيُضاء

ورق الجدران المخضرّ والمزخرف بقلوب . أرى ظل المصباح قُبالة الحائط ، وأرى نقوش البطانيات : دببة تلعب كرة ، وقد استحالت رجالاً يلعبون كرة : رياضيون بأعناق ثيران ينطحون لبعضهم فقاعات صابون فائقة الحجوم . كا الشعار هناك فى الأعلى :

يمكن الاعتماد على دوائيكَ !

ذلك هو الشىء الأخير الذى رأيته قبل أن أغرق فى النوم .

مازالت مظلمة فى الخارج استيقظت . لقد نمت نوماً عميقًا ، ولحظة استيقظت كنت أتمتع بشعور عظيم بالحياة الطيبة ، فريد مازال نائمًا وجهه إلى الحائط ، وكنت لا أرى غير رقبته النحيلة ، نهضت سحبت الستارة جانباً ، فرأيت الفجر الرمادى الباهت فوق المحطة . قطارات معاكسة تصل . صوت المذيع المخنوق يمر عبر الخرائب حتى يصل إلى الفندق . ويمكن سماع ضربات القطارات . كل شىء فى البناية هادىء . كنت جائعة ، تركت النافذة مفتوحة ، عدت إلى الفراش وانتظرت . لكنى كنت غير مستقرّة . أفكر دائماً بالأطفال ، اشتقت لهم ، أفكر فى الوقت ، مادام فريد لا يزال نائماً فهى ليست السادسة والنصف ـ لدى وقت كثير . نهضت ثانية ، ارتديت الجاكيت الخاص بى ، لبست حذائى وانسلَلْت خلال الممر نصف المضاء إلى المغاسل ، حتى وجدتها أخيرًا فى زاوية غير مضاءة ، كريهة الرائحة . لا يزال فريد نائماً ، وكنت أرى الساعات المتلامعة فى المحطة ـ مصفرّة متوهجة الأقراص ـ لكنى لم أستطع قراءة الوقت . فى أعلى البناية السامقة ، توهج الشعار ثانية ، سطعَ حادًّا فى الظلمة الرمادية :

يمكنك الاعتماد على دوائيك

اغتسلتُ جيدًا بدون إحداث ضجة ، ارتديت ملابسى ، وحين نظرت حولى رأيت فريدًا يراقبنى : اضطجع هناك يطرف بعينيه ، أشعل سيجارة ، وقال :

ـ صباح الخير .

قلت : « صباح الخير » .

ـ « هل تشعرين بعد بمرض ؟ » .

ـ أبدًا ، أشعر بأنى بخير تماماً » .

قال : « حسن ، لا حاجة للتعجل » .

قلت : « يجب أن أغادر المكان يا فريد ، قد بدأت أقلق » .

ـ « ألا نمضى لتناول الإفطار معاً ؟ » .

قلت : « كلا » .

صاحت صَفَّارةُ مصنع الشيكولاته عالياً ، صوتها الحاد شق الفضاء ثلاث مرات فى ذلك الصباح .

جلست على حافة السرير ، شددت أشرطة حذائى ، وأحسست بفريد يمرّر يده فى شعرى من الخلف ، تركه يتهدل بلطف من بين أصابعه وأشار:

ـ « إن كان كل أمس صحيحاً ، فافترضى أنه يعنى : أن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى زمناً . . ولكن ألا نشرب فنجانَ قهوة معاً على الأقل ؟ » .

لم أقل شيئاً ، شددت تنورتى ، وزررتُ قميصى ، تطلعت إلى المرآة ومشطت شعرى ، ما كنت أنظر إلى نفسى فى المرآة ، لكنى مشطتُ شعرى ، وأحسست بخفقان قلبى . أدركت الآن كل شىء قلته أمس ، ولم أشأ

استرجاعه . شعرت شعورًا كاملاً بأنه سيعود ، لكن كل شىء بدا الآن غير أكيد .

سمعته ينهض ، رأيته فى المرآة يقف إلى جانب السرير تماماً ، وآلمنى كم بدا مدمرًا . كان قد نام فى قميصه الذى كان يرتديه خلال النهار . شعره كان أشعث ، وقد بدا نكدًا بدون قصد سحبت المشط خلال شعرى ، لم أضع فى اعتبارى جديًّا أنه قد يهجرنا فعلاً ، لكنى أعتقد ذلك الآن .

سكن قلبى ، بدأ يسرع ، توقّف ثانية . راقبته عن قرب وهو واضع سيجارة فى فمه ، ويزرر بمللٍ بنطلونه البالى ، شد حزامه ، ارتدى جوربيه وحذائيه : إنه هنالك واقف فى حسرة مرّر يديه على جبهته وحاجبيه ، ولم أستطع تصديق أنى قد تزوجته لخمس عشرة سنة : كان غريباً علىَّ ذلك الرجل الضَجِرُ ، الملول ، الذى جلس الآن على حافة السرير ، يمسك رأسه بيديه ، تركت نفسى تهوى فى المرآة وتعيش على رؤيا حياة أخرى أنا فيها دونما زواج : إنها ستكون رائعة ، حياة لا زواج فيها ، لا أزواج مجهدى العيون ، يندر أن يكونوا يقظِين ، يبدأون نهارهم بالزحف إلى سجائرهم . سحبت عينى من المرآة ، مَشّطت شعرى فى ذلك المكان ومضيت إلى النافذة . هى أخفّ الآن . الرمادى الشاحب فوق المحطة ، حَلَّ فىَّ أنا بدون أن أدرى : فقد كنت لا أزال أحلم بتلك الحياة التى لا زواج فيها ، هذا الذى وُعِدنْا به . أسمع إيقاع التراتيل ، رأيت نفسى فى مجموعة الرجال الذين لم أتزوّجهم ، رجالٍ عرفتهم وما كانت لهم رغبة فى اختراق رحمى .

سألنى فريد وهو عند المغسلة : « أيمكننى استعمال فرشاة أسنانك ؟ »

نظرت إليه وقلت بتردد ؛ « نعم » .

وفجأة ذهبت إليه مرة أخرى . وصحت :

ـ « يا إلهى ، تستطيع على الأقل خلع قميصك وأنت تغتسل ! » .

قال لى : « ألم أفعل ذلك ؟ » .

وفتح ياقة قميصه ، بلّل المنشفة ، مسح وجهه ورقبته ، وأثارتنى حركاته اللامبالية .

قال : « سأعتمد دوائيًّا وأشترى فرشاة أسنان معتمدًا عليها . ماذا لو اعتمدنا دوائيًّا فى كل أمورنا ؟ » .

صرخت فيه ثانية : « فريد ، كيف يمكنك طرح نكات ، لم أرك مطلقاً فى مثل هذا الحال الطيب وفى هذا الصباح الباكر ؟ » .

قال : « لست فى حال طيب أبدًا ، ولا حتى فى حال سيىء ، وإن كان صعباً الشعور بالسرور دونما إفطار، ولا حتى قهوة » .

قلت : « أوه ، إنى أعرفك ، امْضِ ودعْ قلبك يُلامَس » .

كان يستعمل مشطى ، توقف الآن ، استدار ونظر إلىَّ : « أدعوكَ لإفطارٍ يا حبيبتى » . وقال : « أنتَ لم تعطنى أىَّ جواب حتى الآن » .

التفتَ مبتعدًا عنى ، استمرَّ فى تمشيط شعره ، وقال فى المرآة :

ـ « سوف أكون قادرًا على إعطائك تلك الماركات العشرة ، ربما فى الأسبوع القادم » .

ـ « أوه ، انْسَها ، ليس حتما عليك منحى كل نقودك » .

ـ « لكنى أودُّ ذلك ، وأرجوكِ أن تقبليها » .

ـ « شكرًا لك يا فريد ، أقدر لك ذلك ، فأنا حقًّا أتقبلها ، إنْ كنا ذاهبين لتناول الإفطار، فالأفضل أن تعجل لها » .

ـ « إذن ستأتين ؟ » .

ـ « نعم » .

ـ « أوه ، حسن ! » .

سحب رباطه تحت ياقته ، شده ، ومضى من فوق السرير ليأخذ سترته .

صاح : « سأعود . سأعود بالتأكيد ، أعود إليك ، لكنى لا أريد أن أضْطَرَّ إلى شىء أميلُ لأن أفعله من تلقاء نفسى » .

قلت : « فريد لا أظن هنالك أى شىء آخر لكى نناقشه بعد » .

قال : « كلا ، أنتِ على حق ، سيكون رائعاً أن أراكِ مرة أخرى فى حياة أستطع أن أحبك فيها قدْرَ ما أحبك الآن دون أن أتزوجك » .

همست : « كنت أفكر فى هذا » .

ولم أستطع حبس دموعى .

أسرع إلىَّ من حول السرير وطوَّقنى بذراعيه ، وسمعته يقول وفمه يستقر على رأسى :

ـ « كم هو رائع أن أراكِ مرة أخرى ، آمل ألاَّ يصدمك إقترابى منكِ هناك أيضاً » .

قلت : « أوه ، يا فريد ، فكَّر فى الأطفال !» .

ـ « ألا تعطيننى قبلةً ؟ » .

رفعتُ رأسى وقبلته .

انسحب منى ، ساعدنى على ارتداء جاكيتى، وحزمتُ أنا أشياءنا حين كان ينتهى هو من ارتداء ملابسه .

قال : « المحظوظون هم أولئك الذين لا يحب أحدهم الآخر حين تزوجوا . إنه لأمْرٌ مزعج أن يحب بعضهم بعضاً ويتزوجون » .

قلت : « لعلك على حق » .

كان الظلام لا يزال منتشرًا . وفى الممر كانت هناك رائحة تأتى من زاوية المغاسل ، وكان المطعم الذى فى الطابق الأرضى مغلقاً ، وليس هناك أحد ، ولا باب مفتوح . علّق فريد المفتاح على مسمار كبير بجانب المدخل المؤدى إلى المطعم .

كان الشارع ممتلئاً بالفتيات اللائى فى طريقهن إلى مصنع الشيكولاتة : كنت مندهشة للسرور البادئ عليهن ، أكثرهن ، يَسِرْنَ ذراعاً فى ذراع ويتضاحكن .

ونحن ندخل مطعم الأكلات الخفيفة ، دقت أجراس الكاتدرائية السابعة إلا ربعاً . أدارت لنا الفتاة ظهرها ، وهى تشغَل مكنة القهوة . كانت هناك مائدة فارغة واحدة . جلس الأبله قابعاً إلى جانب الموقد ، يمص مصاصته . كان المكان دافئاً وداخناً ، ابتسمت لى الفتاة وهى تستدير، وقالت :

ـ « أوه ! » .

ثم نظرت إلى فريد ، وثانية إلىّ ، ابتسمت وأسرعت إلى المائدة الفارغة لتمسحها . طلب فريد قهوة ولفائف خبز وزبدًا .

قعدنا ، وأراحنى أن أراها مسرورة بصورة حقيقية : أذناها محمرّتان من الانفعال وهى تُهيىء لنا الصحون . لكنى كنت قلقة ، مضيتُ فى التفكير فى الأطفال ، والإفطار لا يعنى تحقيق نجاح . كان فريد قلقاً أيضاً ، لاحظتُ أنه نادرًا ما ينظر إلى الفتاة وأنه متعب ، ولا ينظر لى حين لا تكون عيناى عليه ، وحين أنظر إليه يبتعد بنظره عنى ، كثير من الناس دخلوا «الكوخ» ، تناولت الفتاة لفائف الخبز والسجق والحليل . حسبت النقود ، أخذت بعضها ، وهى تنظر إلىّ بين حين وآخر وتبتسم ، كما لو أنها تؤكد فهماً شخصيًّا ، فهم شىء لما بدت ـ وهى صامتة ـ متيقنة منه . وحين هدأت الأمور قليلاً مضت إلى الأبله ، مسحتْ فمه ، همست باسمه فى أذنه ، فى حين كنت أنا أفكر فى بكل ما حدثتنى عنه .

لقد أُرْجِعْتُ بكل كيانى إلى الوراء حينما دخل القس الذى تلقى اعترافى أمس ـ ابتسم للفتاة ، أعطاها بعض النقود ، وتسلم منها ، عبر المنضدة ، علبة سجائر حمراء ، كان فريد يراقبه بانتباه أيضاً ، بعدها فتح القس العلبة وساحت نظرته بدون قصد حول الغرفة ، رآنى ، ورأيته يجفل ، هو ليس مبتسماً الآن ، ترك السيجارة تنزلق فى جيب سترته السوداء ، اتجه إلىّ وتردد ، وخطا إلى الوراء مرة ثانية .

نهضت وسرت إليه .

قلت : « صباح الخير يا أبى » .

ـ « صباح الخير » .

أجابنى ونظر حواليه فى حيرة ، وهمس :

ـ « يجب أن أتحدث إليك ، فقد كنتُ فى بيتك هذا الصباح » .

سألته : « ولكن لماذا ؟ » .

أخذ السيجارة من جيب سترته ، وضعها بين شفتيه وهمس ، وهو يشعل عود الثقاب :

ـ « إنكِ فى حِلٍّ تام من ذلك ، كنت أحمق ، اغفرى لى » .

قلت : « أشكرك كثيرًا ، كيف الأمور فى البيت ؟» .

ـ «تكلمت مع السيدة الكبيرة وبالمناسبة ، أهى والدتك ؟» .

تساءلتُ بفزعٍ : « أمى؟» .

ـ « تعالى ، وقابلينى فى وقت مّا » .

قال هذا وغادر المكان مسرعًا .

حين عدت إلى المائدة ، لم يقل فريد شيئاً ، بدا تعيساً جدًّا ، وضعت يدى فوق ذراعه :

ـ « علىّ أن أرحل يا فريد » .

ـ « ليس الآن ، أريد أن أتحدث إليك » .

ـ « ليس هنا ، يا إلٰهى ! فيما بعد ، إنَّ لك الليل بطوله » .

همس :

ـ « إننى عائد ، وقريباً ، هذه بعض النقود للصغار ، لقد وعدتُ . . . أليس كذلك ؟ اشترى لهم شيئاً ، ربما بعض الآيس كريم ، إن كان ذلك مما يحبونه » .

وضع ماركاً ، أخذته ، وضعته فى جيب سترتى .

همس : « فيما بعد ، ستأخذين ما أنا مدين به إليك » .

قلت : « أوه ، فريد لا تواصل التفكير فى هذا » .

قال : « يجب علىّ . . إنه لأمر مخيف أن أفكر فى أننا ينبغى أن . . »

همستُ رادّة عليه : « اتصل بى هاتفيًا » .

سألنى : « هل ستأتين إن أردتك فى الهاتف ؟» .

ـ « لا تنس أنى مازلت مدينةً لهم بثمن القهوة ، وثلاث كعكات مقلية » .

ـ « لا أنسى ، هل حقًّا تريدين الذهاب الآن ؟» .

ـ « يجب علىّ . . »

نهض ، وبقيت جالسة ، وراقبته يقف عند المنضدة وينتظر . الفتاة «عبرّتْ لى بابتسامة حين كان فريد يدفع الثمن .، ونهضت وسرت مع فريد إلى الباب» .

نادت علىّ : « تعالى مرة أخرى ! » .

وصحت مجيبة : « سوف أجيء ، وألقيت نظرة على الأبله ، الذى كان لايزال جالساً مُنشغلاً بمصاصته الجرداء» .

أخذنى فريد إلى موقف الحافلة ، لم نتبادل كلمة واحدة ، منح أحدنا الآخر قبلةً على عجل حين قدمت الحافلة ، ورأيته يقف هناك ، كما كنت غالباً أراه : رثّ الملبس وحزيناً .

استطعت أن أراه يمشى مبطئاً فى اتجاه المحطة بدون أن يلقى نظرةً واحدةً إلى الوراء .

شعرت كأنى بعيدة عنه بُعْد الأبدية ، وأنا أسير صاعدة على سلالم قذرة إلى شقتنا ، أدركت أنى لم أترك الأطفال مدة طويلة كهذه من قبل ، كان هنالك هرج جانبى فى النيابة ، أباريق تغلى تطلق صفيرًا ، ومذاييع تلقى تشجيعاتها وبشائرها الرسمية ، وعلى الطابق الثانى «مزويتر» يتشاجر مع زوجته ، لم يكن هناك أى صوت وراء باب شقتنا : ضغطت على زر الجرس ثلاث مرات ، انتظرت ، وأخيرًا سمعت الأطفال حين فتح بلرمان الباب ، الباب ، سمعتهم ثلاثتهم ، حييت بلرمان تحية متعجلة وتجاوزته راكضةً إلى الغرفة لأرى الأطفال : كانوا جالسين حول المائدة يظهرون سلوكًا أفضل من ذلك الذى يبدونه معى ، حديثهم وضحكهم تَلاشَى حين دخلْت ، كانت لحظة صمت وشعرت بندبة حزن ، خفت ـ دقيقة واحدةً لكنها دقيقة لا أنساها .

بعدها نهض الكبيران واعتنقانى ، وحملت أنا الرضيع بين ذراعىَّ ، قبلّته وأحسست بدموعى تجرى على وجهى ، كان بلرمان مرتدياً سترته ، حاملاً قبعته ، سألته :

ـ « هل كان سلوكهْم جيدًا ؟» .

قال : « نعم ، جيدًا جدًّا » .

ونظر الأطفال إليه وابتسموا .

قلت : «انتظر دقيقة»

وضعت الرضيع فى مقعده العالى ، تناولت محفظة نقودى من الدرج ، وخرجت مع بلرمان إلى الممر ، رأيت قبعة السيدة زوجة فرانك ، وقبعة السيد فرانك موضوعتين على المائدة فى الصالة .

قلت : « صباح الخير » .

السيدة همف كانت عائدة من المغسل عاقصة شعرها تحت ذراعها مجلة مطوية ، انتظرت حتى دخلت فى غرفتها ، فنظرت إلى بلرمان وقلت :

ـ « أربعة عشر ، أليس كذلك ؟» .

قال مبتسماً :

ـ « خمسة عشر » .

أعطيته خمسة عشر ماركاً وقلت :

ـ « شكراً جزيلاً » .

فأجاب : « بكل سرور » .

ثم أحنى رأسه على باب غرفتنا ، ونادى :

ـ « وداعاً أيها الصغار !»

ورد عليه الصغار : « وداعاً ! » .

عانقتهم كلهم مرة واحدة حين بقينا وحدنا ، منحت كل واحد نظرة فاحصة ، ولم اكتشف شيئاً فى وجوههم يتفق ومخاوفى . بحسرةٍ رحت أُهَيِّىء لهم «سندويتشات» المدرسة كليمنز وكارلا كانا ينشبان فى صناديقهما ، كارلا تنام على سرير حربى أمريكى ، كنا طويناه أثناء النهار وعلَّقناه فى السقف ، وكليمنت على أريكة عتيقة مستوية ، زاد طوله عن طولها ، بلرمان سوّى لهم حتى فراشهم .

قلت لهم : « أيها الصغار يرسل لكم أبوكم محبته ، أعطانى لكم بعض النقود » .

مشت « كارلا» إلىَّ وأخذت «سندويتشاتها» ، نظرتُ إليها : إن لها شعرَ فريد الأسود وعينيه ، وهى مثله حين تنظر بعيدًا فجأة .

كان الرضيع يلعب فى مقعده الصغير ، ويتطلع إلىَّ بين وقت وآخر كأنه يريد التأكد من أنى ما زلت فى مكانى ، ثم يمضى لاعباً .

قالت «كارلا» : ثم قلتُ :

ـ « هل أديتما صلاتكما ؟» .

ـ « نعم » .

ـ « سيأتى أبوكم إلى البيت قريباً » .

قلت ذلك وشعرت بعطف كبير على الأطفال، وجاهدت لكى لا أبكى مرةً أخرى .

ومرة أخرى لم يقل الطفلان شيئاً .

نظرت إلىَّ «كارلا» التى كانت جالسة على كرسى إلى جانبى ، تتصفح كتاباً مدرسيًّا وترشف حليبها بارتباك ، وفجأة ، نظرت إلىَّ ، وقالت بهدوء :

ـ « إنه ليس مريضاً . . إنه لايزال يعطى دروساً » .

التفتُّ ونظرتُ إلى «كليمنز» الذى كان جالساً على الأريكة منحنياً فوق أطلس ، نظر ساكناً وقال :

قال لى بيزم : « إنه يجلس جوارى» .

لم أكن أعرف هذا .

قلت « هنالك أمراض لايرقد فيها الشخص فى الفراش » .

لم يقل الطفلان شيئاً ، خرجا بحقيبتيهما المدرسيتين ، وخرجت أنا للممرّ، تابعتهما من هناك بعينىّ وهما يسيران بطيئين فى الشارع الرمادى ، كتفاهما مرخيتان قليلاً تحت ثقل الكتب ، لم أعد أرى الطفلين ، صرت أرى نفسى وحدها من فوق : فتاة صغيرة بضفائر شُقر ، تفكر فى حياكة صورة ، أو تأريخ موت شارلمان . .

حين رجعت إلى نفسى كانت السيدة فرانك واقفة أمام مرآة الصالة تسحب إيشارباً بنفسجياً لتشده فى المكان المناسب دون قبّعتها . .

كانت الأجراس تُقْرَع لقداس الساعة الثامنة . قالت :

ـ « صباح الخير » .

وتقدمت إلىّ تستقبلنى بابتسامة فى ظلامك الممر ، ثم راحت تسايرنى إلى غرفتنا .

قالت بلهجة ودية : « يقولون إن زوجك هجرك أخيرًا ، هل صحيح ذلك ؟» .

قلت بهدوء : « ذلك صحيح ، هو قد هجرنى » .

وعجبت من أنى لم أشعر نحوها بمزيد من الكراهية .

ـ « وهو يشرب ، أليس كذلك ؟» .

وشدت «الإيشارب» على عنقها الجميل .

يندر سماع صوت هناك ، لكنى كنت أسمع مناغاة رضيعنا فى غرفتنا وكأنه يكلّمُ قوالبه ، كما سمعت صوت مذيع المحطة يعلن خمس ، ست ، سبع مرات ، أستطيع سماعه بوضوح فى ذلك الصمت :

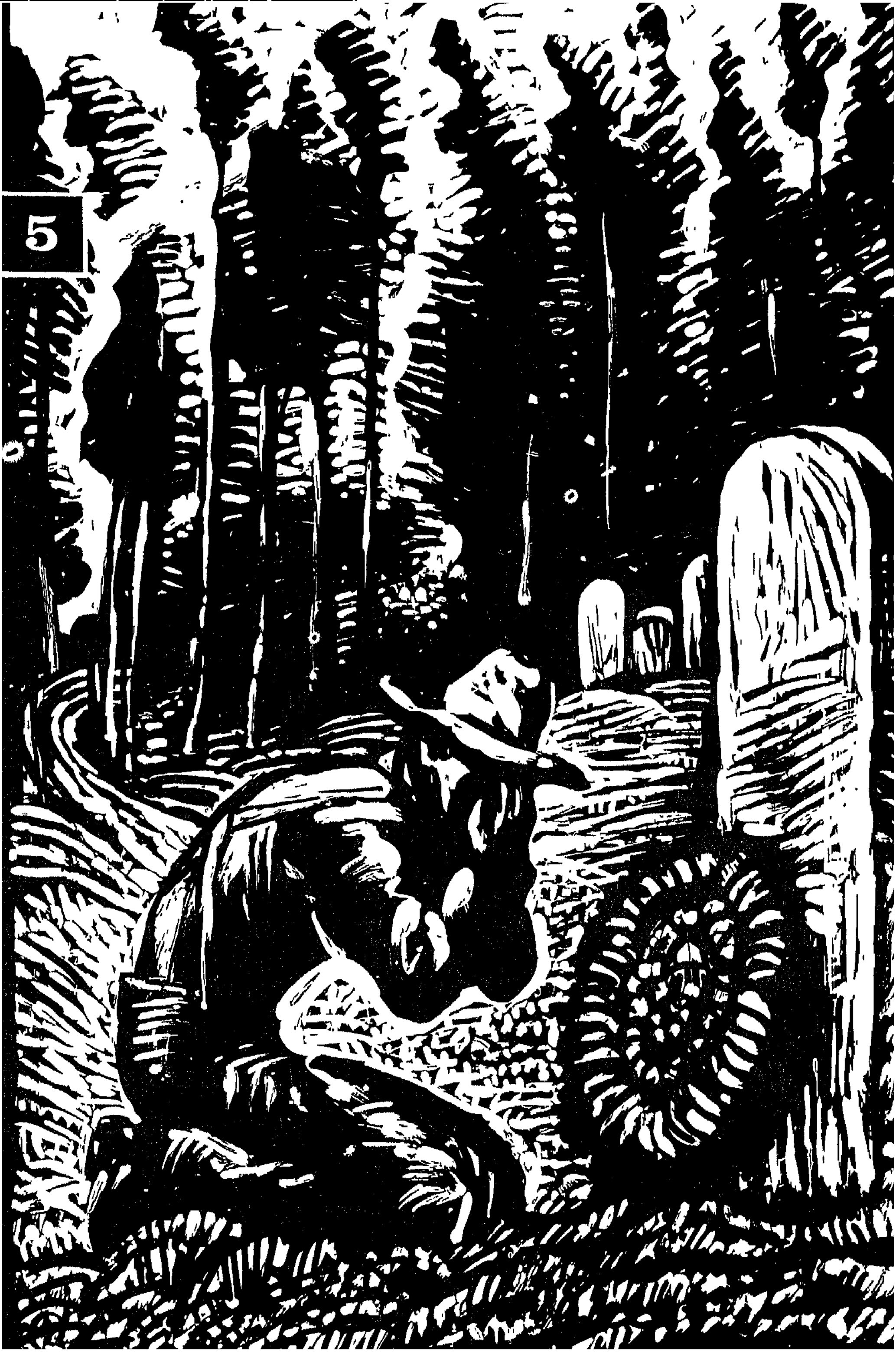
« إنها السابعة وتسع وثلاثون دقيقة ، لعله الوقت الذى تترك فيه زوجتك الفاتنة ، ولكن ربما لايزال بإمكانك أن تصغى إلى مارش «بلُوْر» الصباح البهيج . . » .

أستطيع أن أسمع الآن موسيقى الصباح ، والبشائر الرسمية المشجّعة وهى تَهْوى علىَّ مثل جلدات سَوْط ، السيدة «فرانك» تجلس قُبالتى ، لاتتحرك ولا تتكلم ، لكنى رأيت ذلك الألق الفتّاك بعينيها ، متشوقة هى لصوت الزنجى الخشن ، والذى سمعته أنا مرةً ، مرة واحدة فحسب ، وبقيت أنتظره سُدًى منذ ذلك الحين ، الصوت الخشن الذى غنى :

« . . . ولم يقلْ كلمة » .

قلت « وداعاً » للسيدة فرانك ، أبعدتها قليلاً عن طريقى ودخلتُ غرفتى ، لم تقل شيئاً ، حملتُ الرضيعَ ، ضَمَمْتُهُ إلى صدرى ، وسمعت السيدة فرانك تمضى إلى القدّاس .

5



تقف الحافلة دائماً فى المكان نفسه ، والفسحة التى تتوقف فيها مملوءة بالحُفَر ، فكلما وقفت فيها أحدثت ضجة توقظنى ، نهضت ونزلت منها ، وبعد عبور الشارع وجدت نفسى أمام واجهة مخزن مُعَدَّات : نظرت إلى إعلان

« سلالم - جميع الأحجام - ٢٠ , ٣ للعارضة » .

لم أقصد النظر إلى ساعة البناية كى أتأكد كم الوقت ، ولكنها كانت الثامنة إلا أربع دقائق - إن بدت الساعة الثامنة أو تجاوزت الثامنة ، فسأعرف أن الساعة مسرعة : الحافلة أكثر دقة فى الوقت من الساعة .

أقف كل صباح لمدة أربع دقائق أمام الإعلان :

« سلالم - جميع الأحجام ٢٠ , ٣ للعارضة » .

يلى الإعلان سلم ذو ثلاث عوارض ، ولأن الصيف ابتدأ ، فإلى جوار السلّم امرأة شقراء بالحجم الطبيعى مصنوعة من «البايير ماشه» أو الشمع ، متمددة على كرسيّها - لا أدرى أية مادة يستعملون لصناعة « المانيكانات» -

كانت المرأة تلبس نظارات شمسية وتقرأ رواية عنوانها : «استراحة من النفس» ، لم أستطع قراءة اسم المؤلف ، لأنه كان مخفيًا وراء لحية عفريت من بلاستك ينحني فوق حوض مائي ، في المخزن ، بين طواحين القهوة ومكاوي الملابس والسلّم تتمدد تلك « المانيكان» الشقراء بالحجم الطبيعي ، مضطجعة على كرسي الاستراحة وهي تقرأ رواية «استراحة من النفس » .

لكن اليوم ـ وحين خروجي ـ رأيت أن إعلان « سلالم كل الأحجام ـ ٣,٢٠ لكل عارضة» قد اختفى ، وأن المرأة التي أمضت الصيف كله مضطجعة كل كرسي الاستراحة تقرأ « استراحة من النفس » ، ترتدي الآن بدلة تزحلق زرقاء ، وتقف على زلّاجتين ، يرفرف شعرها في الهواء ، وإلى جانبها هذا الإعلان :

فكّر في رياضة الشتاء !

لم أفكر في رياضة الشتاء ، انعطفت إلى شارع «ملشيور» ، اشتريت خمس سجائر من الكشك على يسار مكتب الأبرشية ، وسرت مجتازةً البواب في الرواق ، حيّاني البواب ، هو أحد أصدقائي في هذا المكان ، يأتي إليّ أحياناً ويتفقدني في الطابق الأول ، يدخّن غليونة ويخبرني بآخر الشائعات .

أشرتُ برأسي للبواب ، وحييت عددًا من رجال الدين كانوا حاملين حقائبهم ويسرعون في صعود السلّم .

في الطابق الأعلى ، فتحت باب غرفة البدالة ، علقتُ سترتي وقُبعتي ، وألقيتُ سيجارتي على المنضدة وأتْبَعْتُها بقطع «الخردة» أوصَلْتُ الكهرباء بالبدالة ، وجلست .

شملتني السكينة بعد أن قعدت في مكان عملي : همهمة خافتة في أذني

تقول : « تبادُل » حين اشتعل الضوء الأحمر ، أدار واحد فى البناية أرقام هاتفه مرتين ، وتم الاتصال ، حسبت قطع نقودى المرمية على المنضدة - كانت ماركاً وعشرين - اتصل البواب حين أجابنى ، قلت :

« بوكنر يتكلّم ، صباح الخير ، هل وصلت الصحيفة؟» .

قال : « حتى الآن سأصعد بها إليك حالماً تأتى» .

- « إذن إلى اللقاء . . » .

- « إلى اللقاء . . » .

فى الثامنة والنصف وصل التقرير الذى يُمليه «مونسينور زمر» مدير الدائرة - عبر الهاتف ، كل واحد يشعر بالاستياء من «زمر» ، حتى القسس العاملون فى البناية ، والذين تحولوا من واجباتهم الرعوية إلى الإدارة ، فهو لايقول لأحد «رجاءً» ، ولا يقول «شكراً» ويقشعر جسدى كلما أدار أرقام هاتفه وأجبته ، كل صباح فى الثامنة والنصف تماماً يقول :

- « مونسنيور زِمر » .

وسمعت « برزكن » يدلى بتقريره :

- « خرجوا مرضى : فلدريك ، زك ، شابلين ، هوشل ، لم يقبل عذر «شابلين سودن» حتى الآن » .

- « ما قضية سودن ؟» .

- « لا فكرة يا سيدى » .

وسمعت تحسّرًا من «زِمر» ، هو الحال كلما ورد اسم «سودن» ، كانت تلك نهاية المكالمة .

الساعة قاربت التاسعة ولم ينته ضجيج المخابرات : نداءات آتية ، نداءات خارجة ، نداءات بعيدة عليَّ أن أتسلمها وأدخلها الخط مرةً ، وأخرى أنا أدخل على الخط ، أصغى إلى المكالمة حتى أصل إلى نتيجة أنها لم تتجاوز المائة والخمسين كلمة ، أكثر الكلمات استعمالاً عند الناس هى : «انتبه» ، إنها تظهر فى الكلام مرة بعد أخرى ، إنها حاضرة فى الكلام العادى.

« الصحافة اليسارية هاجمت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة اليمينية أهملت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة الكنسية امتدحت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« ارتحل سودن بدون عذر ، انتبه » .

« وبولز يواجه جمهوراً فى الحادية عشرة ، انتبه » .

« و ن ، م مختصر لـ : نيافة المطران » .

قضاة الطلاق يتكلمون اللاتينية حتى فى الهاتف حينما يجرى حوارهم عن المهنة : دائماً أُنْصِتُ وإن كنت لا أفهم كلمة واحدة ، أصواتهم رزينة ، وإنْ بدا غريباً إصغائى لهم وهم يضحكون من نكات فى يلقونها باللغة اللاتينية ، غريبان هذان الرجلان : الأب بتنر ، ومونسنيور سيرج ، هما الوحيدان فى المنطقة اللذان يبديان لى ودًّا ، فى الحادية عشرة اتصل «زمر» بسكرتير المطران الشخصى :

ـ « أقترح معارضة لغوغائية الدوائيين ـ ولكن انتبه ، انتهاك لموكب المنطقة إن لم يكن استهزاءً به ، انتبه » .

بعد خمس دقائق ، ردَّ السكرتير العام للمطران :

ـ « نيافته سيشارك فى المعارضة بشكل شخصى ، ابن عم لنيافته هو رئيس اتحاد الدوائيين ، انتبه » .

ـ « ماهى نتيجة الجمهور مع بولز ؟» .

ـ « لا شىء محدد حتى الآن ، لكن أكررُ : انتبه » .

بعد قليل طلب مونسنيور زِمر أن أوصله بمونسنيور فاينر :

ـ « ستة انتقلوا من الأبرشية المجاورة » .

ـ « كيف هم ؟ » .

ـ « اثنان مستقيمان ، ثلاثة ج ناقص ، أحدهما يبدو جيدًا ، هكمان عائلة عريقة » .

ـ « أعرفهم ، عائلة من الطراز الأول ، كيف كان الحال أمس ؟ » .

ـ « مرعب ، المعركة مستمرة » .

ـ « ما هو ؟ » .

ـ « مستمرة ، المعركة ـ فى السَلَطَةِ خَل » .

ـ « وقد حصلت الآن . . . » .

ـ « اعتمد أشهرًا على الليمون ، لا يستطيع الحصول على خَلٍّ ، تحدٍّ مطلق » ،

ـ « من تعتقد وراء ذلك ؟ » .

ـ « ف ، » قال زِمر : « أنا متأكد أنه « ف» أشعر بالانزعاج » .

ـ « عمل مرعب ، نعود له لاحقاً » .

ـ «نعم لاحقاً » .

وهكذا أُلْقِيتُ فى معركة خضتها كما يبدو من أجل قطرات خَلٍّ .

حوالى الحادية عشرة وخمسين دقيقة ، اتصل « سيرج» مرة أخرى وقال :

ـ « بوكنر ، كيف تفضل النزول إلى المدينة ؟

ـ لا أستطيع الابتعاد ، سيدى »

ـ «معى شخص يريحك ، لمدة نصف ساعة ، إلى المصرف فقط ، وقد شعرت بأنك تود ذلك . هنالك أوقات يود فيها المرء الابتعاد » .

ـ « من سيريحنى ؟» .

ـ « الأنسة هانكه ، فسكرتيرتى ليست هنا ، والآنسة لا تستطيع الذهاب بسبب عجيزتها ، ما تقول فى هذا ؟ »

قلت : « حسن » .

ـ « هذا ما ظننته . سأصعد حالما تصل هانكه » .

وصلت الآنسة « هانكه » حالاً ، دائماً ما أشعر بهزة حين تدخل غرفتى باهتزاز بدنها الغريب. إنها تحررّنى حين أرغب فى الخروج ، لأذهب إلى طبيب الأسنان أو لأحمل رسائل لسيرج حينما يريدنى أن « أُبادل» . . الآنسة « هانكه » طويلة القامة محنية وسمراء . مشكلة عجيزتها بدأت قبل ثلاث سنوات ، حين كانت فى العشرين . لم أتعب قَط من النظر إلى وجهها : أنيق ، تظلّلُهُ لطافة . حلمت لى زهرات أقحوان ، وضعتها فى الأصيص بجوار النافذة قبل أن تصافحنى .

قالت : « كيف الصغار ؟ »

قلت : « بخير . . إنهم بخير » .

وارتديت سترتى .

قالت مبتسمة : « بوكنر ، شخص ماراَكَ سكراناً . لتعرف فقط إذا أشاعها زِمر » .

قلت : « شكراً» .

ـ « يجب ألا تشرب » .

ـ « أعرف » .

وسألتنى متهيّبة : « وزوجتك ، كيف زوجتك؟ »

زررت سترتى ، نظرت إليها ، وقلت :

ـ «أخبرينى بكل شىء ، ما الذى يقولونه عن زوجتى ؟ » .

ـ «يقولون إنها تأمل ثانية ... » .

ـ « اللعنة عليهم ، زوجتى نفسها لم تعرف إلا أمس » .

ـ «مروجَ الإشاعات عرف قبل أن تعرف زوجتك » .

قلت : « آنسة هانكه ، مالذى يجرى ؟ »

تسلّمت نداءً ، أوصلت الخط ، نظرتْ إلىّ مبتسمةً :

ـ « حقيقة لا شىء ، يقولون إنك تشرب ، إن زوجتك حامل ، مع أنك منفصل عن زوجتك منذ مدة » .

ـ « طبعاً » .

ـ « حسن هٰأنتذا تقول . . أستطيع فقط أن أحذّرك من (زِمر) ، من (برسجن) ، من الآنسة (هشت) ، لكن لك أيضاً أصدقاء فى الجوار ، لك أصدقاء أكثر مما لك من أعداء » .

ـ « لا أصدّق ذلك »

قالت : « ذلك أمر حقيقى ، وبخاصة بين الكرادلة ، كلهم تقريباً يحبونك ، « ابتسمت ثانية ، » الطيور على أشكالها تقع ، كما تعرف ، ولست الوحيد الذى يشرب . » .

ضحكتُ : « أخبرينى بشىء واحد آخر فحسب : من الذى اغتال (زِمِر) اغتيالاً بطيئاً بقطرات من خَلٍّ ؟ »

ضحكتْ مندهشةً : « ألا تعرف ! »

ـ « حقيقةً لا أعرف » .

ـ « يا إلهٰنا الطيب ! نصف المحيطين بالأبرشية يضحكون من ذلك ، وأنت ، الجالس فى مركز كل الشائعات ، لاتدرى ! حسن : إنه « وب» ، ديكون وب ، له أخت مسئولة عن مطبخ فى دير وشاح العذراء الأزرق ، هل من حاجة لأن أقول أكثر ؟ »

قلت : « استمرى ، فليس لى مايدلنى » .

ـ « زِمِر منع وب من أن يصبح مطران . بدأ القصاص : خمسون فينيكاً لقنينة خل ، أُخرجت من زاوية خفيةً فى المطبخ فى دير وشاح العذراء الأزرق لحظة ظهر فيها (زِمر) لتناول وجبته . لكن أسرعْ أنت الآن ، سيرج فى انتظارك » .

أشرتُ لها برأسي وغادرت المكان . كلما حدّثتُ الآنسة هانكه ، امتلأتُ بسرور غريب . إن لها موهبة جعل الأشياءتفقد ثقلها . وبنظرتها النافذة تحيل الأمور إلى لعبة صالةٍ تتمنى التمتع بها .

نصُبٌ باروكية مثبّتة فى جدران الممر . هذا الممر المغسول جيدًا ، والذى يقود إلى مكتب سيرج . سيرج جالس فى مكتبه ، رأسه على يده . لا يزال رجلاً شابًّا ، أصغر منى ببضع سنوات ، وله أهميته فى القانون الشرعى .

قال : « صباح الخير يا سيد بوكنر » .

قلت : « صباح الخير » .

وسرت إليه ، فصافحنى .

وحين رأيته بعد أيام من إقراضى النقود جعلنى أشعر بأنه قد نسى أمرها . تلك هى مزيّتُهُ . ولعله نسيها فعلاً . مكتبه واحد من المكاتب القليلة التى لم تُدَمّر . وتحفتُه مدفئةٌ ذات زخرفة باروكية فى زاية مكتبه . هذه التحفة يشير لها دليل التُحَف الفنية . لم توقد هذه المدفئة لأن الأمير الناخب قضى الشتاءات الماضية فى قصر آخر أصغر من هذا . سلّمنى سيرج بضعة شيكاتٍ وظرفاً فيه أوراق نقدية .

قال : « هنالك اثنان وستون ماركاً وثمانية فينيكات . رجائى إيداع الشيكات والنقد فى حسابنا ، أنت تعرف رقم الحساب » .

ـ « سأفعل » .

قال : « أنا سعيد بالتخلص منها . ولحسن الحظ سيعود ، فتش بعد غد وسأعيد له كل هذه العوائد » .

حَدَّق فىَّ بعينيه الواسعتين الهادئتين ، وأحسست بأنه يتوقع منى الحديث عن زواجى . صحيح أنه قد يكون قادرًا على إسداء نصيحة ، كما هو أمر طبيعى أن تكون لموضوعى عنده أوليّات ممتعة . أرى فى وجهه رقة وذكاء ، أود الحديث معه ، لكننى لا أستطيع أن أقرّب إليه . أفكر أحياناً ، أنى سأتحدث إلى قسٍ رثّ الثياب ، وحتى أنى سأعترف إليه . لكنى أعلم أيضاً أن لا لوم على أحد بسبب نظافته أو حبه للنظافة ، إذن فسيرج الذى أعرف طيبته هو أخر شخص يمكن أن ألومه على ذلك ، ومع هذا ، فإن بياض ياقته الناصع ، والطريقة المتقنة التى تظهر فيها الحافة البنفسجية وراء غفّارته، ذلك كله لم يشجعنى على الحديث إليه .

وضعت الشيكات والنقود فى جيب سترتى الداخلى ، نظرت إليه ثانية ، ووجدت نفسى أواصل النظر فى العينين الواسعتين الهادئتين اللتين بدتا هما أيضاً لا تغادران وجهى . أحسست به وكأنه يريد أن يقدم لى عوناً . إنه يعرف كل شىء ، إنه لن يفتح الحديث عن الموضوع . رددت على نظرته حتى راح ببطء يبتسم ، فسألته فجأة سؤالاً بقيت سنوات أريد أن أسأله لقُسٍّ :

ـ « هل تعتقد يا سيدى بأن الموتى سينهضون ثانية ؟ »

تابعت وجهه الوسيم النظيف بدقة ، وظلت عيناى تلازمان وجهه بحرص ، فما تغيّرت ملامحه ، وقال لى بهدوء :

ـ « أجل ! » .

ـ «وهل تعتقد فى ذلك ؟ » .

مضيت بأسئلتى ، لكنه قاطعنى إذ رفع يده ، وقال بهدوء :

« أعتقد فى كل شىء تريد أن تسألنى عنه ، وإلاَّ خلعت هذا الجلباب فى الحال وطلقت شريعتى ، تاركاً كل هذا الكوم ورائى» .

وأشار إلى حشد من الملفات على مكتبه .

ـ « لكنت أحرقت هذه الملفات ، لأنها عندئذ ستكون لا معنى لها عندى ، ولا عند أولئك الذين يعذبون أنفسهم بسبب ذلك الاعتقاد نفسه »

قلت : « اغفر لى »

« أوه ، من أجل ماذا ؟ » قالها بهدوء وأكمل :

« أعتقد بأن حقك فى أن تسألنى أكثر من حقى فى أن أسألك » .

قلت : « لا تسألنى »

قال : «لا أفعل ، ولكنك ستتكلم يوماً ، أليس كذلك ؟ »

قلت : « نعم ، يوماً ما سأتكلم » .

تناولت الصحيفة من البواب ، حسبت نقودى مرة أخرى خارج المدخل، وسرت فى البلدة مُبْطِئاً ، فكرت فى أشياء كثيرة : فى الأطفال ، بكيت بما أخبرنى به « سيرج » ، والآنسة « هانكه » . كلهم كانوا على حق ، وأنا المخطىء ، لكن ما عرف أحد منهم ، ولا حتى « كيت » كم كنت مشتاقاً لأطفالى ، ولكيت أيضاً ، وكيف كانت تمر بى لحظات أعتقد فيها بأنى على صواب وكل الآخرين مخطئون ، لأنهم جميعاً يستطيعون التعبير جيدًا عن أنفسهم ، وأنا الذى لا أستطيع العثور على الكلمات .

فكرت إنْ كنتُ أقدر أن أشترى لنفسى كوباً من القهوة وأقرأ صحيفة . ولفّنى ضجيج الشارع وإن كنت أمضى باستقامة بين الأصوات ـ شخص

كان يبيع موزاً ، ينادى عليه . توقفت أمام واجهة بونبرج ، تطلعت إلى المعاطف المعلّقة ، إلى وجوه « المانيكانات » التى تفزعنى دائماً . حسبت الشيكات التى فى جيب سترتى الداخلى ، تأكدت من أن الظرف وما يحويه من نقد لا يزال فى مكانه ، وفجأة وقع نظرى على الأركاديا التى تقسم واجهات بونبرج : رأيت امرأة فلامس مرآها قلبى ، وأثارنى .

المرأة لم تعد شابة ، لكنها جميلة ، رأيت ساقيها ، تنورتها الخضراء ، رثاثة « جاكتها » البنّى رأيت قبّعتها الخضراء ، ورأيت فوق كل هذا ، جانب وجهها ، ملامحها الناعمة الحزينة ، ولدقيقة أو أكثر ، لا أدرى كم من الوقت ـ توقّف قلبى ؛ رأيت ، خلال الزجاج أنها كانت تنظر إلى الملابس ، وهى فى الوقت نفسه تفكّر فى شىء آخر .

شعرت بقلبى يخفق ثانية ، ما زلت أرى جانب وجه المرأة ، وفجأة عرفت أنها « كيت » . مرةً أخرى بدت غريبةً علىّ ، لبضع لحظات أبحرت فى الشك ، شعرت بحرارة تجتاحنى وظننتى سأُجَنُّ لكنها الآن واصلت مشيتها ، تبعتها ببطء ، وحين رأيتها بدون زجاج ، عرفت أنها « كيت » حقيقةً .

لقد كانت « كيت » ، لكنها « كيت » أخرى ، مختلفة تماماً عن تلك التى عرفت وأنا أتابعها طول الشارع ، ما زالت تبدو لى غريبة وقريبة فى آن واحد . هى زوجتى التى أمضيت معها الليل كله ، التى كنت متزوجها لخمس عشرة سنة .

فكرت : « ربما أنا فى طريقى إلى الجنون فعلاً » .

فزعت حين دخلت « كيت » إلى المخزن ، توقفتُ إلى جانب عربة

خضار، أراقب مدخل المخزن ، وبعيدًا ورائى ، وكما لو كان ينادينى من منطقة أخرى ، سمعت الرجل الذى يقف ورائى مباشرة يصيح :

ـ « قرنبيط ، قرنبيط ! اثنان بمارك ! » .

وإن كان ذلك غير معقول ، فقد كنت خائفاً من أن « كيت » لن تخرج من المخزن ثانية : راقبت المدخل ، تفرّست فى الوجه المكشرّ لذلك الجاوىّ المصنوع من كارتون وهو يحمل كوب قهوة إلى أسنانه الساطعة وسمعتُ صوت بائع الخضار كأنه يصل إلىّ من كهف عميق :

ـ قرنبيط ، قرنبيط ! اثنان بمارك ! .

وفكرت فى أشياء كثيرة جدًّا لا أعرف الآن ما هى ، ارتعت لرؤية « كيت» وهى تخرج من المخزن . سارت قدماً فى شارع « كرون » مشت مسرعة جدًّا ، لكنها توقفت بعد ذلك أمام واجهة مخزن دُمًى ، كنت أستطيع مراقبتها ، أستطيع رؤية جانب وجهها الحزين ، رأيت قامتها ، تلك التى تمدّدت إلى جانبى فى الليل سنوات عديدة ، تلك التى رأيت قبل أربع ساعات فحسب ولم أميزها ، حين استدارت ، خطواتُ بسرعة وراء منصة بائع متجول ، فتمكنتُ من رؤيتها بدون أن ترانى . نظرَتْ فى حقيبة تسوّقها ، سحبتْ قطعة ورق ، قرأتها ، إلى جانبى كان الرجل يصيح :

ـ « إذا توقّفتم عن التفكير ، ياسادة ، بِحَلْقِ لِحاكُمْ لمدة خمسين سنة ، نعم خمسين سنة ، فإن بشَرتَكم ...

لكن « كيت واصلت سيرها ، ولم أسمع نهاية كلام البائع الجوّال . . تبعتُ زوجتى ، ورأيتها من بُعْد خمسين خطوة اجتازت خطوط الترام التى تلتقى فى ميدان « بلدونر » . توقفت « كيت» و عند منصة بيع زهور ، رأيت

يديها ، يدى المرأة التى ارتبطتُ بها ارتباطاً حميماً أكثر من أى إنسانٍ آخر على وجه الأرض ، التى مانمت معها فحسب ، وأكلت وتحدثت أكثر من عشر سنوات مستمرّة ، لكن هنالك شيئاً آخر يربطنى بها أكثر من النوم معاً ؛ كان هنالك وقت صلّينا فيه معاً .

اشترت بعض الأزهار الصفراء والبيضاء ، واستمرت بطيئة فى سيرها ، جد بطيئة ، هى التى كانت تمشى مسرعة جدًّا ، أعرفُ فيمَ تفكر . تقول دائماً أشترى الأزهار التى تنبت فى المروج ، حيث لا يلعب أولادنا أبدًا .

وهكذا سرنا ، الوحد وراء الآخر ، كلانا يفكر فى الأطفال ، وما امتلكتُ تلك الأصوات من حولى . بعيدة واهنة ، صوت مذيع المحطة رتيباً يطن فى أذنى وهو يعلن فى مكبر الصوت :

ـ « نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) إلى معرض الدوائيين ـ نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) ... » .

مضيت وراء « كيت » مثلما أسبح فى ماء رمادى ، لم أعد أستطيع حساب دقّات قلبى ، وفزعت مرة أخرى حين دخلت « كيت» كنيسة الدير وأغلقت وراءها الباب الأسود المبطن بالجلد . إذا ذاك انتبهت إلى أن السيجارة التى أشعلتها حين مررت بالبواب أنا فى طريقى من مكتب الأبرشية لا تزال متّقدة . رميتها ، فتحت باب الكنيسة ، سمعت أنغام الأورغن ، فتراجعت ، سرتُ عبر الميدان ، جلستُ على مصطبة ، وانتظرت .

انتظرتُ وقتاً طويلاً ، حاولت أن أتخيّل ما كان فى الصباح ، حينما ركبت « كيت فى الحافلة ، لكن لم أستطع تصورّ شىء ـ شعرت بالضياع ، هائماً

أطفو على مجرى لانهاية له ، والشىء الوحيد الذى استطعت رؤيته هو الباب الأسود للكنيسة والذى ستخرج منه كيت » .

حين جاءت فعلاً ، لم أتثبّث من أنها هى ، كانت تسير أسرع ، وقد وضعت الأزهار الكبيرة ، طويلة السيقان بين مقبضى حقيبتها ، وكان علىَّ الإسراع للّحاق بها وهى تمشى منزلقة عبر ميدان « بلدونر » عائدة إلى شارع كرون : الأزهار تهتز وفق إيقاع خطواتها ، أحسست بتعرّق راحتى ، وبدوار قليل ، فى حين طفح قلبى بخفق كثير موجع .

توقفت أمام واجهة « بونبرْج » و تيسّر لى وقت لأتسلّل بين « الأركاديا » ، فصرت أراها واقفة حيث كنت واقفاً أنا . رأيتها لطيفة، حزينة الملامح ، تابعت قوامها يعلو على المعاطف الرجالية المعلّقة ، وكلما تأرجحت واجهة «بونبرج » الثقيلة ، سمعت مكبّرة الصوت من الداخل : «

ـ « سِتَر ؟ فى بونبرج ! قبّعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ! فى بونبرج ! لقبّعة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لك فى بونبرج !» .

استدارت « كيت » وعبرت الشارع ، وقفت عند كشك مرطبات ، ومرة أخرى رأيت يديها الصغيرتين تدفعان نقودًا عبر المنضدة ، تلتقط الباقى وتبعه فى محفظتها حركات صغيرة أعرفها ، تسبّب لقلبى الآن ألماً كبيرا سكبت عصير الليمون فى قدح ، شربته ، ومن داخل من المخزن جاء الصوت :

ـ « سِتَر ؟ فى بونبرج ! قبّعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ؟ فى بونبرج! لقبّعة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لك فى بونبرج ! »

ببطء دفعت القنينة ، وبعدها القدح ، رفعت الأزهار بيدها اليمنى ،

ومرة أخرى رأيتها تغادر ، إنها زوجتى التى عانقتها عددًا لا يحصى من المرات بدون أن أستوعبها .

سارت مسرعة ، بَدَتْ عَلَى قَلَقٍ ، بقيَتْ تُعاود النظر إلى وراء ، وأنا كدت أعود ، أنحن ، شعرت بوجع حينما اختفت قبّعتها لحظة ، وحينما توجهت إلى موقف الترام (رقم ١٢) فى شارع « جيرسنن » لُذْتُ أنا فى حانة فى الجهة الأخرى من موقف الترام .

قلت لصاحب الحانة ذى الوجه الأحمر المستدير :

ـ « شنابز »

ـ « كبير ؟ »

ـ « نعم » .

وأتيت على كأس الشنابز الكبير . نظر إلىّ صاحب الحانة نظرة طويلة ، وقال :

ـ أترغب فى واحد آخر ؟ »

ـ «كلا ، شكرًا ، كم ؟ »

ـ «ثمانية فينيكات . »

وضعت ماركاً ، وبدأ بطيئاً يعد لى عشرين فينيكاً ، وما زالت عيناه مسلطتيَن علىَّ . وعلى طول شارع « جيريستن » ، عبر ميدان « موتلكه » عدت أخطو إلى مكتب الأبرشية ، بدون معرفة لما سأفعله .

اجتزت البواب فى الممر الأبيض النظيف مارًّا بالتماثيل الباروكية ، طرقتُ على باب « سيرج » وإذ لم يجبنى أحد ، دخلت :

ـ « حسن يا بوكنر ، لقد عدت سريعاً ! » .

ـ « سريعاً ؟ .

أجبته دون أن ألتفت .

« نعم » .

وضحك : « ما كادت تمر عشرون دقيقة . » .

ثم توقّف قُبالتى ونظر إلىَّ ، وكنت أرى من سيما وجهه ما قد جرى فى ذهنه ، رأيت ذلك كله إنها يقظة عريضة ، ومن وجهه يمكن أن أقول إن أولى أفكاره كانت عن النقود ، فد ظن أن شيئًا مًّا حدث لنقود . رأيت ذلك فى وجهه .

قا ل لى بهدوء : « بوكنر ، أنت مريض ، أم سكران ؟ ». سحبت الشيكات من جيبى ، الظرف وفيه الأوراق النقدية ، قدمتها لسيرج ، أخذها منى وبدون أن ينظر إليها وضعها على مكتبه .

قال : « بوكنر ، قل لى ماذا حدث ؟ »

قلت : « لا شىء ، لم يحدث شىء » .

ـ « هل تشعر بمرض ؟ »

ـ « كلا إنى أفكّر فى شىء ، لقد تذكرت الآن شيئاً » .

ورأيت كل شىء وراءت عينى « سيرج » النظيفتين ، رأيت « كيت » زوجتى ، سمعت شخصاً يصيح : « ستِرَ» « رأيت « كيت» مرة أخرى ، شارع كرون بطوله ، رأيت رثاثة جاكِتها البنّى ، سمعت شخصاً مًّا يُعلن عن ترام خاص على الخط (هـ) إلى معرض الدوائيين ، رأيت باب الكنيسة

الأسود ، رأيت أزهار المارجريتا طويلة السيقان مهيأة لقبرَىْ طفليّ ، وشخصاً يصيح : قرنبيط ! « رأيت ، سمعت كل شىء مرة أخرى ، رأيت «كيت » حزينة ناعمة الملمح ، رأيت كل شىء خلال وجه « سيرج » . حين مضى مبتعدًا عنى ، رأيت الحائط الأبيض فوق المدفأة المزخرفة التى لم توقد قط : تمثال من كارتون لجاوى يحمل كوباً من القهوة لأسنانه البيض الساطعة

كان سيرج يتحدث فى الهاتف :

ـ « سيارة ، أرسل سيارة فى الحال . »

ثم رأيت وجهه متجهاً إلىّ مرة أخرى ، وأحسست بنقود فى يدى . نظرت إليها : قطعة فئة خمسة ماركات لامعة .

وقال سيرج :

ـ « يجب أن تمضى إلى بيتك » .

ـ « نعم ، بيتى » .



هاينرش بُلْ Heinrich Böll وهذه الرواية :

فى السادس عشر من تموز ١٩٨٥ توفى الكاتب الألمانى هاينرش بل ، حامل جائزة نوبل لسنة ١٩٧٢ ، وكانت آخر رواية نشرت لهذا الكاتب هى روايته المعروفة « نساء أمام منظر نهرى» .

الحسنة العظيمة لهذا الكتاب ذى الطبع الرقيق والأسى الإنسانى هى أنه يرسم شخصيات لا تفارق الذاكرة ، وتظل مثل بعض ممن تحبهم أو تريد أن تُعين فى روايتنا هذه ـ ولم يقل كلمة ـ نظل نتذكر « بوكنر » إنساناً بسيطاً وممُتحناً ، ونظل نتذكر السيدة ـ الأم « كيت » . ولا ننسى الشخصيات التى التقيا بها فى السكن أو فى الطريق ، وشخصياته فى رواياته الكبرى الأخرى : « بيت بلا حراس » ، أو « بيت دون حراسة » ، و«بليارد فى التاسعة والنصف» ، و « أين كنت ياآدم ؟» ، و « صورة جماعية مع سيدة » ، و«المهرج» ، و « خبز السنوات الأولى » . . هى شخصيات يذكرها جيدًا من التقى بها فى كتبه . . فكما نتذكر كيت ، وبوكنر ، وسيرج ، وفتاة المطعم الصغير ، والأبله فى روايتنا التى نقدمها اليوم ، نتذكر جيدًا آدم فى أين كنت يا آدم ؟ ، ولينى فى صورة جماعية مع سيدة ، وشنر فى المهرج ، وهيدفيك فى خبز السنوات الأولى .

حين انتهيت من قراءة المهرّج "The Clown" وهى فى الألمانية" نظرات مهرج Ensichten eines Clowns " وقرأت "ولم يقل كلمة And Never Said a word » وجدتنى أمام محبة خاصة أسعد إذ أجدها فى الكتابة ، ووجدتنى أمام رقة وخصب إنسانيين نحتاج إليهما فى الحياة . لم أجد فى كتابته كراهةً شديدة، لم أجد ثأرًا موجعاً ، لم أجد عبارة قاطعة . . بل وجدت ابتساماً هادئاً ، وألماً هادئاً ، ورفضاً هادئاً ، ومحبة مديدة هادئة ، دون أن يفتقد صرامة الحكمة أمام الخطأ . . فأى توازن فى شخصية هذا الكاتب النبيل ! وأية قوة إيمان لا تستدرجها أو تغريها صغائر الحياة وموضوعاتها العابرة ! لا يكتب إلا عن شىء يؤمن بجدواه وخيره . إنه واعظ مثلما هو مبدع ، وإنه « مرجع » كما وُصِفَ حين أريد وصفُه .

وُلد « بُل » فى « كولون » فى ١ أيلول عام ١٩١٧ . كان كاثوليكيًّا من «كولون»، ولكنه كان ينظر للكنيسة من بُعدٍ صافٍ وفَهْم خاص . وهكذا ظل حتى مات . ففزعت لموته جماهير ، وأدباء ورجال سياسة ، وأنصار سلام ، وقُراء ، ورجال دين . . فما كان المبدعُ الذى توفى كاتب روايات ، ولا كاتبَ مقالة، أو مترجماً يحمل شارة شرف، ولكنه ـ كما وصفه فرانز جوزف كورتز ـ: إن لم يكن سُلطةً فهو ضمير الأمة الذى لا يموت ، وبُعد أخلاقى ، حتى فى نظر أولئك الذين لا يشاركونه مواقفه السياسية ... » .

وقال عنه الناقد الألمانى فريتس رادتس Fritz Raddatz :

«فى كتب بُل دائماً شىء ينفع الناس . فقد جعل لهم اللغة قابلةً للسكنى. والتطابق النادر بين هويتى المؤلف وأعماله أمر يتخطى التجربة اللسانية الذوقية ، إذ إن أعمال « بُل » حافظت دوماً على التوازن بين ما يؤمله القارىء من تخيّل منظارى وما يقدمه المبدع ... لقد اعتُرِف لـ « بُل» بدور

الإخبارى الناقد الذى يؤرخ وقائع الجمهورية الاتحادية ، وبدور المراسل من بلد الجوع وإعادة البناء ، بل المعجزة الاقتصادية وإعادة التسلح ، وأخيرًا بلد قاعدة « البرشنغ ـ التى تظاهر ضدها فى مونتلاغن هذا الحامل لجائزة نوبل . . لقد كان «هاينرش بُل» بلزاك الجمهورية الألمانية الثانية . فكما أن ذاك رسم مجتمع الجشع فى مملكة البرجوازية ، فإن «بُل» أخرج لنا الرقصة الهائلة لعمالقة التكالب على الإثراء بعد الحرب العالمية الثانية ... » .

«هذا هو المفهوم الأصلح لفن « هاينرش بُل » ، إنه مُخْرِجٌ . إنه لا يخترع، بل يجد . إن مادته مركّبةٌ مما هو موجود أو مُتَذكَّر . رواياته تحيا من حافز معين . وذلك ليس بحثاً عن الزمن الضائع ، بل عن الزمن المخون ، الزمن : إنه مافعَلْنا ... » .

هكذا اتضح المشهد الآن . . الإشارة الواضحة هى الرواية الآن ، أو هى وثيقة الإدانة أو الكشف الحزين لما يجرى . بمحبة موجعة يكتب مثل هذا «بلُ» .

لقد اخترنا من أعماله مثلاً ، اخترنا هذه الرواية لأنها حميمة ، ولأنها مَثَلٌ قريب واضح الخطاب ، ويرسم بشكل جميل ومحدد ما كان يجرى . . ليست استثناء ، فقد تحدث «بُل» فى كل رواياته عن الناس ، تحدث عنهم فى ألمانيا بعد الحرب وتحدث عنهم فى غيرها ، ولم يكن له مكان واحد يُؤثر اختيار نماذجه منه ، لأنه أصلاً لم يختر نماذجَ ، وإنما وجد ناساً وتحدث عنهم وهم يواجهون النتائج الصعبة مثلما يجهدون للخلاص من أسباب نتائج أخرى تستجد . لقد كانوا يعانون من « السباحة فى ماء رمادى » . . كل هذا وإنسانيتهم معهم : يحبون ويشتاقون ويتمنون ، وإذ يضحكون فنادرًا ،

وبخفوت ، وابتساماتهم لا تكاد تظهر حتى تختفى . الهمُّ فى أرواحهم وعلى الوجوه .

ولا نعلم إن كانت روايات «بُل» ستُقرأ فى القرن القادم ، ولكن مادام هنالك أدب ألمانى فسَيُذْكَرُ « هاينرش بُل » بالاحترام والتقدير .

ياسين طه حافظ



عربية للطباعة والنشر
١٠٢٧ شارع السلام - أرض اللواء المهندسين
تليفون ٣٠٣١٠٤٣ - ٣٠٣٦٠٩٨

محمد حجي

